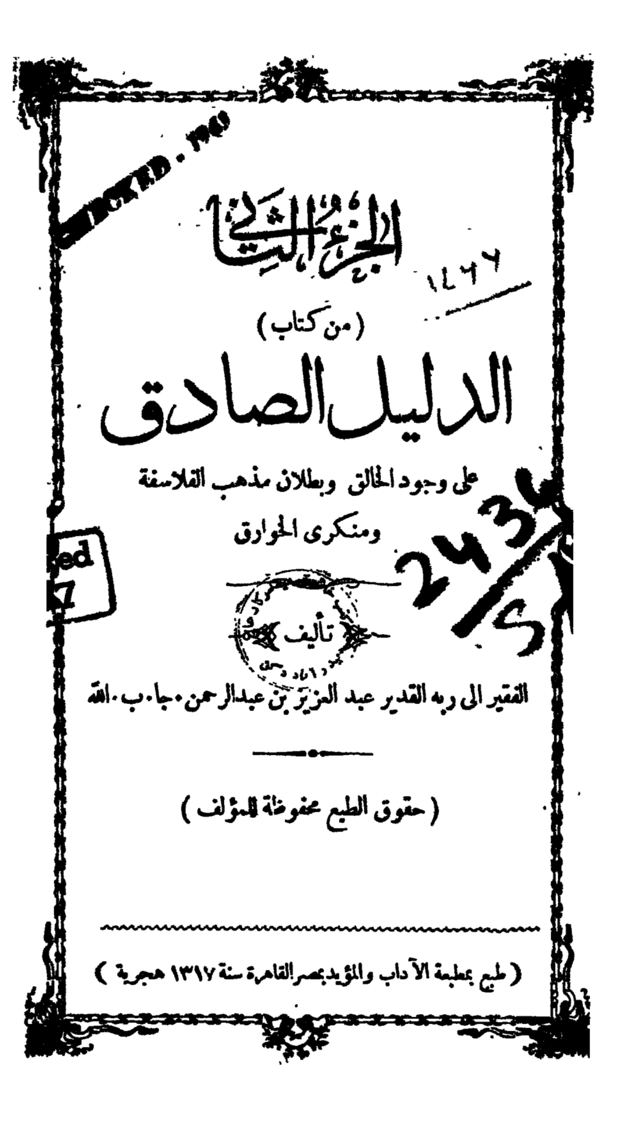


الجزء الثاني

(من كتاب)

الدليل الصادق

على وجود الخالق وبطلان مذهب الفلاسفة

ومنكري الخوارق

تأليف

الفقير الى ربه القدير عبد العزيز بن عبد الرحمن جاب الله

(طبع بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر القاهرة سنة ١٣١٧ هجرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد فقد قال الله تعالى في سورة بني اسرائيل (ولقد كرمنا بنى آدم) قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم من حيث الاختصاص بالقوة العاقلة المدركة لحقائق الاشياء كما هي وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالي ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذى يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الارواح والاجسام كما هي وقد ذكر المفسرون فى هذا التكريم وجوها . أحدها ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وماقيل من شركة القرد له في ذلك مبني على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده ، وقيل ان الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى التفسير عن جدك فى قوله تعالي ولقد كرمنا بنى آدم وجعلنا لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه . وثانيها ماقال الضحاك وهو النطق والتميز وتحقيق الكلام أن من عرف شيأ فاما أن يعجز عن تعريف غيره كونه عارفا بذلك الشيء أو يقدر على هذا التعريف أما القسم الاول فهو حال جملة الحيوانات سوى الانسان فانه اذ حصل فى

باطنها

باطنها ألم أولذة فانها تعجز عن تعريف غيرها تلك الاحوال تعريفاً تاماً وافياً وأما القسم الثانى فهو الانسان فانه يمكنه تعريف غيره كل ماعرفه ووقف عليه وأحاط به فكونه قادراعلى هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقاوبهذا البيان ظهر ان الانسان الاخرس داخل فى هذا الوصف لأنه وان عجزعن تعريف غيره مافي قلبه بطريق البيان فانه يمكنه ذلك بطريق الاشارة وبطريق الكتابة ولا يدخل فيه البيغا لانه وان قدر على تعريفات قليلة فلاقدرة له على تعريف جميع الاحوال على سبيل الكمال والتمام. وثالثها ماقال عطاء وهو امتداد القامة وينبغي أن يشترط فيه شرط وهو طول القامة واعتدالها مع استكمال القوة العقلية والقوى الحسية والحركية. ورابعها حسن الصورة وان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد أنموذجالك في هذا الباب. وخامسها ماقال بعضهم من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط قال الامام فخر الدين وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلم الذي يقدر الانسان على استنباطه يكون قليلا أمااذا استنبط الانسان علما وأودعه فى الكتاب وجاء الانسان الثانى واستعان بذلك الكتاب وضم اليه من عند نفسه أشياء أخرى ثم لا يزالون يتعاقبون ويضم كل متأخر مباحث كثيرة الى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية الى أقصى الغايات واكمل النهايات ومعلوم أن هذا الباب لا يتأتى ألا بواسطة الخط والكتبة ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى (اقرأو ربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) وسادسها أن أجسام هذا العالم اما بسائط واما مركبات أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار والانسان ينتفع بكل هذه الأربع أما الارض

فهي لنا كالأم الحاضنة قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخري) وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة الينا وهي الفراش والمهد والمهاد وأما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر وأيضاً سخر البحر لنأكل منه لحما طريا ونستخرج منه حلية نلبسها وتري الفلك مواخر فيه وأما الهواء فهو مادة حياتنا ولولا هبوب الرياح لاستولي النتن على هذه المعمورة وأما النار فبها طبخ الأغذية والاشربة ونضجها وهى قائمة مقام الشمس والقمر فى الليالي المظلمة وهى الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر

ومن يرد فى الشتاء فاكهة * فان نار الشتاء فاكهته

وأما المركبات فهي اما الآثار العلوية واما المعادن والنبات واما الحيوان والانسان كالمستولي على هذه الاقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها فهذا العالم بأسره جار مجري قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة الى الانسان والانسان فيه كالرئيس والمخدوم والملك المطاع وسائر الحيوانات بالنسبة اليه كالعبيد وكل ذلك يدل على كونه مخصوصاً من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل (وحملناهم في البر والبحر) على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وهذا أيضاً من مؤكدات التكريم المذكور أولا لانه تعالي سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه وكذلك تسخير الله تعالي المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم كل ذلك مما يدل على أن الانسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له (ورزقناهم من الطيبات) المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين انما يغتذى الانسان منه بألطف أنواعه وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك

مما

مما لا يحصل الا للانسان (وفضلناهم) في العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوي المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقه وانما استثني جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه وقد ذكر الامام فخر الدين فى هذا التفضيل وجوها * أولها أن المخلوقات تنقسم الى أربعة أقسام. الى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة. والي ما يكون بالعكس وهم البهائم. والي ما خلا عن القسمين وهو النبات والجماد. والى ما حصل النوعان فيه وهو الانسان ولا شك أن الانسان لكونه مستجمعاً للقوة القدسية المحضة وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية ولا شك أيضاً أنه أفضل من الاجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات واذ ثبت ذلك ظهر أن الله تعالي فضل الانسان علي اكثر أقسام المخلوقات * والثانى أن أشرف الموجودات هو الله تعالى واذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالي أتم وجب أن يكون أشرف لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الانسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاءه مكرمة بطاعة الله فوجب الجزم بأن أشرف موجودات هذا العالم السفلى هو الانسان ولما ثبت أن الانسان موجود ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته

ثبت أن كل ما حصل للانسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهي انما حصلت باحسان الله تعالى وانعامه . والفرق بين التكريم المذكور فى أول الآية والتفضيل المذكور فى خرها أنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثاني هو التفضيل * وقال تعالي في سورة طه (قال) أي موسى عليه السلام (ربنا الذي أعطى كل شيء) من الاشياء (خلقه) الذي هو عليه متميزاً به عن غيره أي صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي اليه وترتفق به (ثم هدى) أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختياراً كما فى الحيوانات أو اضطرارا كما فى الجمادات والقوي النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذي هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الاجسام متقدما على الهداية التي هي عبارة عن ابداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الاجسام وسط بينهما كلمة التراخي. قال الامام فخر الدين والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالي فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة قريبة الي الافهام . (أحدها) أن الطبيعي يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم أنه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الانسان فجعل أعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما فى البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التي هى بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن

الاسفل

الاسفل ليعرف أن ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) أنك اذا نظرت الى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال النمل والبعوض في اهتدائها الي مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) أنه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت أنه سبحانه هو الذي خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون الي كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطي الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدي الاولاد لثدي الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوّة الاخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوّة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لأن اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة أعنى التركيب والقوّة والهداية اما أن يكون واجبا أو جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على أن ذلك جائز والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعى قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من

منافع الاعضاء ومصالحها الآ القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجوداً آخر وذلك الموجوذ ا أن يكون مؤثرا بالذات أوبالاختيار والاول محال لان الموجب بالذات ذ يتميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية فى الجسمية فلم اختص بعضها بصورة الوجه وبعضها بصورة اليد وبعضها بصورة الرجل وبعضها بقوة السمع وبعضها بقوة الشم وبعضها بقوة الهضم الى غير ذلك من القوي والاعضاء المختلفة والافعال المتباينة فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الآ اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر لا بد وأن يكون واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته والالافتقر الي مدبر آخر ولزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود فى قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادراً على كل ماصح أن يكون مقدوراً فظهر بهذه الدلاله أستناد العالم الى مدبر واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالي * وقال تعالي فى سورة المؤمنون (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) السلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القله كالقلامة والقمامة أي من خلاصة تولدت من فضل الهضم الرابع وتواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة حتي صارت منياً ولاشك أن تلك الخلاصة انما تولدت من الأغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهي الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين (ثم جعلناه نطفة) بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء (في قرار) أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة

(مكين) وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فانها مكنت بحيث هى وأحرزت قال الامام فخر الدين ومعنى جعل الانسان نطفة أنه خلق جوهر الانسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الي رحم المرأة فصار الرحم قراراً مكيناً لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر (ثم خلقنا النطفة علقة) أي دماً جامداً بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ لا استبانة ولا تمايز فيها (فخلقنا المضغة) أي غالبها ومعظمها أو كلها (عظاما) بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيآت وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة (فكسونا العظام) المعهودة (لحما) من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل اليها من دم الحيض أي كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى خلقاً مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جماداً وناطقاً وكان أبكم وسميعاً وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين * وروي العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تصريف الله اياه بعد الولادة فى أطواره فى زمن الطفولية وما بعدها الي استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده الى أن يموت وهذا المعنى مروي أيضاً عن ابن عمر وانما قال أنشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاء له (فتبارك الله) فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات الي الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بان ماذكر

من الافاعيل العجيبة من أحكام الالوهية وللايذان بان حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لا حظه أن يسارع الى التكلم به اجلالا واعظاما لشؤنه تعالى (أحسن الخالقين) أى هو أحسن الخالقين خلقاً أى المقدرين تقديراً حذف المميز لدلالة الخالقين عليه (ثم انكم بعد ذلك) أى بعد ما ذكر من الامور العجيبة (لميتون) لصائرون الى الموت لا محالة (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب وقد جعل سبحانه الاماتة التى هى اعدام الحياة والبعث الذى هو اعادة مايفنيه ويعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الانشاء والاختراع * وقال تعالى فى سورة الفرقان (وهو الذي خلق من الماء بشراً) أى جعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيآت حسبما اقتضته الحكمة الالهية أو هو النطفة (فجعله نسباً وصهراً) أي قسمه قسمين ذوي نسب أى ذكورا ينتسب اليهم وذوات صهر أي اناثا يصاهر بهن (وكان ربك قديراً) حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى * وقال تعالي في سورة الروم (أولم يتفكروا فى أنفسهم) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ماذكر فى الآية قبل من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى أنفسهم ليستدلوا بصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته فان أقرب الآيات والدلائل نفس الانسان فلو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله فان الله خلقهم علي أحسن تقويم * قال الامام فخر الدين ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزأ وهو أن الله تعالى خلق للانسان

معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج ذرة ولا بالرشح وتمسكه المعدة الي أن ينضج نضجاً صالحاً ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا صلابا كالمصفاة التي يصفى بها الشيء فينزل منها الصافى الى الكبد وينصب الثفل الي معي مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجها الى الخروج وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمي الماسريقا بالعبرية ولما ينزل الصافى الي الكبدويشتمل عليه ينضجه نضجاً آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرق وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة وفي الكبد يستغني عن ذلك الماء فيميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تغتذي به الكلية وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ثم يتشعب ذلك النهر الي جداول والجداول الى سواق والسواقى الى رواضع ويصل فيها الي جميع البدن فهذه حكمة واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادراً كاملا عالماً شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحداً والا لكان عاجزاً عند ارادة شريكه ضد ماأراده * وقال تعالى فى سورة الروم أيضاً (ومن آياته) الباهرة الدالة على قدرته (أن خلقكم من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ماأنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم قال الامام فخر الدين ان كل بشر مخلوق من التراب أما آدم فظاهر وأمانحن فلانا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء والغذاء اما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء وهو النبات لكن النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والنواة من التمر لا تصير شجرة الا

بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) أي فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون فى الارض وهذه حجة ظاهرة وآية باهرة على قدرته تعالي * وتقريره هو أن التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التي بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والي خلف والى قدام والي فوق والي أسفل وفى الجملة فالتراب أبعد عن قبول الحياة من سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات الذي ينبت فى الارض ولا يبرز ولا يرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الاشجار التي تقبل التعظيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدني مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل. ولا هى الي المنافع الجليلة وسائل. ثم الحيوانات وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولا سيما الفرس تشبه المثال والجمال والساعى ثم الانسان وأعلي مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو في أعلي المراتب لا يكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد علي انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة كذا

قال الامام فخر الدين قال وفى الآية لطيفتان .احداهما قوله اذا وهي للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة الي أن الله تعالي خلقه من تراب بكن فكان لا انه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا وهذا اشارة الي مسئلة حكمية وهي ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فينبهه أنه يحي حيوانا وناميا وغير ذلك لا انه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا نخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالي جعل المرتبة الاخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التى ذكرناها . اللطيفة الثانية قوله بشر اشارة الي القوة التى يحصل عند وجودها الادراك لان البشر بشر لا بحركته فان غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله تنتشرون اشارة الى القوة التي يحصل عند وجودها الحركة وكلاهما من التراب عجيب أما الادراك فلكثافته وجوده. وأما الحركة فلثقله وخموده.وقوله تنتشرون اشارة الي أن العجيبة غير مختصة بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر * واعلم انه تعالي ذكر في موضع آخر انه خلق من الماء بشراً وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فههنا قال ما هو أصل أول وفى ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لان ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعاً وهو المني ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه انسانا أو نقول الانسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت الا بالماء فى النبات الذي هو أصل غذاء الانسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالامر كذلك وان جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالامر كذلك فالله تعالى عبر تارة بالتراب وتارة بالماء ولم يقتصر على أحدهما أو يقل خلقكم منهما لان فيه لطيفة

وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما وانما هو بجعل الله تعالى
لان حكمته اقتضت أن يكون الناقص وسيلة الي الكامل فخلق التراب والماء
أولا وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الانسان
فلما كان كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الاصل
التراب وتارة الماء ليعلم انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا أصلا وان شاء
جعل ذلك أصلا وان شاء جعلهما أصلين (ومن آياته أن خلق لكم) أي
لاجلكم (من أنفسكم أزاجا) أي من جنسكم بعد ايجادها من ذات أبيكم
آدم عليه السلام (لتسكنوا اليها) أى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان
المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما ان المخالفة من أسباب التفرق والتنافر
(وجعل بينكم) أي بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء في
الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم
وبينهن (مودة ورحمة) أي توادا وتراحما بسبب الزواج الذي شرعه لكم
من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من
قرابة أو رحم وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد
كما قال تعالى ورحمة منا وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ورحمة حالة حاجة
صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من
جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وما ذلك لسبب المحبة
وانما هو لسبب الرحمة (ان في ذلك) أى فيما ذكر من خلقهم من تراب
وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معني البعد
مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه
كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) في تضاعيف تلك الافاعيل
المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه

على

على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آية بل هي مشتملة على آيات شتي * قال الامام فخر الدين قوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المراد ان فى خلق الازواج لآيات ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات أما الاول فلا بدله من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لوكان من غير الله لأفضى الي هلاك الام وهلاك الولد أيضاً لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات . وأما الثاني فكذلك لان الانسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر وكثيراً ما تجد انسانا يتزوج امرأة مع حب مفرط بينهما ثم يقع بينهما الفراق عن قرب مالم يحصل بينهما الالفة والتوفيق من الله تعالي ولذلك قال المأمون

ما الحب الا قبلة * وغمز كف وعضد
ما الحب الا هكذا * ان نكح الحب فسد

(ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم بان علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو اجناس نطقكم وأشكاله فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه ولو أن عربيين هما اخوان تكلما بلغة واحدة لعرف أحدهما من الآخر حتي ان من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان

الآخر (والوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الاعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لايشتبه بغيره حتي التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والامور الملاقية لهما في التخليق يختلفان فى شيء من ذلك لامحالة وان كانا في غاية التشابه وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الي التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر لخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع لخلق اختلاف الاصوات (ان فى ذلك) أي فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة في عددها (للعالمين) أى المتصفين بالعلم وخص العلماء لانهم أهل النظر والاستدلال دون الجهال المشغولين بحطام الدنيا وزخارفها (ومن آياته منامكم) أي نومكم (بالليل والنهار) لاستراحة القوي النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) أي تصرفكم فى طلب المعيشة فيهما بارادته فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض كما يدل عليه آيات أخر ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل اشارة الى أن العبد ينبغي ان لايري الرزق من كسبه وبحذقه بل يري كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالي فاذا قضيت الصلاه فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله (ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان

ويستدلون

ويستدلون بذلك على شؤنه تعالي قال الامام فخر الدين اعلم أن من الاشياء ما يعلم من غير تفكر. ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة. ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الي موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد. ومنها ما يحتاج بعض الناس في تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد انه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكرة فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الي كلام المرشد * وقال تعالي في سورة الروم أيضاً (الله الذى خلقكم من ضعف) أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفاً أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة. وقال الامام فخر الدين قوله من ضعف أشارة الى حالة كان فيها جنيناً وطفلا ومولوداً ورضيعاً ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغه الحلم وشبابه واكتهاله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) اذا أخذ منكم السن وهو اشارة الي ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف (يخلق ما يشاء) من الاشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة قال الامام فخر الدين بين بقوله يخلق ما يشاء ان هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى (وهو العليم القدير) البالغ في العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الاطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة * وقال تعالي في سورة لقمان (ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض) المراد بالتسخير اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من ان يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما في الارض من الاشياء المسخرة

للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله لجميع ما فى السموات من الاشياء التي نيطت بها مصالح العباد معا شاً أو معادا . واما جعله منقاداً للامر مذللا على ان معنى لكم لاجلكم فان جميع ما فى السموات والارض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله تعالي (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) أي حال كون تلك النعم محسوسة مشاهدة مثل حسن الصورة وتسوية الاعضاء وما فيها من السلامة (وباطنة) وهي ما في الاعضاء من القوي فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى ان العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفي كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائما * وقال تعالي فى سورة السجدة (الذي أحسن كل شيء خلقه) أى حسن كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه الا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الي حسن وأحسن كما قال تعالي لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه وقد خلق تعالي كل حيوان على صورة ولم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل فى صورته حسن فى شكله وكل عضو من أعضائه مقدر على مايصلح به معاشه وقال بعضهم انك اذا نظرت الى الاشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الارض للنبات والثبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه في كل موضع وحركة النار الي فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشيء هناك يقبل الاحتراق (وبدأ خلق الانسان من

(طين) على وجه بديع وفطرة عجيبة حيث كان أول فرد من أفراد الانسان وهو آدم عليه السلام مخلوقا من الطين مباشرة (ثم جعل نسله) أي ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى الممتهن (ثم سواه) أي عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ماينبغي قال الامام فخر الدين واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض اكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة فان التغيرات فيها كثيرة واليه الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أي كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً (ونفخ فيه من روحه) أي جعله حيا حساساً بعد أن كان جماداً وذلك بسبب نفخ الروح فيه وسيأتى بيان المراد من ذلك فى المقصد الرابع وأضاف الروح اليه تعالي تشريفا له وايذانا بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأنا له مناسبة الي حضرة الربوبية وأن أقصي ماتنتهي اليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالي وأخري بالنسبة الي أمره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى قال الامام فخر الدين * واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل داري وعبدى ولم يقل أعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالي (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعماً جليلة لا يقادر قدرها وسائل الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد

والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على
حقيقتهما (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض
التذييلي أى شكراً قليلاً أو زمانا قليلا تشكرون * وقال تعالى فى سورة
فاطر (والله خلقكم من تراب) فان التراب هو الاصل الاول لكل انسان
(ثم) أي بعد ذلك فى الزمان والمرتبة خلقكم (من نطفة) أي جعلها أصلا
ثانيا من ذلك الاصل الترابى فانها من غذاء والغذاء بالآخرة ينتهى الي الماء
والتراب فهم من تراب صار نطفة (ثم) أي بعد أن أنهي التدبير زمانا ورتبة
الي النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل
بالاختيار (جعلكم أزواجا) أي أصنافا أو ذكرانا واناثا دلالة هى أظهر مما
قبلها على الاختيار (وما تحمل من أنثي ولا تضع الا بعلمه) الا ملتبسة بعلمه
تابعة لمشيئته أى فى وقت الحمل ونوعه وشكله وغيرذلك من شأنه مختصاً بذلك
كله (وما يعمر من معمر) أي من أحد وانما سمي معمرا باعتبار ما هو صائر
اليه أي وما يمد في عمر أحد من مصغره الى الكبر (ولا ينقص من عمره)
أي من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه الا بحق
لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائداً بل على معنى لا يجعل من
الابتداء ناقصا (الا في كتاب) هو اللوح المحفوظ وقيل علم الله عز وجل
وقيل صحيفة كل انسان قال الامام فخر الدين قوله وما تحمل من أنثى ولا تضع
اشارة الي كمال العلم فان ما فى الارحام قبل الانخلاق بل بعده مادام في البطن
لا يعلم حاله أحد كيف والام الحاملة لا تعلم منه شيأ فلما ذكر بقوله خلقكم
من تراب كمال قدرته بين بقوله وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه كمال
علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى
كتاب فبين أنه هو القادر العالم المريد (ان ذلك) أى ماذكر من الخلق وما

بعده

بعده مع كونه محارا للعقول والافهام (على الله يسير) هين لاستغنائه عن الاسباب * وقال تعالي فى سورة يس (أولم ير الانسان) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكر الانسان ولم يعلم علما قويا هو فى ظهوره كالمحسوس بالبصر (انا خلقناه من نطفة) أى شيء حقير يسير من ماء لاانتفاع به بعد ابداعنا اياه من تراب وانه لحم وعظام ولو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال فى كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة (فاذا هو خصيم مبين) معطوف على خلقناه ومعناه فاذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح وفيه لطيفة غريبة وهى أنه تعالي قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ماهو أظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب أن جاهلا يقول انه استحال وتكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الي ادراك القدرة والاختيار منه أقرب * وقال تعالي فى سورة الزمر (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) بيان لكيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد (خلقا من بعد خلق) مصدر مؤكد أي يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق أي خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (فى ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ظلمة الصلب

والبطن والرحم (ذلكم) اشارة اليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته تعالي في العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أي ذلكم العظيم الشان الذي عرفتم عجائب أفعاله هو (الله ربكم) أي مربيكم فيما ذكر من الاطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الاطلاق ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (لا اله الا هو فاني تصرفون) الفاء لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤنه تعالي أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية * وقال تعالى في سورة الزمر أيضاً (أولم يعلموا) أي أغفلوا ولم يعلموا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسط له (ويقدر) لمن يشاء ان يقدره له وقال الامام فخر الدين يعني أولم يعلموا ان الله تعالي هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة ويقبض تارة أخرى وقوله ويقدر أى ويقتر ويضيق والدليل عليه انا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ولا بد له من سبب وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لانا قد نري العاقل القادر قد يجهد فى طلب الدنيا معتمداً على عقله وقوته وهو في أشد الضيق وقد نري الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة وأنشد أبو بكر محمد بن سابق الصقلى الواعظ بالشام رحمه الله تعالي

كم من قوي قوي في تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
وكم ضعيف ضعيف فى تقلبه * كانه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على ان الاله له * فى الخلق سر خفي ليس ينكشف

وليس ذلك أيضاً لاجل الطبائع والانجم والافلاك لان فى الساعة التي ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيها أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الانسان ويولد أيضاً فى تلك الساعة عالم من النبات

فلما

فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة علمنا انه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ولما بطلت هذه الاقسام علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه وصح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى أو لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشتري * ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنه حكم رب السما * وقاضى القضاة تعالي وجل

* وقال تعالى فى سورة غافر (وصوركم فاحسن صوركم) أي صوركم أحسن تصوير حيث خلقكم منتصبي القامة بادي البشرة متناسبي الاعضاء والتخطيطات متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) أي اللذائذ (ذلكم الله ربكم) خبران لذلكم (فتبارك الله) أي تقدس وتنزه وتعالى بذاته (رب العالمين) أي مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر اليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية ثم قال تعالي (هو الذى خلقكم من تراب) أى بخلق أبيكم آدم منه أو أصالة على ما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة أي مني (ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أي أطفالا والافراد لارادة الجنس أو لارادة كل واحد من أفراده (ثم لتبلغوا أشدكم) علة ليخرجكم معطوفة على علة أخري له مناسبة لها كأنه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيأ فشيأ ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل وقال صاحب الكشاف هو متعلق بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا (ثم لتكونوا شيوخا) ضعفاء غرباء قد ماتت قوتكم ووهت أركانكم (ومنكم من يتوفي من قبل) اي من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الاشد أو قبله أيضا (ولتبلغوا)متعلق

بفعل مقدر بعده أى ولتبلغوا (أجلا مسمي) هووقت الموت أويوم القيامة يفعل ذلك (ولعلكم تعقلون)ولكي تعقلوا مافى ذلك الانتقال من طور الى طور من فنون الحكم ومافى هذه الاحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل * وقال تعالى فى سوره شوري (لله ملك السموات والارض) فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وفى كل ما فيهما كيفما يشاء (يخلق ما يشاء)مما نعلمه ومما لا نعلمه على أى صورة شاء (يهب لمن يشاء إناثا) من الاولاد (ويهب لمن يشاء الذكور) منهم من غير أن يكون فى ذلك مدخل لاحد (أو يزوجهم) أي يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعا (ذكرانا وإناثا) قالوا معني يزوجهم أن تلد غلاما ثم جارية أو جارية ثم غلاما أو تلد ذكرا وأنثي توأمين (ويجعل من يشاء عقيماً) والمعني يجعل أحوال العباد فى حق الاولاد مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن فيهب لبعض اما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى واما صنفين ويعقم آخرين والمقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الاشياء كيف شاء وأراد (انه عليم قدير) بالغ العلم والقدرة فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة * وقال تعالي فى سورة الذاريات (وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم) أى وفى أنفسكم آيات اذ ليس فى العالم شيء الا وفي الانفس له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيآت النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الافعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة والاختراعات الغريبة واستجماع الكمالات المتنوعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد اختلاف الالسنة والصور والالوان والطبائع وقيل يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين وقيل يعنى تقويم الادوات والسمع والبصر والنطق الي غير ذلك من العجائب المودعة فى ابن آدم (أفلا تبصرون) أي ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة

*وقال تعالى في سورة الطور (أم خلقوا من غير شيء) أي أوقع خلقهم وأحدثوا على هذه الكيفية المتقنة وقدروا هذا التقدير البديع والشكل العجيب من غير محدث ومقدر قال الامام فخر الدين ويحتمل أن يقال أم خلقوا من غير شيء أي ألم يخلقوا من تراب أو من ماء دليله قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين وعلى هذا فله وجه ظاهر وهو ان الخلق اذا لم يكن من شيء بل يكون ابداعيا يخفي كونه مخلوقا على بعض الاغبياء ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقا ووجد من غير خالق وأما الانسان الذي يكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما لا يتمكن أحد من انكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى أم خلقوا بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها ترابا ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيأ من تلك الاشياء خلقوا منه خلقا فما خلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ولهذا اكثر الله من قوله خلقنا الانسان من نطفة وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شيء أي من غير خالق ففيه ترتيب حسن أيضا وذلك لان نفي الصانع اما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقا فلا يكون ممكنا واما أن يكون ممكنا لكن الممكن لا يكون محتاجا فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال (أم هم الخالقون) لانفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه *وقال تعالى في سورة النجم (وأن الى ربك المنتهي) أي انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالي لا الى غيره استقلالا ولا اشتراكا (وأنه هو أضحك وابكى) أي هو خلق قوتي الضحك والبكاء قال الامام فخر الدين هذه الآية مثبتة لمسائل يتوقف عليها الاسلام من جملتها قدرة الله تعالى فان من الفلاسفة من يعترف بان الله المنتهي وانه واحد لكن يقول هو موجب لا قادر فقال تعالى هو أوجد ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت

والحياة والذكورة والانوثة فى مادة واحدة وان ذلك لايكون الا من قادر
واعترف به كل عاقل واختار وصفي الضحك والبكاء للذكر والانثى لانهما
امران لايعللان فلا يقدر احد من الطبيعيين أن يبدي فى اختصاص الانسان
بالضحك والبكاء وجها وسببا واذا لم يعلل بامر ولابد له من موجد فهو الله
تعالى ويدلك على هذا انهم اذا ذكروا في الضحك امرا له الضحك قالوا قوة
التعجب وهو فى غاية البطلان لان الانسان ربما يبهت عند رؤية الامور
العجيبة ولا يضحك وقيل قوة الفرح وليس كذلك لان الانسان يفرح كثيرا
ولا يضحك والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك وكذلك الامر
في البكاء وان قيل لا كثرهم علما بالامور التى يدعيها الطبيعيون ان خروج
الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا لايقدر على تعليل صحيح وعند
الخواص كالتي فى المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي كما ان عند اوضاع
الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لايفوض امره الى قدرة الله تعالى
وارادته (وأنه هو أمات وأحيي) لايقدر على الاماتة والاحياء غيره فان غاية
مايحصل من فعل القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال وانما يحصل الموت
عنده بفعل الله تعالي على العادة والبحث فيه كما فى الضحك والبكاء غير ان الله
تعالي في الاول بين خاصة النوع الذى هو أخص من الجنس فانه اظهر ثم
عطف عليه ماهو أعم منه وهي الاماتة والاحياء وهما صفتان متضادتان أى
الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم والا
لكان الممتنع ميتا وكيفما كان فالاماتة والاحياء امر وجودى وهما من خواص
الحيوان وقيل الموت عدم الحياة عما من شأنه ان يكون حيا وعلى كل حال
فلا يقدر على الاماتة والاحياء غيره تعالي فهو الذي امات أي خلق الموت
والجمود في العناصر ثم ركبها واحيا اى خلق الحس والحركة فيها وكما حفظها

حية

حية مدة هو قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فاذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثي من نطفة اذا تمني » تدفق فى الرحم أو تخلق أو يقدر منها الولد من مني بمعنى قدر قال الامام فخر الدين الذكورة والانوثة من جملة المتضادات التى تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرا وبعضها أنثى ولا يصل اليه فهم الطبيعي الذى يقول انه من البرودة والرطوبة فى الانثى فرب امرأة أيبس مزاجا من الرجل وكيف واذا نظرت في المميزات بين الصغير والكبير تجدها أمورا عجيبة منها نبات اللحية فانه اذا قيل لهم ما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فانها اذا قطعت لم تنبت اللحية وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل ففى بعضها يبهت وفى بعضها يتكلم بأمور واهية ولو فوضها الي حكمة الحية لكان أولي وقوله تعالى من نطفة تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب ما يكون علي ما بينا * وقال تعالي فى سورة الواقعة (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) خطاب للكفرة بطريق الالزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ما قبلها أى فهلا تصدقون بالخلق فان مالا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبيء عن خلافه ليس من التصديق فى شيء (أفرأيتم ما تمنون) أي تقذفون فى الارحام من النطف (أأنتم تخلقونه) أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون) له من غير دخل شيء فيه قال الامام فخر الدين قوله تعالي أفرأيتم ما تمنون من تقرير قوله تعالي نحن خلقناكم وذلك لانه تعالي لما قال نحن خلقناكم قال الطبيعيون نحن موجودون من نطف الخلق وقبل كل واحد نطفة واحد فقال تعالى رداً عليهم هل رأيتم هذا المنى وانه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد

له من مكون فأنتم خلقتم النطفة أم غيركم خلقها ولا بدمن الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعا للتسلسل الباطل والى ربنا المنتهي ولا يرتاب فيه أحد من أول ما خلق الله النطفة وصورها وأحياها ونورها فلم لا تصدقون أنه واحد أحد صمد قادر * وقال تعالى في سورة التغابن (هو الذى خلقكم) خلقا بديعاً حاويا لجميع مبادي الكمالات العلمية والعملية ومع ذلك (فنكم كافر) أي فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته (ومنكم مؤمن) مختار للايمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعا أن تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والايجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعبا وتفرقتم فرقا قال الزجاج فنكم كافر بأنه تعالى خلقه وهو من أهل الطبائع والدهرية ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الايمان والطاعة واياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان (خلق السموات والارض بالحق) أي بالارادة القديمة على وفق الحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية (وصوركم فأحسن صوركم) حيث برأكم فى أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط به جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته ومن حسن صورة الانسان أن خلقه ممتد القامة منتصب الخلقة غير منكب ومن نظر فى قد الانسان وقامته والنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة ولا يقدح فى حسنه كون بعض الصور قبيحا بالنسبة الي بعض لان الحسن وهو الجمال فى الخلق والخلق على مراتب كما

قالت

قالت الحكماء شيآن لاغاية لهما الجمال والبيان ولو قابلت بين الصور المشوهة وبين صورة الفرس أو غيرها من الحيوانات لرايت صورة البشر المشوهة أحسن ولذا لايتمنى الانسان ان يكون على خلاف ماهو عليه لكون صورته أحسن من سائر الصور وقد خصه الله تعالي بذلك فى هذه النشأة (واليه المصير)فى النشأة الاخرى لاالى غيره استقلالا أو اشترا كا فأحسنوا سرائركم باستعمال القوى والمشاعر فيما خلقن له حتى يجازيكم بالانعام لابالانتقام فكم من صورة حسناء تكون فى العقبي شوهاء بقبح السريرة والسيرة وكم من صورة قبيحة تكون حسناء بحسنهما * وقال تعالي فى سورة الملك (قل هو الذى أنشأ كم) انشاء بديعا (وجعل لكم السمع)لتسمعوا بهاالآيات التنزيلية (والابصار) لتنظروا بها الي الآيات التكوينية الشاهدة بشؤن الله عز وجل (والافئدة) لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا فى معارج الايمان والطاعة(قليلا ماتشكرون) أي شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة قال الامام فخر الدين اعلم انه تعالى أورد البرهان من احوال الناس وهو هذه الآية وذكر من عجائب مافى الانسان حال السمع والبصر والفؤاد تنبيها على دقيقة لطيفة كأنه تعالى قال أعطيتكم هذه الاعطاآت الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ولا تأملتم فى عاقبة ما علمتموه فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب فلهذا قال قليلا ماتشكرون وذلك لان شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة الي وجه رضاه وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا الى طلب مرضاته فأنتم ماشكرتم نعمته ألبتة * وقال تعالى في سورة الانسان (هل أتى) استفهام تقرير وتقريب فان هل بمعنى قد والاصل أهل أتى (على الانسان) قبل زمان قريب

(حين من الدهر) أى طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد (لم يكن شيأ مذ كورا) بل كان شيأ منسياً غير مذ كور بالانسانية أصلا كالعنصر والنطفة وغير ذلك والمراد بالانسان الجنس « وحكي » الماوردي عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحين المذ كور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره فيكون هذا اشارة الي خلق آدم عليه السلام وما بعده بيانا لخلق بنيه واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الانسان محدث ومتي كان كذلك فلا بدله من محدث قادر (انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) أخلاط جمع مشج أو مشيج من مشجت الشيء اذا خلطته وصفت النطفة به لما أن المراد بها مجموع المائين ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ فان ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق يخلق منهما الولد وقيل مفرد كأعشار وأكياش وقيل أمشاج ألوان وأطوارفان النطفة تصير علقة ثم مضغة الى تمام الخلقة (نبتليه) حال من فاعل خلقنا أي مريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتى (فجعلناه سميعاً بصيراً) ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية (انا هديناه السبيل) بانزال الآيات ونصب الدلائل (إما شاكراً وإما كفوراً) حالان من مفعول هدينا أى مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل الي البغية فى حالتيه جميعا واما للتفصيل أو التقسيم أى هديناه الى ما يوصل اليها في حاليه جميعا أو مقسوما بعضهم شاكرا بالاهتداء والاخذ فيه وبعضهم كفور بالاعراض عنه * وقال تعالى فى سورة الانسان أيضاً (نحن خلقناهم) لا غيرنا (وشددنا أسرهم) أي شددنا توصيل أعضائهم بعضها ببعض وأحكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب * وقال تعالى في سورة المرسلات (ألم نخلقكم) أي ألم نقدركم (من ماء مهين) أي من نطفة قذرة حقيرة (فجعلناه فى قرار مكين) هو الرحم (الى قدر

معلوم)

معلوم) الى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة تسعة أشهر أو أقل منها أو اكثر (فقدرنا) أسيء فقدرناه والمراد تقدير خلقه وجوارحه وأعضائه وألوانه ومدة حمله وحياته أو هو من القدرة أي فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا (فنعم القادرون) أى نحن حيث خلقناه فى أحسن الصور والهيآت (ويل يومئذ) أى اذ يكون الفصل بين الخلائق وهو يوم القيامة (للمكذبين) بقدرتنا على ذلك * وقال تعالى فى سورة النبأ (وخلقناكم أزواجا) أصنافا ذكرا وأنثي ليسكن كل من الصنفين الى الآخر وينتظم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنى التناسل وقيل المراد منه كل زوجين ومتقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والاضداد كما قال ومن كل شيء خلقنا زوجين وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتي يصح الابتلاء والامتحان فيتقيد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر ويتعرف حقيقة كل شيء بضده فالانسان انما يعرف قدر الشباب عند الشيب وانما يعرف قدر الأمن عند الخوف فيكون ذلك أبلغ فى تعريف النعم (وجعلنا نومكم سباتا) أى قطعا عن الاحساس والحركة لازاحة القوى الحيوانية وازاحة كلالها وقال ابن الاعرابي فى قوله سباتا أي قطعا ثم عند هذا يحتمل وجوها * الاول أن يكون المعنى وجعلنا نومكم نوما منقطعا لا دائما فان النوم بمقدار الحاجة من أنفع الاشياء أمادوامه فمن أضر الاشياء فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لاجرم ذكره الله تعالى فى معرض الانعام * الثاني ان الانسان اذا تعب ثم نام فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب فسميت تلك الازالة سبتا وقطعاً وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة وجعلنا نومكم سباتا أي راحة * الثالث قال المبرد وجعلنا نومكم سباتا أي جعلناه نوما خفيا يمكنكم دفعه وقطعه تقول العرب رجل مسبوت اذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه كأنه قيل وجعلنا نومكم نوما لطيفا يمكنكم دفعه وما جعلناه

غشيا مستوليا عليكم فان ذلك من الامراض الشديدة وهذه الوجوه كلها صحيحة * وقال تعالى فى سورة عبس (قتل الانسان) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم لان القتل غاية شدائد الدنيا والمراد التنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لاجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات (ما أكفره) تعجب من افراطه في كفران نعمة الله والمراد تنبيه السامع الي ان حالته عجيبة حيث أنعم عليه مولاه بفنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة ثم قابل نعمته بالكفران ونسب جميع ما أنعم به عليه الى الطبائع مع وضوح الدلائل على ان كل شي بخلقه تعالى وصنعه وأقربها ذاته فليحقق النظر (من أى شيء خلقه) شروع فى بيان افراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عليه من فطرته الي منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة مع اخلاله بذلك وهو استفهام والمقصود منه زيادة التقرير في التحقير أى من أى شيء حقير مهين خلقه (من نطفة خلقه) جواب الاستفهام أي من نطفة مذرة خلقه (فقدره) أطوارا الى أن تم خلقه وقال الزجاج المعنى قدره على الاستواء كما قال أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا أى عدل أعضاءك وكملك انسانا ذكرا ويحتمل أن يكون المراد وقدر كل عضو فى الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته وهيأ الانسان لما يصلح له ويليق به من الاعضاء والاشكال (ثم السبيل) أى طريق خروجه من بطن أمه (يسره) أي سهل له أمره فى خروجه بأن فتح له فم الرحم وكان غير مفتوح قبل الولادة وألهمه أن ينتكس فانه كان رأسه فى بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت فاذا جاء وقت الخروج انقلب وخرج برأسه حيا من ذلك المنفذ الضيق وهذا من أعجب العجائب فمن الذى أعطاه ذلك الالهام وحفظ عليه الحياة حتى خرج حيا من ذلك المنفذ الضيق وسهل له الخرواج منه الا الله

ويحتمل

ويحتمل أن يكون المراد من هذه الآية هو المراد من قوله وهديناه النجدين
فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا وبين كل خير وشر يتعلق
بالدين أى جعلناه متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر والتيسير يدخل فيه
الاقدار والتعريف والعقل وبعثة الانبياء وانزال الكتب (ثم أماته فأقبره)
أى جعله ذاقبر يواري فيه تكرمة له ولم يدعه مطروحا على وجه الارض
جرزاً للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت اذا دفنه وأقبره اذا أمر
بدفنه أو مكن منه وذكر الموت لانه من النعم بالنسبة للمؤمن فانه وصلة الي
الحياة الابدية والنعيم ولانه من دلائل القدرة فانه ضد للحياة التى هي من
أعجب العجائب وبضدها تميز الاشياء وأيضاً اذا حضر أحدا الموت واجتمع
الخلق على دفعه عنه أو ارجاع الروح الى عضو من أعضائه فلايمكن ذلك ألبتة
قال تعالي فلولا ان كنتم غير مدينين أى مربوبين ترجعونها ان كنتم صادقين
(ثم اذا شاء أنشره) أى أحياه وبعثه أي اذا شاء انشاره أنشره وفى تعليق
الانشار بمشيئته تعالى ايذان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها (كلاّ) ردع
للانسان عما هو عليه (لما يقض ماأمره) بيان لسبب الردع والمعني أن ذلك
الانسان الكافر لم يقض ما أمر به من التأمل في دلائل الله والتدبر فى عجائب خلقه
وبينات حكمته ٭ وقال تعالي في سوره الانفطار (يا أيها الانسان ماغرك بربك
الكريم) أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه. والتعرض لعنوان كرمه
تعالى للايذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه
الشيطان ويقول له افعل ماشئت فان ربك كريم بل هو مما يوجب المبالغة
فى الاقبال على الايمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان كأنه قيل
ما حملك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية الي خلافه
(الذي خلقك) بعد ان لم تكن (فسوّاك) أي جعل أعضاءك سليمة مسواة

مهيأة لمنافعها (فعدلك) أى عدل بعض أعضائك ببعض بحيث اعتدلت ولم
تتفاوت فهو من التعديل ويحتمل أن يكون من العدول أي صرفها عن خلقة
غير ملائمة لها الى ماشاء من الهيآت والاشكال والاشباه وقرئ فعدلك بالتشديد
أي صيرك معتدلا متناسب الاعضاء من غير تفاوت فيها فلم يجعل احدي
اليدين أو الرجلين أو الاذنين أطول من الاخري ولا احدى العينين أوسع
من الاخرى وهو كقوله بلى قادرين على أن نسوى بنانه وتقريره ماعرف
فى علم التشريح أنه سبحانه ركب جانبي هذه الجثة على التساوي حتى أنه
لاتفاوت بين نصفيه لافي العظام ولافي أشكالها ولافى ثقبها ولا في الاوردة
والشرايين والاعصاب النافذة فيها والخارجة فكل مافي أحد الجانبين مساو
لما فى الجانب الآخر. وقال عطاء عن ابن عباس فى معنى فعدلك جعلك
قائما معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية. وقال أبو على الفارسى عدل
خلقك فأخرجك فى أحسن التقويم وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً
لقبول العقل والقدرة والفكر وصيرك بسبب ذلك مستوليا على جميع الحيوان
والنبات واصلابا لكمال الى مالم يصل اليه شيء من أجسام هذا العالم (فى
أي صورة ماشاء ركبك) أى فى أى صورة ماشاء أن يركبك فيها ركبك
وهذا على أن ماليست مزيدة بل هى في معنى الشرط والجزاء وبناء على هذا
الوجه قال أبو صالح ومقاتل المعنى ان شاء ركبك في غير صورة الانسان من
صورة كلب أو صورة حمار أو خنزير أو قرد. ويصح أن تكون صلة مؤكدة
والمعنى في أى صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فانه
سبحانه يركبك على مثلها وعلى هذا الوجه فالمراد من الصور المختلفة اما
الشبه ببعض الاقارب وخلاف الشبه أو الاختلاف بحسب الطول
والقصر والحسن والقبح والذكورة والانوثة. قال الامام فخر الدين

ودلالة

ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر فى غاية الظهور لان النطفة جسم متشابه الاجزاء وتأثير طبع الابوين فيه على السوية فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لا يفعل الا فعلا واحدا فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار. قال القفال اختلاف الخلق والالوان كاختلاف الاحوال فى الغنى والفقر والصحة والسقم فكما أنا نقطع بانه سبحانه انما ميز البعض عن البعض في الغنى والفقر وطول العمر وقصره بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها الا هو فكذلك نعلم أنه انما جعل البعض مخالفا للبعض فى الخلق والالوان بحكمة بالغة وذلك لان بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الاجنبي * وقال تعالى فى سورة الطارق (فلينظر الانسان) أي نظر تفكر واستدلال مم خلق أي من أي شيء خلق فاصله مما حذفت الالف تخفيفا (خلق من ماء دافق) استئناف وقع جوابا عن استفهام مقدر كانه قيل مم خلق فقيل خلق من ماء ذي دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة (يخرج من بين الصلب والترائب) أي صلب الرجل وترائب المرأة أي عظام صدرها فالمراد بالماء فى قوله من ماء دافق الممتزج من المائين فى الرحم فانه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين انه يخرج من بين هذين خير كثير وأيضا فان الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد فحسن هذا اللفظ هناك أو المراد بالصلب أجزاؤه وكذ الترائب وقال الحسن المنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة قال المتقدمون من الفلاسفة ان المنى انما يتولد من فضلة الهضم الرابع وينفصل عن جميع أجزاء البدن ومعظم أجزئه انما يتربي فى الدماغ والدليل عليه أنه في صورته يشبه الدماغ ولان المكثر من الجماع يظهر الضعف أولا فى عينيه ومستقره هو أوعية المنى وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين قال الامام فخر الدين

لاشك لن أعظم الاعضاء معونة في توليد المنى هو الدماغ وللدماغ خليفة وهي النخاع وهو في الصلب وله شعب كثيرة نازلة الي مقدم البدن وهو التربية فلهذا السبب خص الله تعالي هـذين العضوين بالذكر على أن كلام الفلاسفة فى هذا الباب محض الوهم والظن الضعيف وكلام الله تعالي أولي بالقبول ثم قال قد بينا فى مواضع من هذا الكتاب أن دلالة تولد الانسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من أظهر الدلائل لوجوه * أحدها أن التركيبات العجيبة فى بدن الانسان أكثر فيكون تولده عن المادة البسيطة أدل على القادر المختار * وثانيها أن اطلاع الانسان على أحوال نفسه أكثر من اطلاعه على أحوال غيره فلاجرم كانت هذه الدلالة أتم * وثالثها أن مشاهدة الانسان لهذه الاحوال في أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى * وقال تعالي في سورة الاعلى (سبح اسم ربك الاعلى) أى نزه اسمه عز وجل عن الالحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن اطلاقه علي غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لاعلى وجه الاعظام والاجلال والأعلى اماصفة للرب وهو الاظهر أو للاسم (الذى خلق فسوى) صفة أخري للرب علي الوجه الاول ومنصوب على المدح علي الثاني أي سوى مخلوقه وجعله متناسب الاجزاء غير متفاوت وجعل له مابه يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقد حمله بعضهم على الانسان خاصة وذكر للتسوية وجوها * أحدها أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة على ما قال لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وأثنى علي نفسه بسبب خلقه اياه فقال فتبارك الله أحسن الخالقين * وثانيها أن كل حيوان فانه مستعد لنوع واحد من الاعمال فقط وغير مستعد لسائر الاعمال أما الانسان فانه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية اشارة الى هذا * وثالثها أنه هيأه للتكليف والقيام باداء العبادات

(والذي قدر) أي أوقع تقديره في أجناس الاشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها وغير ذلك من أحوالها فجعل البطش لليد والمشي للرجل والسمع للاذن والبصر للعين ونحو ذلك (فهدي) اي فوجه كل واحد منها الي ما يصدر عنه وينبغي له ويسره لما خلق له بخلق الميول والالهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول * وللمفسرين فيه وجوه قال مقاتل هدي الذكر للانثي كيف يأتيها وقال آخرون هداه للمعيشة ومرعاه * وقال آخرون هدي الانسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة وذلك لانه جعله حساسا دراكا متمكنا من الاقدام على ما يسره والاحجام عما يسوءه كما قال انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفورا وقال ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها. وقال السدي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج من الرحم ومن ذلك هدايات الانسان الي مصالحه من أغذيته وأدويته وأمور دنياه ودينه. قال العلامة أبو السعود وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للانسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لا سيما من حيث الانسانية فمما لا يحيط به فلك العبارة والتحرير. ولا يعلمه الا العليم الخبير. وقال بعضهم المراد أن كل مزاج فانه مستعد لقوّة خاصة وكل قوة فانها لا تصلح الا لفعل معين فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف في الاجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لاجله تستعد لقبول تلك القوي وقوله فهدي عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الاعضاء بحيث تكون كل قوّة مصدراً لفعل معين فخص الفرس بسرعة المشي والابل بقطع المسافات البعيدة مع الصبر على الجوع والعطش وهكذا كل نوع من جنس الحيوان أو النبات أو المعادن بل كل فرد منها فانه مختص بقوة هي مصدر لفعل معين . وقال بعضهم فهدي أى دلهم بأفعاله على توحيده

وجلال كبريائه ونعوت صمديته وفردانيته وذلك لان العاقل يري فى العالم أفعالا محكمة متقنة متسقة منتظمة فهي لا محالة تدل على الصانع القديم * وقال تعالي في سورة البلد (لقد خلقنا الانسان في كبد) يطلق الكبد على الاستواء والاستقامة ولهذا قال ابن عباس فى كبد أي منتصبا معتدل القامة وكل شي من الحيوان يمشي منكبا. وروى عكرمة عنه قال منتصبا فى بطن أمه فهذا امتنان عليه في الخلقة ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها الا منكبة على وجهها الا ابن آدم فانه منتصب انتصابا وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما وقال ابن كيسان منتصبا رأسه في بطن أمه فاذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه الي رجلي أمه وقيل في كبد أى تعب ومشقة فانه يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة فدل هذا على أن له خالقا دبره وقضي عليه بهذه الاحوال ولو كان الامر اليه مااختار هذه الشدائد فليمتثل أمر خالقه فانه هو الذى ينجيه من جميع الاهوال كما قال تعالي قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أى أيحسب أنه ليس له خالق قدر على خلقه وتصويره ويظن أنه لشدته لايقدر عليه أحد وان فسرنا الكبد بالمحنة والبلاء كان المعنى تسهيل ذلك على القلب كأنه يقول وهب أن الانسان كان فى النعمة والقدرة أفيظن أنه فى تلك الحالة لايقدر عليه أحد والمراد لن يقدر على تغيير أحواله ظنا منه انه قوى على الامور لايدافع عن مراده (يقول أهلكت مالا لبدا) أي كثيرا بعضه على بعض من تلبد الشيء اذا اجتمع بعضه فوق بعض يريد كثرة ماأنفقه سمعة ومفاخرة وكان أهل الجاهلية يسمون مثل ذلك مكارم ويدعونه معالي ومفاخر (أيحسب أن لم يره أحد) يعني أيظن أن الله لم يره ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم

أنفقه (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما عالم الملك من الارض الي السماء حتي يشاهد بهما في طرفة عين النجوم العلوية التي بينه وبينها عدة آلاف سنة ويفرق بهما بين ما يضر وينفع وقال بعضهم ألم نجعل له عينين يبصر بهما المرئيات والا لتعطل أكثر ما يريد شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب لا تزيد احداهما على الاخري شيأ وقدرنا البياض والسواد والشهولة والزرقة وغير ذلك على ما ترون وأودعناهما البصر على كيفية تعجز الخلق عن ادراكها (ولسانا) يترجم به عن ضمائره والا لاحتاج الانسان الى الاشارة أو الكتابة فتعسر أمره وبه تدرك الطعوم من الحلو والمر (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما علي النطق والأكل والشرب وغيرهما قال بعضهم أسبل الصانع الحكيم أمام الفم سترا من الشفة ذا طرفين يضمهما ويفتحهما عند الحاجة ويمتص بهما المشروب (وهديناه النجدين) أي بينا له طريقي الخير والشر وأصل النجد المكان المرتفع قال بعضهم لما وضحت الدلالة الدالة علي الخير والشر صارتا كالطريقين المرتفعتين بسبب كونهما واضحين للعقول كوضوح الطريق العالي للابصار أو الثديين لانهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه والله تعالى هدي الطفل الصغير حتي ارتضعهما وعبارة روح البيان .أو طريقي الثديين لانهما طريقان مرتفعان لنزول اللبن سيبان لحياة المولود وتمكين مولود عاجز من رضاع أمه عقيب الولادة قدرة علية ونعمة جلية اه قال القفال والتأويل هو الاول ثم قرر وجه الاستدلال به فقال ان من قدر على أن يخلق من الماء المهين قلبا عقولا ولسانا قؤلا فهو على اهلاك ما خلق قادر وبما يخفيه المخلوق عالم فما العذر فى الذهاب عن هذا مع وضوحه وما الحجة فى الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة فى التعزز على الله وعلى أنصار دينه بالمال وهو المعطي له وهو الممكن من الانتفاع به * وقال تعالي فى سورة الشمس (ونفس وما سوّاها)

أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها قال الامام فخر الدين ان حملنا النفس
على الجسد فتسويتها تعديل أعضائها على مايشهد به علم التشريح وان حملناها
على القوة الناطقة فتسويتها اعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة المخيلة والمذكرة
على ما يشهد به علم النفس (فان قيل) لم نكرت النفس (قلنا) فيه وجهان
أحدهما أن يريد به نفسا خاصة من بين النفوس وهي النفس القدسية
النبوية وذلك لان كل كثرة فلا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس
فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان والحيوان جنس تحته أنواع
ورئيسها الانسان والانسان أنواع وأصناف ورئيسها النبي والانبياء كانوا
كثيرين فلا بد وان يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق فقوله ونفس
اشارة الى تلك النفس التي هي رئيسة لعالم المركبات رئاسة بالذات * الثاني ان
يريد كل نفس ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله
علمت نفس ما أحضرت وذلك لان الحيوان أنواع لايحصى عددها الا الله
على ماقال بعد ذكر بعض الحيوانات ويخلق مالا تعلمون ولكل نوع نفس
مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته والخواص اللازمة لذلك
الفصل فمن الذي يحيط عقله بالقليل من خواص نفس النمل والبعوض فضلا
عن التوغل في بحار أسرار الله * وقال تعالى في سورة التين (لقد خلقنا
الانسان) أي جنس الانسان (في أحسن تقويم) اى كائنا في أحسن مايكون
من التقويم والتعديل صورة ومعنى حيث برأه الله تعالي مستوى القامة متناسب
الاعضاء متصفا بالحياة والعلم والقدرة والارادة والتكلم والسمع والبصر وغير
ذلك من الصفات التي هي انموذجات من الصفات السبحانية وآثار لها * وقال
تعالي في سورة العلق (اقرأ باسم ربك) أي مبتدئا القراءة باسم ربك (الذي
خلق) أى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء ، وانما ذكر عقيب قوله

ربك

ربك قوله الذي خلق لان العبد كأنه يقول ما الدليل على انك ربي فيقول لانك كنت بذاتك وصفاتك معدوما ثم صرت موجودا فلا بد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق وهذا الخلق والايجاد تربية فدل ذلك على انى ربك وأنت مربوبي (خلق الانسان من علق) على الاول تخصيص لخلق الانسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وعلى الثاني افراد للانسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه اذ هو أشرفهم ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الانسان ويقصد بتجريده عن المفعول الابهام ثم التفسير بقوله خلق الانسان من علق تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته وقوله تعالى من علق أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى باظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين . قال العلامة أبو السعود ولما كان خلق الانسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته . وعلمه وحكمته . وصف ذاته تعالى بذلك أولا ليستشهد النبي عليه الصلاة والسلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الأمر فقال تعالى (اقرأ وربك الأكرم) أى افعل ما أمرت به وربك الذي أمرك بالقراءة مبتدئا باسمه هو الأكرم (الذى علم بالقلم) أي علم الانسان الكتابة بالقلم أو المراد بالقلم الكتابة التى تعرف بها الامور الغائبة وجعل القلم كناية فالمعنى علم ماعلم بواسطة الكتابة لاغيره فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونها كما قال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وانما وصف نفسه بأنه خلق الانسان من علق وثانياً بأنه الذى علم بالقلم لان أول أحوال الانسان كونه علقة وهي أخس الاشياء وآخر أمره هو صيرورته عالما بحقائق الاشياء وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب الى أعلى

المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الحسيسة الى هذه الحالة الشريفة ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الانسانية كأنه تعالي يقول الايجاد والاحياء والاقدار والرزق كرم وربوبية أما الاكرم هو الذى أعطاك العلم لان العلم هو النهاية فى الشرف وقوله باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اشارة الي الدلاله العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة وقوله الذي علم بالقلم اشارة الى الاحكام المكتوبة التي لا سبيل الي معرفتها الا بالسمع فالاول كانه اشارة الي معرفة الربوبية والثانى الي النبوة والمراد منه التنبيه على فضيلة الكتابة لما فيها من المنافع المظيمة التي لا يحيط بها الا الله تعالي وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الاولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة الا بالكتابة ولولا هى ما استقامت أمور الدين والدنيا فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك بركوعه تسجد الانام.وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والايام.نظيره قول زكريا اذ نادي ربه نداءً خفياً وأسمع فكذلك القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب.قال اقليدس الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية.وقال بعضهم لو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالي ولطيف تدبيره دليل الا القلم والخط لكفى به فسبحانه من قادر بسواده جعل الدين منورا كما أنه جملك بالسواد مبصرا فالقلم قوام الانسان والانسان قوام العين ولا تقل القلم نائب اللسان فان القلم نائب اللسان واللسان لاينوب عن القلم (علم الانسان مالم يعلم) بدل اشتمال من علم بالقلم أي علمه بالقلم وبدونه من الامور الكلية والجزئية والجلية والخفية مالم يخطر بباله وفى حذف المفعول أولا وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والاشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم مالا تحيط به العقول مالا يخفي

المبحث الثالث في النظر في الحيوان

وفيه مطلبان

المطلب الاول فى كيفية النظر فى الحيوان
وما فى اختلاف أحواله من الآيات
{ الدالة على صانعه بالقدرة }
(والاختيار)

الحيوانات كائنات حية ذات حركة وحس وارادة وادراك مخالف لادراك الانسان بالكيفية أو الكمية فهو أحط من ادراك الانسان بكثير فبينها وبينه كما بين الارض والسماء أما اجناسها فلا يشوبها حصر ولا يلحقها استقصاء وكل يوم يكتشف المكتشفون على أجناس كثيره منها ومن آياته تعالي انقسامها الى ما يطير والي ما يمشى وانقسام ما يمشى الى ما يمشى على رجلين والى ما يمشي علي أربع والي ما يمشى على أكثر من ذلك حتى يبلغ عدد الشرات كالحشرة المسماة أم أربع وأربعين أو المائة كما يشاهد في بعض الحشرات ومنهم مايمشى على بطنه بواسطة الفلوس التي عليها ويتسلق الاشجار والجدران وذلك كالحية ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع وانقسامها الي أجناس وأنواع وأصناف متفاوتة أشد التفاوت في صفاتها فمنها مابلغ غاية عظيمة فى الكبر كالفيل الذى علو الكبير منه اثنتا عشرة قدما ومنه الصغير جدا ومن الحيوان مايعيش عمرا طويلا وما يعيش عمرا قصيرا وقد تخالف فى مدد أعماره تخالفا غريبا واختص كل منه بمدة لا يصل العقل الي علة ثبوتها له فترى الحيوانات الجماء تعمر أكثر من القرناء والجريئة أكثر

من الجبانة والبرية أكثر من الهوائية لكن الرخمة والنسر والببغاء والغراب تعيش قدر ما يعيش الانسان والضفادع البرية والمائية أطول حياة من سائر الحيوانات التى تمد لها في الحجم وهكذا لكل حيوان من كبير وصغير عمر يخصه ولم يتوقف طول أعمارها وقصرها على المسكن والمعيشة أو كبر الجسم أو صغره ولا على غير ذلك فاذن لا بد لها من مخصص خصص كلا منها بعمره الذى جعله له وهو الخالق الذى أبرزها من العدم وخصصها من القدم يفعل ما يشاء ويحكم مايريد ومن الحيوان ما يعيش فى الهواء وما يعيش فى الماء وما يعيش على سطح الغبراء وما يعيش فى اثنين من ذلك ومنه ما يمشى على قدميه ويداه آلتان لاعماله وتناوله غذاءه أوهما جناحان يركب بهما متن الهواء ومنه ما يمشي على قدميه ويديه ومنهم ما يتناول غذاءه بفمه وما يتناوله بمنقاره وما يتناوله بانفه كالفيل ومنه ما يتناوله بلسانه كالحرباء التى تمد لسانها الطويل المبتل بمادة لزجة تخطف به الذباب وأمثاله من الهواء ومنه ما تنقف بيوضه فى داخل جسده عن جنينه ويتم خلقه فيه ثم يلده كاكثر الحيوانات اللبونية ومنه ما تخرج بيوضه منه ثم يتخلق جنينه فيها مهيأ له داخلها جميع ما يلزم له من الغذاء وذلك كالطير وبعض الحيات والجرذون ومنه ما لا يتم تلقيح بيوضه بمني ذكره الا اذا وصل المني اليها داخله محفوظاً من الهواء وان لحقه الهواء فسد ومنه ما يلقي ذكره منيه على بيوضه بعد ان تلقيها أنثاه خارج جسدها وذلك كبعض الاسماك فلا يفسد منيه بالهواء ولا بالماء ومنه ما لا تلد اناثه ما لم تتزاوج هى والذكور ومنه ما تلد اناثه بدون مزاوجة الذكور وذلك كنوع من الحشرات تلد اناثه بدون مزاوجة الذكور وتكون أولادها اناثا فقط وهذه تلد اناثا أخرى وهلم جرا الي أن تلد اناثا وذكوراً ومنه ما يرضع أولاده بما يمده الخالق من الحليب فى ثدييه أو أثديته التى تكون على عدد

أولاده غالباً ومنه ما يزق أولاده زقا كالحمام ومنه ما يسعى بأولاده ويدلهم على أقواتهم كالدجاج ومنه ما يشترك في تربيتهم الذكر والانثى منه وذلك عند ما تكون أولاده غير قادرة على السعي فى أول ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والانسان لان انفراد الواحد بالتربية مع سعيه لرزقه أيضا يكلفه فوق طاقته ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ما تكون أولاده قادرة على السعي مع أمها كالدجاج والحجل ومنه ما يترك أولاده غير قادرة على السعي كالغراب يحكي أن ولده كما يخرج من قشر البيضة يخرج من غير ريش فيكون كأنه قطعة لحم أحمر والغراب يفر منه ولا يقوم بتربيته ثم ان البعوض يجتمع عليه لانه يشبه قطعة لحم ميت فاذا وصلت البعوض اليه التقم تلك البعوض واغتذي بها ولا يزال على هذه الحال الي أن يقوي وينبت ريشه ويخفى لحمه تحت ريشه فعند ذلك تعود أمه اليه ومن الحشرات ما تبيض بيضها فى محل تبحث عنه بالدقة والاعتناء العظيمين فتضعه بجانب أزرار الاشجار أو أثمارها الجنية لكى عند ظهور صغارها تجد ما يقيم أود حياتها حتى تترعرع وتموفاتها لو ألقتها علي قارعة الطريق بلا اعتناء لقيت الحشرات ومن الغريب أنها تضع ذلك البيض بطريقة لا يتساقط عليه المطر لئلا يتلفه فلما تم الحشرة هذه العملية تتولي الشمس أمره فتبعث له أشعتها وتكفى الحشرة مؤونة الاعتناء به الى أن يخرج من ظلمات سجنه ومن الحيوان ما يبني الاعشاش لاولاده بكيفيات غريبة اما نقرا فى الاشجار واما عمارة بالطين واما غير ذلك ومنه ما يحملهم على ظهره كالحيوان الآكل النمل في أميركا أو يحملهم فى جراب عند بطنه يخرجهم وقت حاجة السعي على القوت ويدخلهم فيه عند المنام وهو حيوان فى أوستراليا ومنه ذو المخرج الواحد تشترك فيه فضلاته وبيوضه ومنه ماليس كذلك ومنه ما سفاده فى وقت معين لا يعدوه ومنه ما سفاده لا يعين فى

وقت ومنه ما يعلو أنثاه عند السفاد ومنه ما يدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحاككها حتى تلقي بيوضها وهو يلقي منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الاسماك ومنه ما بيوضه تحاكي بنقوشها ألوانه كالحجل وبعض الدجاج الهندي المسمى بين الناس بدجاج فرعون فان بيوضه مخططة بألوان تحاكي ريشه ومنه ما بيوضه بيضاء أو بلون آخر غير مشوب بغيره لا يحاكي ريشه في شيء ثم ان بيوضه مختلفة الاشكال والهيآت والمقادير فمنها الكروي والمستطيل والكبير والصغير وغير ذلك ومنه ما يلد الواحد ومنه ما يلد الكثير حتى يبلغ عدداً عظيما ومنه ما يكسى جسده بالريش الذي يحفظه من الحرّ والقرّ ويناسبه في طيرانه بتكوينه المحكم فانظر الى ريش الجناحين للطائر حيث لابد من امتدادة مقدارا معينا لكل طائر وقد جعلت أوائله الثخينة مفرغة لتخف عليه في الطيران ولكن مع تفرغها قد جعلت مادتها صلبة لدنة تحمل القواعل ولا تنقصف بسهولة وجعلت أواخر هذا الريش مملوءة بمادة لبية خفيفة لايثقل حملها ذلك تدبير عجيب تجزم عند مشاهدته العقول بحكمة صانعه سبحانه ومع ذلك فقد أعطى الطيران غير ذي الريش وهو حيوان مكسو بالوبر ويطير بجناحين مكوّنين من جلد رقيق ويخالف بقية الطيور أيضا بأنه ذو فم باسنان وأكف صغيرة نابتة على جناحيه وذلك هو الخفاش الذى له خواص الحيوانات اللبونية فيشابهها في هيكله ومنيه وتوالده وارضاعه ويخالفها بأنه يطير في الهواء كسائر الطيور فسبحان من لا يحكم عليه في مصنوعاته ناموس ولم تقتصر قدرته على طريقة واحدة من طرف العمل فيلزمها ولا يتجاوزها الي غيرها بل يفعل ما يشاء وينوع مخلوقاته على ما يريد ومنه ماهو مكسو بالصوف أو بالشعر أو بالوبر أو بالعظم كالسلحفاة أو بالقشور الغضروفية ومنه ماليس عليه الا الجلد والبشرة ومن عجيب لطفه تعالى وتدبيره

أن الحيوانات التي توجد فى البلاد الباردة تكون مغطاة بصوف يسمح لها بامكان المعيشة في تلك المناطق المنخفضة الحرارة هذا ان كانت من الحيوانات ذوات الاصواف وان كانت غير ذلك فيكون لها وقايات مختلفة تقيها نيران البرودة حتي اننا نعرض حيواناتنا التي فى بلادنا المعتدلة الي الهلاك العاجل ان نقلناها الي تلك البلاد لعدم استمداد أجسامها لتحمل ذلك المناخ وبعضها من الحيوانات الدنيئة يظل طول الشتاء متحصنا تحت الارض بعضها في حالة خدر أى نوم عميق وبعضها تكون قد استعدت على غنائم تطارد عنها كتائب الجوع ثم في اختلاف هيآته وأشكاله ما يدهش العقول فنه الطويل والمستدير ونصف الكرة ومنه طويل اليدين قصير الرجلين كالزرافة ومنه بالعكس كالارنب ومنه قصير العنق ومنه طويله حتي ان بعضه يلف عنقه كما يطوق الحبل وذلك كطائرا كبر من العصفور يوجد فى بلاد الشام ومنه ذو العينين ومنه ذو العيون كبعض العناكب ومنه ذو الذنب ومنه ذو الالية ومنه مستطيل الاذنين ومنه مستديرهما ومنه ذو الحافر وذو الظلف وذو الخف وذو القدم وذو البراثن ومنه ذو الكرش لخزن كمية من الطعام النباتى الذى يحتاج الي كمية كثيرة منه لكفاية الغذاء وذلك فى اكلة النبات ومنه ماليس له الا المعدة لان غذاءه الحيواني يكفى منه لتغذيته كمية قليلة ومنه ذو الاسنان الصالحة لتمزيق اللحم الذي يكون غذاءه ومنه ذو الاسنان التى تصلح لقضم النبات الذى هو غذاؤه وان فى تكوين الاسنان لاسيما فى الانسان وترتيب وضعها لعبرة لاولي الابصار فقد وضعت القواطع منها في مقدم الفم محدودة صالحة لقطع مايحتاج لقطعه ويكتنفها الانياب مرأسة تصلح للكسر والتفتيت بحسب شكلها الذى يحكى شكل المعاول وقد اكتنفها الاضراس مستورة عن النظر مكونه علي شكل تصلح به للسحق والطحن وانظر لو خولف هذا الترتيب فوضعت الاضراس فى مقدم الفم واخرت

القواطع ماذا كان ينشأ من عسر تناول الغذاء وماذا كان فى منظر الفم من البشاعة فسبحان الحكيم الخبير. ثم فى اختلاف سلاح الحيوان مايبهر الالباب فمنه المخالب والانياب والقرون والخرطوم والذبان والسم الناقع والفساء الكريه كما في الظربان وفي اختلاف تحصيل رزقه واحتياله عليه لاسيما الحيوان الاعجم عبر لمن يعتبر فمنه مايخطف الحيوانات الصغيرة الطائرة في الهواء مثل الذباب وذلك كالخطاف ومنه ما يحفر الارض للوصول الى رزقه ومنه مايتسلق الاشجار ومنه ما يغوص في البحار ومنه مايطوف فى القفار ومنه مايقف في باب وكر صيده ويفسو فساء كريها حتى يميته بذلك ثم يأكله وذلك كالظربان مع الضب واختلاف أقواته وكيفيه تناوله لها وادخاره اياها أمر فى الغرابة عريق فمنه مايقتات بالحبوب ومنه بالاوراق ومنه بالاثمار ومنه باللحوم ومنه بالحشرات ومنه بانفس القوت ومنه باخبثه واقذره وانجسه وذلك كالخنزير الاهلى ومنه ما يبلع قوته بلعا ومنه مايمضغه مضغا ومنه مالا يدخر قوته ومنه مايدخر قوته فى الصيف لاوقات الشتاء وذلك كالنحل والنمل ثم فى اختلاف ألوانه ما يبهج النظر ويحير الفكر فمنه الابيض والأحمر والاصفر والازرق والاسود والمنقش بالالوان المختلفة ثم ترى النوع الواحد منه متساوي الافراد فى لون واحد أو متساويها في نقش واحد وذلك كالغراب والحجل وأنواع من العصافير وترى نوعا آخر مختلف الأفراد في الألوان كالخيل أو فى النقوش كالدجاج ومنه مانقوشه منتظمة بكيفية واحدة كالنمر والطاووس ومنه ماليس كذلك كالدجاج والحمام والقطط وذكر صاحب الرسالة الحميدية أن بعض الماديين يعلل انتقاش جلد النمر بأنه فى القرون الغابرة كان يجلس تحت الاشجار المظلة قليلا فتصل اليه أشعة الشمس من بين خلال أغصانها فانتقش جلده بذلك النقش قال فليعلل لنا عن انتقاش ريش الطاووس بالون الذهبي والاخضر والازرق والعسلى والاسود

والكحلى وغير ذلك باشكال منتظمة وتخاطيط محكمة وعن انتقاش ريش الديكة التي لايري واحد منها الا بانتقاش غريب عن كثير من أفراد نوعه وعن انتقاش ريش الورور والحسون وأمثال ذلك كثير ومما يقضي منه بالعجب في الحيوان أصواته ومناظره فمنه المطرب الذي يهيج بصوته القلوب ومنه ذوالصوت المنكر الذي يصم الاذان ومنه الجميل الذى يستوقف الطرف كالطاووس والزرافة وبعض الديكة وابدع الجميع جمالا.وأظرفها مثالا.الحسان من نوع الانسان فهناك دهشة النظر وحيرة الفكر والاخذ بمجامع القلوب والسطوة على الالباب والسلطة على أبهة الجبابرة والحكام ومنه ماتقشعر منه الجلود وترجف القلوب كالرتيلاء والثعبان والخنزير والسعدان ثم منه مايختص بأتي ومنه ما ليس كذلك ومنه الذي يسعي لرزقه منفردا ومنه مايسعى اليه مجتمعا أسرابا وهذا منه مايكون اجتماعه على نظام الجمهورية ومنه مايكون على نظام الملكية ويقيم الحرس ويقدم الدليل والرائد للماء والكلأ واختلاف أخلاقه أمر عجيب قد الفت فيه الكتب فمنه الجرىء والجبان. وقريب الالفة للانسان .وبعيدها وغير ذلك وكذلك اختلافه في القوة والضعف والصبر على عدم القوت وضد ذلك ومقاومة الفواعل الخارجية وعدم مقاومتها فمنه مالونخس بابرة فى نخاعه الشوكى لمات فى الحال وبطلت حياته كما قيل فى الانسان ومنه مالوقطعته ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وتركته بعض أيام لرايت الرأس قد نبت له بدن وذنب والوسط قد نبت له رأس وذنب والذنب قد نبت له رأس ووسط وكل منها قدرجع حيوانا والرأس يصير كذلك قبل سواه وذلك كحيوان يسمى الهيدرا من الحيوانات الصغيرة فكل هاتيك الاختلافات دلائل شاهدة بان صانع هذا العالم الحيواني لايحكم عليه في صنعه ناموس ولا تلجئه ضرورة الى التزام طريقة واحدة في ابداعه بل هو واسع القدرة والعلم والتدبير ينشيء نوعا على كيفية

تكون كافية له فى معاشه وقيام نظام حياته كاملة فى زينة مرآه وينشيء نوعا آخر منه بكيفية هي بالضد من الكيفية الاولى وتكون كافية تلك الكفاية وكاملة ذلك الكمال تنبيها للعقول وايقاظا للافهام أنه فاعل مختار لايعجزه شيء ولايعزب عن علمه غيب سبحانه وتعالي عما يقول الجاهلون. قال صاحب الفلسفة الحقة الحيوانات على وجه العموم تختلف في طبائعها وأطوارها وأجناسها وهي تختلف أيضا في مآكلها فبعضها التي تسمي بالحيوانات الكاسرة تأكل لحوم غيرها من الحيوانات الادني منها فتتسلق وراءها شوامخ الجبال وتنزل خلفها الى الوديان حتى تتركها فتستعين حينئذ على تمزيقها بما لها من المخالب المناسبة تمام التناسب لهذه الغاية ومالها من الانياب الحادة وبعد ذلك تبتديء فى انهاشها بما لها من الاضراس الموضوعة باوضاع محكمة جداً لتكسير عظامها وطحن لحومها بدون مكابدة أى صعوبة ولا كبير اجهاد ومنها ما يسمي بالقراضة كالفار مثلا وأسنانها موضوعة على حسب مأكلها فلا أنياب لها لعدم احتياجها اليها ومنها ما تسمى بالمجترة ولها ستة أضراس ولفكيها حركات من الجانبين ولها أربعة معدات لانها اكالة للنباتات ولايخفى أنها صعبة الانهضام * أولها ممدة لتخزين الحشائش الى تأكلها بعد أن تمضغها مضغا غير تام وبعد قليل يحصل فى هذه المعدة مجهودية تطرد هذه الحشائش الى الفم فيطحنها الحيوان ثم يزدردها فتنزل الي المعدة الثالثة ثم الرابعة أما امعاؤها فيبلغ قدر طولها خمسة وعشرين مرة . فانظر هديت الي الاعتناء بأمر هذه الحيوانات التي جعل لها أربع معدات يمر اليها الاكل تباعا ليتم انصلاحه . أليس من مزيد العناية ومدهش الصناعة ان توضع هذه بطريقة بها بعد ان ينزل الغذاء الي المعدة ينطرد الي المعدة الثانية ومنها الي الفم ثم منه الي المعدة الثالثة ولا ينزل الي الاولى كما حصل أول مرة أما الحيوانات التى تطير في الهواء فهي لا تكاد

تحصر لكثرتها منها الكبير جداً ومنها المتناهي في الصغر ومنها الجوارح أي سباع الطيور وهي تأكل اللحوم كالسباع وهي ذات أعضاء مجعولة لهذه الغاية حيث ان لها مناقير قوية وأظافير حادة متينة كالعقاب والنسر ومن هذه الطيور ليلية وهذا الصنف يكون له عينان كبيرتان موجودتان أمام الرأس وبعضها يتغذى بالحشرات ويكون منقارها مناسباً لذلك أي طويلا وبعضها قاعدة غذائها الحبوب ويكون منقارها قصيراً مخروطي الشكل . هذا التناسب الجسماني موجود فيها عدا عن رقة ريشها. ودقة نقشها . مما يستلفت الناظر ويسر الخاطر. ومن بعض أنواعها ما هو ضروري الوجود لحفظ حياة بني الانسان بحيث انها لو فقدت لم يمكنه الحياة بدونها واليك ما قال في شأنها المسيو أوجين سيرفين وهو أحد علماء الزراعة فى فرنسا قال العصافير هي التي تحفظ لنا ثروتنا وتحمي لنا محصولاتنا وتساعدنا فى زراعاتنا ويمكن أن يقال معززاً بالبرهان ان العصفور يمكنه أن يعيش بدون الانسان بخلاف هذا الاخير فانه لا يستطيع أن يعيش بدون العصفور (تأمل) فبدونه كانت الحشرات تأكل كل شيء فهو ان لم يكن موجوداً يكون القمح والاعشاب الخضراء والمراعي النضراء والفواكه اليانعة غنيمة باردة لعشرات الالوف من أنواع الحشرات التي لا يمكننا ان ندفعها عن أنفسنا فاذا كان لكل نبات حشرة فكذلك لكل نبات عصفور يدافع عنه ويجعل من تلك الحشرة غذاءه . هذه العصافير ترفع قشور الاشجار لاجل ان تكتشف على الحشرة المضرة التي تبيض هناك والتي تنخر صغارها أخشاب تلك الاشجار . والعصافير المسماة بكفان تبحث فى داخل أزهار مزروعاتنا على بيض أو صغار الحشرات فتنقبها وبذلك تنجي النباتات من الخطر الذي يلقحنا من تلك الحيوانات وبالجملة فهؤلاء العصافير هم صيادون لا يعتريهم تعب ولا نصب فى صيد الحشرات

فلا يزال يرمي نفسه عليها الى ان ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبداً فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقي فى النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول اني ممسك بحجزكم من النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش * قال صاحب الرسالة الحميدية ولعلك تظن ان البعوض أصغر الحيوانات لانك لم تسمع بالحيوانات التي لا ترى الا بالمكرسكوب الذي أظهر عوالمها المتوغلة في الصغر فتلك المخلوقات الخفية تسمي النقاعيات لانها اكتشفت أولا فى نقاعة الاعشاب ومع ان الوفا وربوات منها تسبح فى قطرة من الماء دون أن تزدحم أو تتصادم فلها الحياة وكل آلاتها وهي أجناس وأنواع وصنوف وصور مختلفة فمنها النقاعيات القصفورية التى يجتمع منها خلق كثير لا يحصى على وجه البحر فتلمع وتتوقد كسيل من نار وكلها لا تنام ليلا ولا نهاراً ولم ترقط فى حال السكون الا قبل خروجها من جراثيمها وقد تبين من بحث علماء الحيوان أن مائة وستين مليونا من صغارها لم تبلغ ثقل قمحة واحدة وأن فى قطرة واحدة من الماء ما يزيد عن كل أهل الارض من البشر وراقبوا بعضها فرأوا الواحدة منها قد تلد ألوف الالوف فى زمن قصير ثم ان لتلك النقاعيات أعضاء كثيرة مختلفة ولها سعي فى طلب معاشها وميل الي ما يلائم ونفور عما يضر ونباهه تتقي بها الاخطار ولا يصدم واحد منها صاحبها أو يزاحمه مع أن ألوفا وملايين وربوات تسبح فى قطرة واحدة من الماء كما قدمنا وهي سريعة الحركة جدا والغاية فى صغرها ما ذكره بعضهم أن نوعا منها لا يزيد الواحدة منه على جزء من ألفي جزء من الشعرة ولكل منها أعضاء خادمة لحياتها فتبارك الخلاق القدير اه فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالي فى أصغر

الحيوانات

الحيوانات وفيها من العجائب مالو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة
بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليـة من ظاهر صورته فأما
خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها الا الله تعالى وكيف يمكن أن يستقصى ذلك
بل لو أردنا أن نذكر عجائب النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار
الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى الفها لزوجها وفي ادخارها
لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجاتها لم نقدر على ذلك
فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين
بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتي يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم
يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو الى الجانب
الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد
ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط
كالسدي اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه الي بعض
ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدي ويراعي فى جميع ذلك تناسب
الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البعوض والذباب ويقعد فى زاوية مترصدا
لوقوع الصيد في الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى أخـذه واكله فان عجز عن
الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط
ثم علق نفســه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا
طارت رمي بنفسه اليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما
من حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب مالا يحصي أفترى أنه تعلم هذه
الصنعة من نفســه أو تـكون بنفسه أو كونه آدمي أو علمه أولا هادى له ولا
معلم أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه
الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فـكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد

هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم وللنمل تدبير عجيب في ادخار قوته فانه يتخذ القرية تحت الارض وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقة يملؤها حبوبا وذخائر للشتاء ثم اذا لحق ذخيرته رطوبة الارض وخاف العفن على الحب أخرجه الى ظاهر الارض ونشره وأكثر ما تفعل ذلك ليلا فى ضوء القمر واذا احتكر ما يخاف انباته قسمه نصفين ماخلا الكسفرة فانه يقسمها ارباعا لما ألهم من أن كل نصف منها ينبت فسبحان الهادي المبين ومنه نوع يوجد في الرمال يسمى نمل الاسد ويسميه البعض بأسد النمل لان مقدمه يشبه وجه الاسد ومؤخره يشبه النمل وهذا يحفر قليبا في الرمل ويستتر في أسفله فاذا وقع فيه حيوان من نوع صيده افترسه واذا وقع فيه مالا يصلح لغذائه دفعه بحركة عجيبة تخرجه الي خارج القليب ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لايشاركه فيها غيره فانظر الى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى اليها حتي اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الازهار والانوار. واحترازها عن النجاسات والاقذار. وطاعتها لواحد من جملتها هو اكبرها شخصا وهو أميرها ثم ماسخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ماوقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب ان كنت بصيراً فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك. وموالاة اخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الي بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبني بيتا مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو

ان

أن أوسع الاشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتي لا تضيع الزوايا فتبقي فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقي بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالي النحل على صغر جرمه لطفا به وعناية لوجوده وما هو محتاج اليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شانه.وأوسع لطفه وامتنانه.فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لاحصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة نم اذا رأي حيوانا غريبا ولو دودا تجدد عجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الي الانعام التي ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الي منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكنانا لهم في ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق علي خلقه أياها فسبحان من الامور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل

مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيدة فما للخلق الا الاذعان لقهره والاعتراف بربوبيته. والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته. فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثني على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته. فنسأل الله أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

﴿المطلب الثانى فى كيفية التفكر فى الحيوان على﴾ (مقتضى ما تدل عليه الآيات القرآنية)

قال تعالي في سورة النحـل (والأنعام خلقها) الانعام عبارة عن الازواج الثمانية وهي الضأن والمعز والابل والبقر قال صاحب الكشاف وأكثر مايقع هذا اللفظ على الابل واعلم أن أشرف الاجسام بعد الافلاك والكواكب هو الانسان ثم ان أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلي بعد الانسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة وهى الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب ثم هذه الحيوانات قسمان منها ماينتفع الانسان بها ومنها مالا يكون كذلك والقسم الاول أشرف من الثانى لانه لما كان الانسان أشرف الحيوانات وجب فى كل حيوان يكون انتفاع الانسان به أكمل وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره ثم نقول والحيوان الذي ينتفع الانسان به اما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الاكل واللبس اولا يكون كذلك وانما ينتفع به فى أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها والقسم الاول أشرف من الثاني وهذا القسم هو الانعام فلهذا السبب بدأ الله بذكره فى هذه الآية فقال والانعام خلقها (لكم فيها دفء) لما ذكر انه خلق الانعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية فالمنفعة الاولي قوله لكم فيها دفء والدفء ما يستدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من صوف الغنم

أو وبر الابل أو شعر المعز قال الاصمعي ويكون الدفء السخونه (ومنافع) هي نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر تعالي بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان النسل والدر قد ينتفع به في الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل (ومنها تأكلون) يعني من لحومها وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو الاصل الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فيشبه غير المعتاد وكالجارى مجري التفكه أو للايذان بأن غالب أطعمتكم منها لانكم تحرثون بالبقر الحب والثمار التي تأكلونها وأيضاً تكتسبون باكراء الابل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها ولما ذكر تعالي المنافع الضرورية الحاصلة من الانعام بدأ بذكر المنافع الحاصلة من الانعام التي هي ليست بضروبة فقال (ولكم فيها جمال) أى زينة في أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها قال أهل اللغة هذه الاراحة أكثر ما تكون أيام الربيع اذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما يكون النعم فى ذلك الوقت واعلم ان وجه التجمل بها فى ذينك الوقتين أن الراعى اذا راوحها بالعشى وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الاراحة والتسريح الافنية والاكناف بها وتجاوب ثغاؤها ورغاؤها وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها وأما عند كونها في المراعي فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها في الحظائر لا يراها راء ولا ينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب

الانس والبهجة اذ فيها حضور بعدغيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم (الى بلد) غير بلد كم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) واصلين اليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الابل (الا بشق الانفس) أى الا بكلفة ومشقة والشق أيضا نصف الشيء والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها ويرجع عند التحقيق الي المشقة ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الي الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد في الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ خاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المنقلبين فيها للتجارة وغيرها في أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فوجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الاوقات (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل) عطف على الانعام أى خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها فى الحمل أيضا مما لا ريب في تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل وهو خلق دون الاول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أي وتتزينوا بها زينة (ويخلق مالا تعلمون) أي يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم لكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه وتركيبه من الاشياء العجيبة الغريبة مما لم تكن تعلمه العرب من المركبات البخارية والكهربائية فانها معدة للزينة والركوب كما أن

الخيل ونحوهافى زمان العرب كانت هى المعدة للزينة والركوب وهذا لا ينافي أن الآية شاملة لكل مالا نعلمه من الحيوانات وغيرها ولذلك قال الامام فخر الدين اعلم أنه تعالي لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التى ينتفع الانسان بها انتفاعا ضروريا وثانياً أحوال الحيوانات لتي ينتفع الانسان بها انتفاعا غير ضروي بقي القسم الثالث من الحيوانات وهى الاشياء التى لا ينتفع الانسان بها فى الغالب فذكرها على سبيل الاجمال فقال ويخلق ما لا تعلمون وذلك لان أنواعها واصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال * وقال تعالى فى سورة النحل أيضاً (وان لكم في الانعام لعبرة) اعتبارا ودلالة يعبر بها من الجهل الى العلم اذا تفكرتم فيها عرفتم بها كمال قدرتنا أي عبرة عظيمة وأي عبرة تحار في دركها العقول. وتهيم فى فهمها ألباب الفحول. (نسقيكم) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مما فى بطونه) أي فى بطون الانعام والتذكير لمراعاة جانب اللفظ لان لفظ الانعام لفظ مفرد وضع لافادة جمع كالرهط والقوم فيصح أن يكون ضميره ضمير الواحد وهو التذكير بحسب اللفظ وان يكون ضميره ضمير الجمع والتأنيث بحسب المعنى فلذا قال فى سورة المؤمنون نسقيكم مما في بطونها (من بين فرث) وهو فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى في المعي (ودم لبنا خالصا) أى صافياً عن شائبة ما فى الدم والفرث من الاوصاف (سائغا للشاربين) سهل المرور في حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن قط قال الامام فخر الدين ان الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الي معدته ان كان انسانا والي كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول

فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الي الامعاء ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وذلك هو الهضم الثاني ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية أما الصفراء فتذهب الى المرارة والسوداء الى الطحال والماء الي الكلية ومنها الي المثانة وأما ذلك الدم فانه يدخل فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهنالك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم فى تلك العروق الي الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله تعالي الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض من صورة الدم الى صورة اللبن اذا عرفت هذا فنقول. المراد من الآية هو ان اللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث وهي الاشياء المأكولة الحاصلة في الكرش وهذا اللبن متولد من الاجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولاً ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانياً فصفاه الله تعالي عن تلك الاجزاء الكثيفة الغليظة وخلق فيها الصفات التى باعتبارها صارت لبنا موافقا لبدن الطفل واعلم ان حدوث اللبن فى الثدي واتصافه بتلك الصفات مشتمل على حكم عجيبة واسرار بديعة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم وبيانه من وجوه * الاول انه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب الي أن يكمل انهضامه فى المعدة وينجذب ما صفا منه الي الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التى لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ واذا حصلت الحاجة الي خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح

فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى بحسب الحاجة وتقدير المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم * الثانى انه تعالي أودع فى الكبد خاصية جذب الاجزاء اللطيفة الحاصلة فى ذلك المأكول أو المشروب ولا تجذب الاجزاء الكثيفة وخلق في الامعاء خاصية جذب تلك الاجزاء الكثيفة التي هي الثفل ولا تجذب الاجزاء اللطيفة ألبتة ولو كان الامر بالعكس لاختلت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب * الثالث انه تعالى أودع فى الكبد خاصية الهضم والطبخ حتى أن تلك الاجزاء اللطيفة تنطبخ فى الكبد وتنقلب دما ثم انه تعالي اودع فى المرارة خاصية جذب الصفراء وفى الطحال خاصية جذب السوداء وفى الكلية خاصية جذب زيادة المائية حتى يبقى الدم الصافى الموافق لتغذية البدن وتخصيص كل واحد من هذه الاعضاء بخاصية من تلك الخواص لايمكن الا بتقدير الحكيم العليم * الرابع أن فى الوقت الذي يكون الجنين في رحم الام ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتي يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الي جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا الي الرحم ولا الي الثدي بل ينصب علي مجموع بدن المتغذي فانصباب ذلك الدم فى كل وقت الي عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لايتأتى الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم * الخامس أن عند تولد اللبن فى الضرع احدث تعالى في حلمة الثدى ثقوبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا فحينئذ لايخرج منها الا ما كان في غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقوب

الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حامة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة فكل ما كان لطيفاً خرج وكل ما كان كثيفاً احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصاً موافقاً لبدن الصبي سائغاً للشاربين * السادس أنه تعالي ألهم ذلك الصبي الي المص فان الام كلما ألقمت حلمة الثدى فى فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي * السابع أنا بينا انه تعالي انما خلق اللبن من فضلة الدم وانما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالي خلق الدم من لطيف تلك الاجزاء ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ثم ان اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة فما فيه من الدهن يكون حارا رطباً وما فيه من المائية يكون باردا رطبا وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا وهذه الطبائع ماكانت حاصلة فى ذلك العشب الذى تناولته الشاة فظهر بهذا أن هذه الاجسام لاتزال تنقلب من صفة الي صفة ومن حالة الي حالة مع انه لايناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا وعند ذلك يظهر أن هذه الاحوال انما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر احوال هذا العالم على وفق مصالح العباد فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الأعلى والاسفل بكمال قدرته.ونهاية حكمته ورحمته . له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم قال تعالي (وأوحي ربك الى النحل) أي ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لايعلمه الا العليم الخبير (أن اتخذي) أى بان اتخذي علي أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما في الايحاء من معنى القول (من الجبال بيوتا) أى أوكارا تأوين اليها وانما سمي ماتبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبيها له ببيت الانسان (ومن الشجر ومما يعرشون) أي

يعرشه

يعرشه أي يرفعه الناس ويبنونه للنحل وذلك أن النحل منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر ولا يتعهدها أحد من الناس ومنه اهلي وهو الذي يأوي الى البيوت وتربيه الناس عندهم فالاول هو المراد بقوله ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر والثانى هو المراد بقوله ومما يعرشون وهو خلايا النحل وايراد من التبعيضية لما أنها لاتبنى في كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان بل فى مساكن توافق مصالحها وتليق بها قال الامام فخر الدين قوله وأوحى ربك الى النحل يقال وحى وأوحى وهو الالهام والمراد من الالهام انه تعالي قرر في أنفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه * الاول انها تبني البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت الا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار * الثانى أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوي المسدسات فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة أما اذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه لايبقي فيما بينهما فرج ضائعة فاهتداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب * الثالث أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه اذا تعب عند الطيران وذلك أيضا من الاعاجيب * الرابع انها اذا نفرت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى وكرها وهذا أيضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة وكان حصول هذه

الانواع من الـكياسـة ليس الا على سبيل الالهام وهى حالة شبيهة بالوحي لاجرم قال تعالى فى حقها وأوحى ربك الي النحل أن اتخذى الخ (ثم كلى من كل الثمرات) أي من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها (فاسلكي) ماأكلت منها (سبل ربك) أي مسالـكه التي برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلـكي الطرق التى ألهمك الله تعالى أن تسلـكيها وتدخلى فيها لا جل طلب الثماروواجعة الى بيوتك (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسرعليك وان توعرت ولا تضلى عن العود منها وان بعدت وذلك انها اذا أجدب عليها ما حولها سافرت الى المواضع البعيـدة فى طلب النجعة ثم ترجع الي بيوتها من غير التباس وانحراف وأشار باسم الرب الى انه لولا عظيم احسانه في تربيتها لما اهتدت الي ذلك وقيل ذللا حال من الضمير فى اسلـكي أي مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتي انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث شاؤا وارادوا لا تستعصى عليهم وقال بعضهم أى منقادة لما يراد منـك ولذا يقسم يعسوبها أعمالها بينها فبعض يعمل الشمع وبعض يعمل العسل وبعض يسقى المـاء ويصبه في البيت وبعض يبنى البيوت فسبحان من أعطي كل شيء خلقه ثم هدى (يخرج من بطونها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالي التي هي موضع العبرة بعدما أمرت بما أمرت (شراب) أى عسل لانه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الاشربة (مختلف ألوانه) مابين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من ألوان العسل والمقصود منـه ابطال القول بالطبع لان هـذا الجسم مع كونه متساوى الطبيعة لما حـدث على ألوان مختلفـة دل ذلك على أن حـدوث تلك الالوان بتدبير الفاعل المختار لا لاجل ايجاب الطبيعة (فيـه) أى

الشراب الذي يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) أي شفاء الاوجاع التي يعرف شفاؤها منه يعني انه من جملة الاشفية المشهورة النافعة لأمراض الناس وليس المراد انه شفاء لكل مرض كما قال في حياة الحيوان قوله فيه شفاء للناس لايقتضي العموم لكل علة وفي كل انسان لانه نكرة في سياق الاثبات بل المراد أنه يشفي كما يشفي غيره من الادوية فى حال دون حال قال البيضاوى فيه شفاء للناس اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أومع غيره كما في سائر الامراض اذ قلما يكون معجون الا والعسل جزء منه وأما السكر فمختص في بعض الامراض وهو محدث ولم يكن فيما تقدم من الازمان يجعل فى الاشربة والادوية الا العسل ومنافعه كثيرة جدا (ان في ذلك) الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالي (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بان له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله قال المتقدمون من الحكماء انه تعالى دبر هذا العالم على وجه وهو أنه يحدث فى الهواء طل لطيف في الليالي ويقع ذلك الطل على أوراق الاشجار فقد تكون تلك الاجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الاوراق والازهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة . أما القسم الثاني فهو مثل الترنجبين فانه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان . وأما القسم الاول فهو الذي ألهم الله تعالي هذا النحل حتى انها تلتقط تلك الذرات من الازهار وأوراق الاشجار بافواهها وتأكلها وتغتذى بها فاذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخري شيأ من تلك الاجزاء وذهبت بها الى بيوتها ووضعتها هناك لانها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها فاذا اجتمع في بيوتها

من تلك الاجزاء الطلية شيء كثير فذلك هو العسل وقد مال الى هذا القول بعض العلماء والذي عليه جل العلماء هو أن النحل تأكل من الازهار والاوراق العطرة فتستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم تخرجه ادخاراً للشتاء فيسيل من أفواهها كاللعاب ويدل على ذلك قوله تعالى يخرج من بطونها لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره من الحيوان ويدل على ذلك أيضاً ما يشاهد من أن العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التى يأكلها النحل وكذا يوجد ريحها فيه أيضاً ولو كان العسل من الترنجبين لكانا على لون واحد وطبيعة واحدة ومنفعة واحدة مع انه ليس كذلك فان الترنجبين على لون واحد والعسل له ألوان متعددة ومزاج الترنجبين معتدل الي الحرارة ومزاج العسل حار يابس فى الدرجة الثانية والترنجبين يسهل الصفراء بلطف والعسل يضر بالصفراويين ولا ينافى هذا قوله تعالى فيه شفاء للناس لما ذكرناه من انه تعالى لم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بان يوصف بانه فيه شفاء وعلى فرض صحة ما قالوه من ان العسل من الطل فمن أين هذا الشيء التي تبني منه بيوتا ولئن صح ما ذكروه فوجود النحل والعسل يدل على وجود الاله الفاعل المختار الحكيم من وجوه . الاول اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الاحوال التى ذكرناها * والثاني اهتداؤها الى جمع تلك الاجزاء العسلية من اطراف الاشجار والاوراق * والثالث خلق الله تعالى تلك الاجزاء النافعة في جو الهواء ثم القاؤها على اطراف الاشجار والاوراق ثم الهام النحل الى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على ان اله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة والله أعلم * وقال تعالى في سورة النحل أيضاً (ألم يروا الى الطير)

تقرير لمن ينظر اليهن وتعجيب من شأنهن والطير جمع طائر أى ألم ينظروا
اليها ليستدلوا بها على قدرة الله تعالي (مسخرات) مذللات للطيران وفيه مبالغة
من حيث ان معنى التسخير جعل الشيء منقاداً لآخر يتصرف فيه كيف يشاء
كتسخير الفلك والبحر للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف
تشاء فكان مقتضي طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالي للطيران وفيه تنبيه
على ان الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالي (فى جوّ
السماء) أى فى الهواء بين السماء والارض واضافته الى السماء لما أنه في جانبها
من الناظر ولاظهار كمال القدرة (ما يمسكهن) في الجو عن الوقوع حين قبض
اجنحتهن تارة وبسطها تارة ووقوفهن أخري (الا الله) عز وجل بقدرته
الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة
من فوقها ولا دعامة من تحتها تمسكها قال الامام فخر الدين في قوله تعالى ألم
يروا الى الطير مسخرات في جو السماء هذا دليل آخر على كمال قدرة الله
تعالي وحكمته فانه لولا انه تعالي خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق
الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك فانه تعالى اعطى الطير جناحا
يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعمله السابح فى الماء وخلق الهواء خلقة
لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا
اما قوله ما يمسكهن الا الله فالمعنى ان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل
يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا فوقه فوجب ان يكون الممسك
له فى ذلك الجو هو الله تعالي (ان في ذلك) الذى ذكر من تسخير الطير للطيران
(لآيات) أى دلالات ظاهرة (لقوم يؤمنون) أي من شأنهم أن يؤمنوا وانما
خص ذلك بهم لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون
غيرهم (والله غيرهم جعل لكم) أي لمصلحتكم ومنفعتكم (من بيوتكم) المعهودة التي

تبنونها من الحجر والمدر (سكنا) فعل بمعنى مفعول وهو ما يسكن اليه أي جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتطمئنون به من غير أن ينتقل من مكانه (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) أي بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة وهي الخيام والقباب والاخبية والفساطيط وذلك فى بعض الناس كالعرب والسودان فانهم يتخذون خيامهم من الجلود كذا قال المفسرون . وأقول ان الآية شاملة لعربات الركوب المستحدثة للمترفين من أهل المدن قالوا ويجوز ان يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر فانها من حيث انها ثابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) أي وقت ترحلكم وسفركم (ويوم اقامتكم) أي وقت حضركم ونزولكم فى الضرب والبناء (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) عطف على قوله تعالي من جلود والضمائر للانعام على وجه التنويع أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) أى متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث (ومتاعا) أى شيأ يتمتع به بفنون التمتع والاقرب ان الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به (الي حين) الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الي أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلاء والفناء وقيل الي أن تموتوا * وقال تعالى فى سورة المؤمنون (وان لكم في الانعام لعبرة) بيان للنعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان وقد بين انها مع كونها فى نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لا بد من أن يعتبروا بها ويستدلوا باحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل ولطيف حكمته وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه (نسقيكم مما فى بطونها) تفصيل لما فيها من مواقع العبرة والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بالبانها ووجه الاعتبار فيه انها تجتمع فى الضروع وتتخلص من بين الفرث

والدم باذن الله تعالي فتستحيل الى طهارة والي لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك ممدودا فى النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا وأيضا فهذه الالبان التى تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شرابا طيبا واذا ذبحتها لم تجدلها أثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى (ولكم فيها منافع كثيرة) غير ما ذكر من أصوافها وأشعارها وبيعها والانتفاع بأثمانها وما يجرى مجرى ذلك (ومنها تأكلون) فتنتفعون باعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها (وعليها) أى على الانعام فان الحمل عليها لا يقتضي الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالابل ونحوها وقيل المراد هى الابل خاصة لانها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فانها عندهم تسمي سفائن البر (وعلى الفلك تحملون) أي فى البر والبحر لان وجه الانتفاع بالابل فى المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك فى البحر ولذلك جمع بين الوجهين في انعامه لكى يشكر على ذلك ويستدل به * وقال تعالي فى سورة النور (ألم تر) أى تعلم علما يشبه المشاهدة فى اليقين والوثاقة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (ان الله يسبح له) أي ينزهه تعالي على الدوام في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل (من في السموات والارض) من العقلاء وغيرهم تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فان كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان أو بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل ما لا يليق بشأن من شؤنه الجليلة وقد نبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال واكد ذلك بايثار كلمة من على ما كأن كل شيء مما عزوهان وكل فرد من

افراد الاعراض والاعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شأنه تعالي وعزة سلطانه وقيل المراد بمن فى السموات والارض العقلاء خاصة وتخصيصه هنا بالعقلاء لان خلقهم أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب فى خلقهم اكثر وهى العقل والنطق والفهم وفيه مزيد تخطئة للكفرة وتعيير ببيان انهم يسبحونه تعالى باعتبار أخس جهاتهم التى هي الجمادية والجسمية والحيوانية ولا يسبحونه باعتبار أشرفها التى هي الانسانية (والطير صافات) تخصيص الطير بالذكر مع اندراجها في جملة مافى الارض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وانشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح انبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى صافات أي تسبحه تعالي حال كونها صفات أجنحتها فان اعطاءه تعالي للجرم الثقيل القوة التى بها يقوي علي الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها وارشادها الى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة المكنون. وآية بينة لقوم يعقلون. دالة على كمال قدرة الصانع المجيد. وغاية حكمة المبدئ المعيد (كل قد علم صلاته وتسبيحه) بيان لكمال عراقة كل واحد مما ذكر في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الافاعيل فيفعلها عن قصدونية لا عن اتفاق بلا روية وقد أدمج فى تضاعيفه الاشارة الى ان لكل واحد من الاشياء المذكورة مع ماذكر من التنزيه حاجة ذاتية اليه تعالى واستفادة منه لما يهمه بلسان استعداده وتحقيقه ان كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود لكنه مستعد لان يفيض عليه منه تعالي ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالي علي الاستمرار فيفيض عليه في كل آن من فيوض الفنون المتعلقة بذاته وصفاته مالا يحيط به نطاق البيان بحيث لو

انقطع

انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لا نعدم بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وافادة المزايا المذكورة فيما مر علي التفصيل (والله عليم بما يفعلون) أي ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله وماعبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسنداً الى ضمير العقلاء لما مر. هذا وقد قيل ان الضمير فى قوله تعالي قد علم لله عز وجل وفي صلاته وتسبيحه لكل أي قد علم الله تعالي صلاة كل واحد مما فى السموات والارض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه أيضا لكن لا على أن تكون ما عبارة عما تعلق به علمه تعالي من صلاته وتسبيحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها دخولا أوليا * وروى عن أبي ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لي أتدري ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن والمراد بذلك ماذكرناه وأنهن يسألنه تعالي بلسان الحال فان الطير لو كانت عارفة بالله تعالي لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشارتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة أنها أشد نقصانا من الصبي الذى لايعرف هذه الامور فبأن يمتنع ذلك فيها أولي واذا ثبت أنها لاتعرف الله تعالي استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت أنها لاتسبح الله الا بلسان الحال على ماتقدم تقريره وقال بعض العلماء انا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحيوانات أعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لايجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان أنه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه * أحدها احتيالها فى كيفية الاصطياد فتأمل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة في اصطياد الذباب ويقال ان الدب يصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين

كفيه تمريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ويحكى عن الفأر فى سرقته أمور عجيبة* وثانيها أمر النحل وما لها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التى لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين* وثالثها انتقال الكراكي من طرف من أطراف العالم الي الطرف الآخر طالبا لما يوافقها من الاهوية* ورابعها القنافذ تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الي جانب آخر سوى جانب فراخها وناقر الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم أن فيه دودا وحال النمل فى الذهاب الي مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واذا كشف عن بيوتها الساتر الذى كان يسترها وكان تحته بيض لها فان كل نملة تأخذ بيضة فى فمها وتذهب في أسرع وقت* واعلم أن الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتب طبائع الحيوان والمقصود أن الاكياس من العقلا يعجزون عن أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال انها ملهمة من عند الله تعالي بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي يعرفها الناس * وقال تعالى فى سورة النور أيضا (والله خلق كل دابة) أي كل حيوان يدب على الارض (من ماء) هو جزء مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة

الكل لان من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة (فمنهم من يمشي على بطنه) كالحية وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا بطريق الاستعارة أو المشاكلة (ومنهم من يمشى على رجلين) كالانس والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالنعم والوحش وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها ولانها كالنادر فكانت ملحقة بالعدم ولان الفلاسفة يقرون بأن ماله قوائم كثيرة فاعتماده اذا مشى على أربع جهاته لاغير فكأنه يمشى على أربع ولان قوله تعالي بعد يخلق الله ما يشاء كالتنبيه على سائر الاقسام وانما جاءت الاجناس الثلاثة علي هذا الترتيب لانه تعالى قدم ماهو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشي علي رجلين ثم الماشي على أربع (يخلق الله مايشاء) مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً كان أو مركباً على ما يشاء من الصور والاعضاء والهيآت والحركات والطبائع والقوي والافاعيل مع اتحاد العنصر واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور والايذان بأنه من أحكام الالوهية (ان الله على كل شيء قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء واعلم أن قوله يخلق الله ما يشاء تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشي فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكر ههنا بعض تلك التقسيمات ﴿التقسيم الاول﴾ الحيوانات قد تشترك فى أعضاء وقد تتباين بأعضاء اما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى أن لهما لحماً وعصباً وعظماً وأما التباين فاما أن يكون فى نفس العضو أو فى صفته * أما التباين في نفس العضو فعلى وجهين * أحدهما أن لا يكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان * والثانى أن لا يكون ذلك العضو

حاصلا للثاني لا بذاته ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شيء منها للانسان * وأما التباين في صفة العضو فاما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال أما الذي في الكم فاما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل أن أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو عشرة والذي في الكيف فكاختلافها في الالوان والاشكال والصلابة واللين والذي في الوضع فمثل اختلاف وضع ثدي الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدي الفرس فانه عند السرة وأما الذي في الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك في الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذي في الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير في الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك * التقسيم الثاني * الحيوان اما أن يكون مائيا بمعنى أن مسكنه الاصلي هو الماء أو أرضيا أو يكون مائيا ثم يصير أرضيا أما الحيوانات المائية فتتغير أحوالها من وجوه * الاول أنه اما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائيا فله بدل التنفس في الهواء التنشق المائي ولا يعيش اذا فارقه والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء * الوجه الثاني الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر * الوجه الثالث منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية * الوجه الرابع الحيوان المنتقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنه ما يعتمد في السباحة على رجليه كالضفدع ومنه ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنه

ما يزحف

ما يزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له وكالدود واما الحيوانات البرية فتتغير أحوالها أيضا من وجوه * الاول أن منها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها مالا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل * الثاني أن الحيوانات الارضية منها ماله مأوى معلوم ومنها مامأواه كيف اتفق الا أن يلد فيقيم للحضانة واللواتى لها مأوي فبعضها مأواه شق وبعضها حفر وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الارض * الثالث الحيوان البري كل طائر منه ذو جناح فانه يمشي برجليه ومن جملة ذلك ماالمشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش وأما الذى جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير * الرابع الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكى وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع علي الطعم لاحتياجها الي الاحتيال لتصيد ومنافستها فيه ومنها مايتعايش زوجا ويكون معا كالقطا ومنه ما يجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الفرانيق يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكراكي تطيع رئيسا واحدا والنمل له اجتماع ولا رئيس * الخامس الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم * أما القسم الثالث وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا وأخري بريا فيقال انه حيوان يكون فى البحر ويعيش فيه ثم انه يبرز الى البر ويبقى فيه *التقسيم الثالث* الحيوان منه ماهو انسي بالطبع كالانسان ومنه ماهو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه

ماهو انسى بالقسر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه ويبقى مستأنسا كالفيل ومنه مايبطيء كالاسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى وصنف وحشي حتى من الناس ﴿ التقسيم الرابع ﴾ من الحيوان ماهو مصوت ومنه مالا صوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا الا الانسان وأيضا لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين ﴿ التقسيم الخامس ﴾ بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادى الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضه شديد حاد الغضب كالخنزير البري وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها رديء الحركات مغتال كالحية وبعضها جريء قوي شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها قوي مغتال وحشى كالذئب وبعضها محتال مكار رديء الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب الا انه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بجماله كالطاووس وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار ﴿ التقسيم السادس ﴾ من الحيوان ما تناسله بأن تلد أنثاه حيوانا وبعضها ما تناسله بأن تلد أنثاه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان أعضاءه تستكمل بعد وبعضها تناسله بأن تبيض أنثاه بيضا ۞ واعلم أن العقول قاصرة عن الاحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لو كان الامر بتركيب الطبائع فذلك بالنسبة الي الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات باعضائها وقواها ومقادير أبدانها واعمارها واخلاقها لا بد وان يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالي عما يقول الجاحدون وأحسن كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فاي عقل يقف عليها وأي خاطر يصل الى ذرة من اسرارها

بل

بل هو الذى يخلق ما يشاء كما يشاء ولا يمنعه مانع ولا دافع * وقال تعالى في سورة العنكبوت (وكاين من دابة لا تحمل رزقها) أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها واياكم) ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى انه لا يرزقها واياكم الا الله تعالى لان رزق الكل باسباب هو المسبب لها وحده وأيضاً فان الله تعالي يرزق الدواب من ثلاثة أوجه نظرا الي الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر الي الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الي المرتزق فلان الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما ولحما وشحما ولا يحصل ذلك الا بجذب ومسك وهضم ودفع وغير ذلك وما ذلك كله الا بحكمة الله تعالى وبمحض قدرته وارادته فهو الذى يرزقها وأما بالنظر الي المرتزق والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان الي الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ألا ترى ان من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك (وهو السميع العليم) سميع اذا طلبتم الرزق يسمع ويجيب عليم ان سكتم لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم * وقال تعالي فى سورة فاطر (ومن الناس والدواب) جمع دابة وهى ما يدب على الارض من الحيوان وغلب على ما يركب من الخيل والبغال والحمير ويقع على المذكر (والانعام) جمع نعم وقد يسكن عينه الابل والبقر والضأن والمعز والمعني ومنهم بعض (مختلف ألوانه) أو وبعضهم مختلف ألوانه بان يكون أبيض وأحمر وأسود (كذلك) أى اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال المذكور في أول الآية فمنه ذو لونٍ

ومنه ذو لونين أو أكثر والمقصود من ذكر هذا الاختلاف الاستدلال به على قدرة الله تعالي وارادته * وقال تعالي فى سورة يس (أولم يروا) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة (أنا خلقنا لهم) أي لاجلهم وانتفاعهم (مما عملت أيدينا) أى من جملة ما عملت أيدينا أي مما تولينا احداثه بالذات وعملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وارادتنا وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد المبالغه في الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به (أنعاما) مفعول خلقنا أى خلقناها على علم منا بقواها ومقاديرها ومنافعها وطبائعها وغير ذلك من أمورها وانما خص الانعام بالذكر وان كانت الاشياء كلها من خلقه وايجاده لما فيها من بدائع الفطرة كما فى الابل وكثرة المنافع كما فى البقر والغنم أى الضأن والمعز ولان الانعام أكثر أموال العرب والنفع بها أعم (فهم لها مالكون) أي فهم مالكون لها بتمليكنا اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم قال الامام فخر الدين وقوله تعالي فهم لها مالكون اشارة الى اتمام الانعام فى خلق الانعام فانه تعالي لو خلقها ولم يملكها الانسان ما كان ينتفع بها (وذللناها لهم) أي صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شيء مما يريدون بها وهذا زيادة انعام فان المملوك اذا كان آبيا متمردا لا ينفع فلو كان الانسان يملك الانعام وهى نادة صادة لما تم الانعام الذى فى الركوب وان كان يحصل الاكل كما فى الحيوانات الوحشية بل ما كان يكمل نعمة الاكل أيضاً الا بالتعب الذى فى الاصطياد ولعل ذلك لا يتهيأ للبعض وفى البعض (فمنها ركوبهم) بيان لمنفعة التذليل والفاء فيه لتفريع أحكام

التذليل

التذليل عليها وتفصيلها أي فبعض منها ركوبهم أي مركوبهم أي معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب (ومنها يأكلون) أي وبعض منها يأكلون لحمه ولولا التذليل لما وجدت احدى المنفعتين وكانت الاخري قليلة الوجود (ولهم فيها) أي في الانعام بكلا قسميها (منافع) أخر غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من اللبن جمع مشرب قال الامام فخر الدين بيّن تعالى غير الركوب والاكل من الفوائد بقوله تعالي ولهم فيها منافع ومشارب وذلك لان من الحيوانات مالا يركب كالغنم فقال منافع لتعميمها والمشارب كذلك عامة ان قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود مايتخذ أواني للشرب والادوات من القرب وان قلنا ان المراد المشروب وهو الالبان والاسمان فهي مختصة بالاناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والاناث (أفلا يشكرون) أي أيشاهدون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها * وقال تعالى في سورة غافر (الله الذي جعل لكم الانعام) أي خلقها لأجلكم ومصلحتكم (لتركبوا منها ومنها تأكلون) تفصيل لما دل عليه اللام اجمالا (ولكم فيها منافع) آخر غير الركوب والاكل كالبانها وأوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) بحمل أثقالكم من بلد الي بلد (وعليها وعلى الفلك تحملون) لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر (ويريكم آياته) دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته (فاي آيات الله) أي فأي آية من تلك الآيات الباهرة (تنكرون) فان كلامنها من الظهور بحيث لا يكاد يجترئ على انكارها من له عقل في الجملة * وقال تعالى في سورة الزخرف (وجعل لكم من الفلك

والانعام ما تركبون) أى ما تركبونه (لتستووا على ظهوره) أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والانعام (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) أى تذكروها بقلوبكم مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بالسنتكم (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك (وما كنا له مقرنين) أى مطيقين من أقرن الشيء اذا أطاقه وأصله وجده قرينته لان الصعب لا يكون قرينة للضعيف وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى اذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حق المنعم بها وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الانسان لابد وان تكون أكثر قوة من الانسان بكثير وليس لها عقل يهديها الي طاعة الانسان ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة فى خلقها الظاهر وفى خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع . أما خلقها الظاهر فلأنها تمشى على أربع قوائم فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الانسان عليه . وأما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للانسان ومسخرة له فاذا تأمل الانسان فى عجائب ما يركبه من نحو الفلك والانعام وغاص بعقله في بحار هذه الاسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة الغير المتناهية فلا بدو أن يقول سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (وانا الي ربنا لمنقلبون) أى راجعون وفيه ايذان بان حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هى الانقلاب الي الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر بباله فى شي مما يأتى ويذر أمرا ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع * وقال تعالي في سورة الجاثية (وفى خلقكم) أي من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة الي تمام الخلق (ومايبث من دابة) اى وفيما ينشره ويفرقه من دابة مما تعلمون ومما لا تعلمون بما فى ذلك مشاركتكم بالاختيار

والهداية للمنافع ومخالفتكم فى الصورة والعقل وغير ذلك من مخالفة الاشكال والطبائع والمنافع وغير ذلك (أيات) بالرفع مبتدا خبره الظرف المقدم أي دلالات على قدرة الله تعالي وارادته (لقوم يوقنون) أي من شأنهم أن يوقنوا بالاشياء على ماهي عليه ووجه الدلالة أن الاجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الاعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين لابد وان يكون بتخصيص القادر المختار ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن الى سن آخر ومن حال الي حال آخر والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم* وقال تعالى فى سورة تبارك (أولم يروا) أي أغفلوا ولم ينظروا (الى الطير فوقهم صافات) باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها فانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا وقوادم الطير مقاديم ريشه وهى عشر فى كل جناح الواحدة قادمة (ويقبضن) ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن حينا فحينا للاستظهار به على التحرك (ما يمسكهن) فى الجو عند الصف والقبض علي خلاف مقتضي الطبع الجسمانى فانه يقتضى الهبوط الي السفل (الا الرحمن) الواسع رحمته كل شى بان برأهن على أشكال وخصائص وهيأهن للجري في الهواء قال الامام فخر الدين انها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها فى جو الهواء الا بامساك الله وحفظه (انه بكل شيء بصير) يعلم كيفية ابداع المبدعات والغرائب. وتدبير المصنوعات والعجائب* وقال تعالى فى سورة الأعلى (الذي خلق فسوى) أي أعطى كل حيوان ما يحتاج اليه من أعضاء وآلات وحواس (والذي قدر) أي أعضاءه بمقدار مخصوص على حسب ما تقتضيه الحكمة (فهدي) أي هداه الى ما به يتسنى معاشه وفنون هدايته تعالى للحيوان مما لا يحصى فمن ذلك أن القطا وهو طائر معروف يضرب به المثل في الهداية ويقال أهدى من قطاة وذلك أنه يترك فراخه ثم يطلب الماء من مسيرة عشرة أيام وأكثر فيرده فيما بعد طلوع الفجر الى طلوع الشمس

ثم يرجع فلا يخطيء لاصادرا ولا واردا قال صاحب الفلسفة الحقة جاء في احدى مجلات أوربا ما زبدته لايشك أحد في أن الاعين هي التى تلعب دورا مهما فى جعلنا فى علاقة مستمرة مع الكائنات الخارجية ولكن كثير من الحيوانات تري أحسن بكثير مما نرى نحن حتي يمكننا أن نقول ان لها حاسة سادسة أو سابعة زيادة عن الحواس الخمس غير معلومة لنا ويمكن أنها تصير غير قابلة للظهور . ولا يمكننا أن نفرض هذا الفرض بالنسبة للاعمال النظرية الغريبة جدا التى تحصل منها * والا كيف نعلل مسئلة قطع بعض الطيور للمسافات الشاسعة جدا على هواء القفار والبحار بدون أن تضل طريقها * فرض البعض أن هذه العجيبة منسوبة الي قوة مغناطيسية فى جسمها منفعتها لها كمنفعة البوصلة للملاحين * لكن هذه الخاصة ليست خاصة بالطيور بل موجودة أيضا في النحل والزنابير وبالجملة فهي خاصية كل حيوان يضع صغاره في عش ويذهب أميالا طويلة يبحث لهم عن الاغذية * وبعد ذلك قالت الجريدة * قد أثبت المسيو فابر العالم الشهير ان هذه الحيوانات لا تهتدي الي أوكارها بالقوة المغناطيسية بأن وضع على ظهر نحلة ابرة ممغطسة فصارت تتخبط وتقفز مما أظهر مبدئيا أن المغناطيس قد أثر على جسمها ثم طارت وآبت خالية من عبثها المغناطيسى * ولاجل أن ينفي ذلك الدكتور الظن الذى نتج من تخبطها فى كونه ناشئا من تأثير المغناطيس على جسمها استبدله بقشة صغيرة فاضطربت اضطرابها أول مرة فعلم أن تخبطها نشأ من ارادة تخلصها من ورطتها ولكن مامعنى فرضهم أن لها قوة مغناطيسية كالبوصلة * فماذا تنفع البوصلة للنحلة ان لم يكن معها خريطة تريها في أي بقعة من الارض توجد خليتها * وماذا تنفع الملاح عدته البحرية ان لم يعلم القطعة التى ألقته اليها يد الزوبعة * وقال تعالى في سورة الغاشية (أفلا ينظرون الي الابل كيف خلقت) أى أفلا

ينظرون

ينظرون نظر اعتبار الى الابل التي هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين أنها كيف خلقت خلقا عجيبا دالا على كمال قدرته تعالى وحسن تدبيره حيث كان خلقها بديعا منفردا به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتي ما يصدر عنها من الافاعيل الشاقة كالنهوض من الارض بالاوقار النقيلة وحمل الأثقال الفادحة الي البلاد البعيدة ومع عظمها وقوتها تلين للحمل الثقيل وتنقاد للانسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ويقتادها بقطارها القائد الضعيف حتي أن الصبي الصغير ياخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء قال بعضهم الابل له خواص منها أنه تعالي جعل الحيوان الذى يقتنى أصنافا شتى فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الانسان في الاسفار وتارة لينقل أمتعة الانسان من بلد الى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الابل وان شيأ من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب * وثانيها انه فى كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه الا تلك الخصلة لانها ان جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير وان جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير وان جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة مالا يمكن قطعه بحيوان آخر وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش حتى ان ظمأها ليبلغ العشر فصاعداً والاجتزاء من العلوفات باليسير ورعيها لكل ما تيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وان جعلت حمولة استقلت بحمل الاحمال الثقيلة التي لايستقل به سواها. ومنها أن عنقها سلم اليها ومنها أنها تتأثر بالصوت الحسن وتصير من كمال التأثر الى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري ويجري الدمع

من عينيها ومنها ماحكاه الامام فخر الدين قال كنت مع جماعة فى مفازات فضللنا الطريق فقدموا جملا وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل الى تل ومن جانب الي جانب والجميع كانوا يتبعونه حتي وصل الي الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك الحيوان انه بالمرة الواحدة كيف انحفظت فى خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذى عجز جمع من العقلاء عن الاهتداء اليه قان ذلك الحيوان اهتدي اليه فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ولنختم هذا المبحث بذكر شيء من عجائب الحيوانات فمن ذلك أن (الابل) تستطيب الشجر الذي له شوك وتهضمه أمعاؤها مع أنها لا تستطيع فى غالب الاوقات أن تهضم (والارضة) تبنى لنفسها بينا حسنا من عيدان تجمعها مثل غزل العنكبوت منخرطا من أسفله الي أعلاه وله في احدي جهاته باب مربع وبيتها ناووس ومنها تعلم الاوائل بناء النواويس على موتاهم ويضرب بها المثل فيقال اصنع من أرضة (والاروي) وهي الانثى من الوعول أوغنم الجبل عندها الحنو على أولاها فاذا صيد منها شيء تبعته ورضيت أن تكون معه في الشرك والبر بابويه وذلك أنه يختاف اليهما بما يأكلانه فاذا عجزا عن الاكل مضغ لهما واطعمهما (والاوز) فرخه يخرج من البيضة فيحسن السباحة في الحال (والايل) بتشديد الياء المكسورة ذكر الاوعال اذا خاف من الصياد يرمي نفسه من رأس الجبل ولا ينضرر بذلك واذا لسعته الحية أكل السرطان وهو يصادق السمك فهو يمشي الي الساحل ليري السمك والسمك يقرب من البر ليراه وهو مولع باكل الحيات يطلبها حيث وجدها ويأكلها أكلا ذريعا واذا أكل الحية بدأ باكل ذنبها الى رأسها وربما لسعته فتسيل دموعه الي نقرتين تحت محاجر عينيه يدخل الاصبع فيهما فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمع فيتخذ

درياقا

درياقا لسم الحيات (والجراد) أصناف مختلفة فبعضه كبير الجثة وبعضه صغيرها وبعضه أحمر وبعضه أصفر وبعضه أبيض وللجرادة ستة أرجل يدان فى صدرها وقائمتان في وسطها ورجلان في مؤخرها وطرفا رجليها منشاران وهو من الحيوان الذى ينقاد لرئيسه فيجتمع كالعسكر اذا ظعن أوله تتابع جميعه ظاعنا واذا نزل أوله نزل جميعه ولعابه سم ناقع للنبات لايقع على شيء منه الاأهلكه وفي الجراد خلقة عشرة من جبابرة الحيوان مع ضعفه. وجه فرس. وعينا فيل وعنق ثور. وقرنا أيل. وصدر أسد. وبطن عقرب. وجناحا نسر. وفخذا جمل. ورجلا نعامة. وذنب حية (والحجل) اذا باضت أنثاه ميز الذكر الذكور منها فحضنها وهى تحضن الاناث وهما كذلك فى التربية (والحرباء) ذكر القزويني انه لما كان خلقا بطيء النهضة وكان لا بد له من القوت خلقه الله على صورة عجيبة فخلق عينيه تدوران الى كل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة فى يديه ولا قصد اليه و يبقى كأنه جامد أوكأنه ليس من الحيوان ثم أعطي مع السكون خاصية أخرى وهو أنه يتشكل بلون الشجرة التى يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم اذا قرب منه مايصطاده من ذباب وغيره أخرج لسانه ويخطف ذلك بسرعة كلحوق البرق ثم يعود الي حاله كأنه جزء من الشجرة وخلق الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق مابعد عنه بثلاثة أشبار ونحوها يصطاد به على هـذه المسافة واذا رأى ما يروعه ويخوفه تشكل وتكوّن على هيئة وشكل يفر منه كل من يريده من الجوارح ويكرهه بسبب ذلك التلون اه والحرباء أكبر من العظاية وهي تتلوّن بحر الشمس كما قال الامام الغزالي ألوانا مختلفة فتتلوّن الي حمرة وصفرة وخضرة وماشاءت وهي أبدا تطلب الشمس فحين تبدو تنحو بوجهها اليها حتي اذا استوت الشمس علت رأس شجرة ومايجري مجراها فاذا صار قرص الشمس فوق رأسها بحيث لا تراها أصابها مثل

الجنون فلا تزال طالبة لها ولا تفتر الي جهة المغرب فترجع بوجهها اليها
مستقبلة لها ولا تحرف عنها الي أن تغيب الشمس فاذا غابت الشمس طلب
هذا الحيوان معاشه ليله كله الي أن يصبح وهذا الحيوان يوصف بالحزم لانه
مع تقلبه مع الشمس لا يرسل يده من غصن حتي يمسك غيره وهو يشبه
رأس العجل وعلى هيئة السمكة الصغيرة وله أربعة أرجل كسام أبرص
(والحمام) يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ ويحمل الاخبار ويأتى بها
من البلاد البعيدة فى المدة القريبة وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ فى يوم
واحد وربما اصطيد وغاب من وطنه عشر حجج فأكثر ثم هو على نزوعه
الي وطنه حتى يجد فرصة فيطير اليه واذا باضت الانثى يجلس الذكر على
البيض ويسخنه جزأ من النهار والانثي بقية النهار (والخطاف) وهو المعروف
بعصفور الجنة يبني بيته في أبعد المواضع عن الوصول اليه ولا يفرخ في عش
عتيق حتي يطينه بطين جديد ويبنى عشه بناء عجيبا وذلك انه يهيء الطين مع
التبن فاذا لم يجد طينا مهيأ ألقي نفسه في الماء ثم يتمرغ فى التراب حتي يمتليء
جناحاه ويصير شبيها بالطين فاذا هيأ عشه جعله على القدر الذي يحتاج اليه
هو وأفراخه ولا يلقي فى عشه زبلا بل يلقيه الي خارج فاذا كبرت فراخه
علمها ذلك (ودودة الحرير) هي من أعجب المخلوقات وهى دودة حقيرة لكن
أودع فيها الصانع الحكيم من العجائب ما يشهد ببديع حكمته. وباهر قدرته.
جلّ وعلا وذلك أنها تعيش من ورق شجرة مخصوصة وهى شجرة التوت
وبعد أن تمر على أدوار غريبة من شكل وأكل وصوم تنسج نسجًا غاليا
يتباهى بلبسه نساء الملوك *وتفصيل أحوالها أنها تكون أولا بزرة أو بيضة
صغيرة جداً ثم تخرج منه دودة صغيرة أصغر من الذر ولا تزال تكبر وتعظم
الي ان تصير في قدر الاصبع وتنتقل من السواد الي البياض أولا فأولا

ويسلخ جلدها أربع مرات وذلك لان جسمها يكبر كثيراً بسرعة فلا يسعها
جلدها الاول وتنقطع عن الاكل عند سلخه فتبقى صائمة مدة يوم أو يومين
بلياليهما وكلما سلخ جلدها مرة تظهر بجلد جديد أكثر بياضاً مما كان
قبله وتقل حركتها فى حال الصوم أو تكاد تنقطع نتتمسك بأرجلها الخلفية
وتحنى رأسها قليلا ثم يجف جلدها وينشق أولا من وراء رأسها ثم يمتد الشق
الى كل الجسم فتخرج بجلد جديد يتكون مدة صومها وبعد السلخ الرابع
تنهمك على الاكل ليلا ونهاراً مدة أسبوع تقريباً وبعد ذلك تمتنع عنه دفعة
واحدة فتراها حينئذ مهتمة لتجد مكانا يوافقها فتصعد على أغصان تهيأ لتلك
الغاية وبعد أن تستقر فى مكان تراه موافقاً لعملها تبتدىء في النسج فتعمل أولا
غشاء مخصوصاً تضعه فى محل بعيد عن الطوارىء بمزيد الدقة والاعتناء وتعمل
داخله الخز الجيد مكملة ذلك من الخارج الي الداخل بامالة رأسها وبدنها الى
جميع الجهات وتنسج نسجها بهمة فائقة حتى يسمك فتحتجب داخله عن النظر
ثم تلتحم الخيوط التي تنسجها بعضها ببعض بمادة صمغية في الخيوط نفسها
وعند ما تتم نسجها تنقلب زيزا فيغيب رأسها وأرجلها عن النظر وتكتسى بجلد
قشري، لا مع ضارب الى الاحمرار وتظهر كانها فاقدة الحياة ثم ينشق جلدها
الجديد من وراء رأسها فتخرج منه فراشة تامة ذات أجنحة لم يكن لها أثر
من قبل وتكون أرجلها الامامية متغيرة عن هيئتها الاصلية أما الارجل الخلفية
التى كانت تستعين بها عند صعودها على الاغصان فتفقد بالكلية بحيث لا يبقى
لها أثر وكما يكون التغير تاما في ظاهرها يكون تاما أيضاً فى داخلها فتتغير
أحشاؤها كلها كانها لم تكن بالامس دودة حرير ويتولد فى فمها وهى فى
منسوجها مادة سائلة متى لامسته تحلل نسجه وتهتك خيوطه فيسهل على
الفراشة الخروج من حبسها حينما يأتي زمن الخروج وأهم تغير يحصل في

الدودة داخل منسوجها هو تحولها هنا لك الي ذكور واناث بهيئات ظاهرة لا تقبل الالتباس مع أنه لا يظهر فى الدود ذكر ولا أنثي ولا يفترق بعضه عن البعض الآخر بأقل علامة فتخرج الديدان ذكورا واناثا متساوية العدد وتتزاوج ثم تنفك من نفسها بعد ساعات فيموت الذكر وتبيض الانثي ثم تموت ولا تذوق الدودة طعاماً من بعد ابتدائها فى النسج الى أن تموت أما ألوان المنسوج فكثيرة فمنها الابيض والاصفر والاخضر الضارب الي الصفرة والاصفر الضارب الي الحمرة وهيئة المنسوج أيضاً مختلفه فمنه المستدير والبيضي والبيضي المخنق الوسط فانظر هديت الى هذا الابداع البالغ نهاية الرقة واللطافة لتعرف بذلك كمال حكمة الصانع الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (والديك) أعظم ما فيه من العجائب معرفة الاوقات الليلية فيقسط أصواته عليها تقسيطاً لا يكاد يغادر منه شيأ سواء طال أو قصر ويوالي صياحه قبل الفجر وبعده فسبحان من هداه لذلك (والزرافة) لما علم الله تعالي أن قوتها من الشجر جعل يديها أطول من رجليها لتستعين بذلك على الرعى منها بسهولة (والسلحفاة) اذا باضت صرفت همتها الى بيضها بالنظر اليه ولا تزال كذلك حتى يخلق الله تعالى الولد منها اذ ليس لها أن تحضنه حتي يكمل بحرارتها لان أسفلها صلب لاحرارة فيه (والسنور) حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر واذاراث ستر روثه حتى لا يشم رائحته الفأر فيهرب أولا فاذا وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يواري الرائحة والجرم والا اكتفى بأيسر التغطية وذكر الزمخشري أن الله تعالي ألهم الهرة ذلك ليتنبه بذلك قاضي الحاجة من الناس فيغطي ما يخرج منه (والضفدع) أول نشئها في الماء أن تظهر مثل حب الدخن اسود ثم تخرج منه وهى كالدعموص ثم بعد ذلك تنبت لها الاعضاء فسبحان القادر على ما يشاء وما يريد سبحانه لا اله الا هو

(وظبية المسك) ذكر الدميري أن المسك دم يجتمع في سرتها فى وقت معلوم من السنة بمنزلة المواد التي تنصب الي الاعضاء وهذه السرة جعلها الله تعالى معدنا للمسك فهى تثمر كل سنة كالشجرة التى تؤتي أكلها كل حين باذن ربها (والغرنيق) وهو طائر أبيض طويل العنق من طير الماء ويقال له غرنوق وغرانيق قال القزويني الغرنوق من الطيور القواطع وهى اذا أحست بتغير الزمان عزمت على الرجوع الى بلادها فعند ذلك تتخذ قائدا حارسا ثم تنهض معا فاذا طارت ترتفع فى الهواء حتى لا يعرض لها شيء من السباع فاذا رأت غيما أو غشيها الليل أو سقطت للطعم أمسكت عن الصياح كيلا يحس بها العدو واذا أرادت النوم أدخل كل واحد منها رأسه تحت جناحه كأنه يعلم أن الجناح أحمل للصدمة من الرأس لما فيه من العين التى هي أشرف الاعضاء والدماغ الذى هو ملاك البدن وينام كل واحد منها قائما على احدي رجليه حتي لا يكون نومه ثقيلا وأما قائدها وحارسها فلا ينام ولا يدخل رأسه فى جناحه ولا يزال ينظر فى جميع الجوانب فاذا أحس بأحد صاح بأعلى صوته فسبحان الذى قدر فهدى

المبحث الرابع فى النظر فى النبات * وفيه مطلبان

المطلب الاول فى كيفية النظر فى النبات

«وما فى تكوينه من الآيات الداله»

(على صانعه بالقدرة والاختيار)

اعلم أن النبات متوسط بين المعادن والحيوان بمعنى انه خارج عن نقصان الجمادية الصرفة التي للمعادن وغير واصل الي كامل الحس والحركة اللتين اختص بهما الحيوان لكنه يشارك الحيوان فى بعض الامور لان البارى تعالى يخلق

لكل شيء من الآلات ما يحتاج اليها في بقاء ذاته ونوعه وما زاد على ذلك يكون ثقلا وكلا عليه لا يخلقه ولا حاجة للنبات للحس والحركة بخلاف الحيوان واعلم ان الحبة والنواة اذا وضعت في الارض الرطبة ثم مضي على هذه الحالة مدة أظهر الله تعالي فى تلك الحبة أو النواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا أما الشق الاعلى فانه يخرج منه جزء هو الشجرة الصاعدة الي الهـواء وأما الشق الاسفل فانه يخرج منه جزء آخر هو الشجرة الهابطة فى الارض وهي المسماة بعروق الشجرة وتصير تلك الحبة والنواة سببا لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الارض ثم ان ههنا عجائب * فاحداها ان الحب اذا وقع فى الارض الندية واستولي عليه الماء والتراب فالنظر العقلي يقتضى ان يتعفن ويفسد لان احدهما يكفي فى حصول العفونة فبهما جميعا أولى ثم انه لا يفسد بل يبقى محفوظا * وثانيها ان الحبة اذا وقعت في الارض الرطبة انتفخت ثم انشقت ولا تنشق من شيء من الجوانب الا من أعلاها وأسفلها مع ان الانتفاخ حاصل من جميع الجوانب . وثالثها ان النوى مع ما فيه من الصلابة العظيمة التى بسببها يعجز عن فلقه اكثر النـاس اذا وقع في الارض الندية ينفلق باذن الله ونواة التمر تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة على نصفين يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد ومن الثانى الجزء الهابط أما الصاعد فيصعد وأما الهابط فيغوص فى أعماق الارض * ورابعها ان طبيعة تلك الحبة والنواة واحدة وتأثير الطبائع والافلاك والكواكب فيها واحد ثم انه خرج من تلك الحبـة الصـغيرة شـجرتان احـداهما خفيف صاعد والاخري ثقيـل هابط مع اتحاد الطبيعـة واتحاد المـاء والهواء والتربة ومن المحال ان يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان فعلمنا ان ذلك انما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية فان

طبيعة

طبيعة تلك الشجرة ان كانت تقتضي الهوي في عمق الارض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء وان كانت تقتضى الصعود فى الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الارض فلما تولد منها هاتان الشجرتان مع ان الحس والعقل يشهد بكون طبيعة احدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الاخرى علمنا أن ذلك ليس بمقتضي الطبع والخاصية بل بمقتضي الايجاد والابداع والتكوين والاختراع * وخامسها ان باطن الارض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه ثم انا نشاهد اطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة كانها مياه منعقدة بحيث لو دلكها الانسان باصبعه بادنى قوة لصارت كالماء ثم انها مع غاية لطافتها تقوي على النفوذ في تلك الارض الصلبة والغوص في بواطن تلك الاجرام الكثيفة فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الاجرام الضعيفة التى هي فى غاية اللطافة لا بد وان يكون بتقدير العزيز الحكيم * وسادسها انه يتكون من تلك النواة والحبة شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة فان قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة وفى داخل ذلك القشر جرم الخشبة وفى وسط تلك الخشبة جرم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش ويحصل أنواع مختلفة فان الجزء الصاعد بعد صعوده يحصل له ساق ثم ينفصل من ذلك الساق أغصان كثيرة ثم يظهر على تلك الاغصان الاوراق أولا ثم الازهار والانوار ثانيا ثم الثمار ثالثا ويحصل لتلك الثمار اجزاء مختلفة بالكثافة واللطافة وهى القشور ثم اللبوب ثم الادهان ثم قد يحصل للثمرة أربعة أنواع من القشر مثل الجوز فان قشره الاعلى هو ذلك الاخضر وتحته ذلك القشر الذي يشبه الخشب وتحته ذلك القشر المحيط باللب وتحت ذلك القشر قشرة أخرى فى غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبا فحصول هذه الاجسام المختلفة فى طبائعها وصفاتها وألوانها

وأشكالها وطعومها مع تساوي تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول يدل
على انها انما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر. لا بتدبير الطبائع والعناصر
وسابعها أنك قد تجد الطبائع الاربع حاصلة فى الفاكهة الواحدة فالاترنج قشره
حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره ونوره حار يابس وكذلك
العنب قشره وعجمه بارد يابس كثيف. وماؤه ولحمه حار رطب لطيف. فحصول
هذه الطبائع المتضادة والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة لابد وأن يكون
بايجاد الفاعل المختار * وثامنها أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب
فى الداخل والقشر فى الخارج كما فى الجوز واللوز وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة
فى الخارج وتكون الخشبة في الداخل كالخوخ والمشمش وبعضها يكون النواة
لها لب كما فى نوى المشمش والخوخ وبعضها لا لب له كما فى نوى التمر وبعض الفواكه
لا يكون له من الداخل والخارج قشر بل يكون كله مطلوبا كالتين فهذه أحوال
مختلفة في هذه الفواكه وأيضا هذه الحبوب مختلفة فى الاشكال والصور فشكل
الحنطة كانه نصف دائرة وشكل الشعير كانه مخروطان اتصلا بقاعدتيهما وشكل
العدس كانه دائرة وشكل الحمص على وجه آخر فهذه الاشكال المختلفة لا بد وأن
تكون لاسرار وحكم علم الخالق أن تركيبها لا يكمل الا على ذلك الشكل وأيضا
فقد أودع الخالق تعالي في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية اخرى ومنفعة
أخرى وأيضا فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسما لحيوان آخر
فاختلاف هذه الصفات والاشكال والاحوال مع اتحاد الطبائع وتأثيرات
الكواكب يدل على أن كلها انما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم * وتاسعها
أنك اذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت خطا واحدا مستقيما
فى وسطها كانه بالنسبة الي الورقة كالنخاع بالنسبة الى بدن الانسان وكما أنه
ينفصل عن النخاع أعصاب كثيرة يمنة ويسرة فى بدن الانسان ثم لا يزال ينفصل

عن

عن كل شعبة شعب أخر ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والابصار بسبب الصغر فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطانى خطوط منفصلة وعن كل واحد منها خطوط مخلفه أخري أدق من الاولي ولا يزال يبقى على هذا المنهج حتي تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر والخالق تعالي انما فعل ذلك لتجري الاجزاء اللطيفة الارضية فى تلك المجارى الضيقة حتى تغتذى الشجرة بتلك الاجزاء فلما وقفت على عناية الخالق فى ايجاد تلك الورقة الواحدة علمت أن عنايته فى تخليق جملة تلك الشجرة أكمل وعرفت أن عنايته في تكوين جملة النبات أكمل ثم اذا عرفت أنه تعالي انما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل ولما علمت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الانسان علمت أن عنايتــه فى تخليق الانسان أكمل ثم انه تعالى انما خلق النبات والحيوان فى هذا العالم ليكون غذاء ودواء للانسان بحسب جسده والمقصود من تخليق الانسان هو المعرفة والمحبة والخدمة كما قال تعالي وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة واعرف كيفية خلقة تلك العروق والاوتار فيها ثم انتقل من مرتبة الى ما فوقها حتى تعرف ان المقصود الاخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الارواح البشرية فحينئذ ينفتح عليك باب من المكاشفات لا آخر لها ويظهر لك ان أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وكل ذلك انما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة قال صاحب الفلسفة الحقة ان مملكة النباتات هي المملكة الواسعة الاطراف الشاسعة الاكناف البديعة النظام المعجزة الاحكام ألق البصر الي أديم الارض في ابان الربيع تجدها لابسة جلابيب السندس الازهر والاستبرق الاخضر متكللة بتيجان الازهار

من لجين ونضار ينعش النواظر بهاها والقلوب رياها فمن ورد أحمرّ اهابه وتعندم خضابه وفاح شذاه وعشقه من رآه ومن نرجس باسم عرفه ناسم وكل محمول على شجيرة خضراء ذات سوق متناسبة وأوراق متناسقة ويرى بجانبها أعشاب حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء قصيرة الطول حشيشية السوق لا تتصلب بل تموت كل سنة ويخلفها غيرها ثم يري بجانب كل ذلك دوحات هائلة ذات أغصان غليظة وسوق ضخماء تعد أقطارها بالمترات أما طول قامتها فتبلغ منها العشرات فلا شك ان من تدبر في هذه المناظر البديعة لا بد ان تستلفت نظره وتتوق نفسه الى كيفية نموها وطرق تغذيتها كيف لا تتوق نفسه الي ذلك وهو الذي يرمي بيده بزرة صغيرة فلم يلبث ان يراها شجيرة ذات حياة مركبة من ساق وأغصان وأوراق وأزهار وثمار . فهل يوجد داخل الارض العمياء ماكينة كونتها أو فابريقة اصطنعتها كيف لا يذهل عقل متدبر يلقي الي الارض بزرة من بزور التين وبعد ان يلبث زمنا مناسبا يراها دوحة تناطح السحاب بعد ان كانت تحت التراب ذات فواكه عذبة على أغصان متحلية بأقراط الازهار ما بين أوراق خضراء ظلالها وارفة وأفياؤها سابغة تلبث هكذا تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها واليك ماقاله الدكتور نوفيل فى احدي مجلات أوربا الشهيرة تحت عنوان « آية التوالد » ما يأتي ببعض تصرف واختصار . كيف نفهم أن خلية بسيطة أمكنها أن تصل الي هيئة الاصل التى خرجت منه وتصيره أهلا لان يكابد كل التغيرات المخصصة لسلسلة الذرية . فاجاب الفيلسوف وسمن على هذه المسئلة بقوله قبل ان نبحث عن كيفية عمل الخلية البسيطة لهذه الآية الغريبة يلزمنا ان نعلم قبل كل شيء هل هي التى تفعلها في الحقيقة ونفس الامر . وقد درس المسيو جران الآن هذه المسئلة وفحصها فى جريدة فور تجتلي رفيو وابتدأ مقاله بقوله أليس ناموس

التماثل

التماثل هو الآية الحقيقية. أليس الحيوان والنبات يستعير من الخارج مواد مباينة لمادته من عضوية وغير عضوية. وماذا يفعل بها. هل يحيلها الي مادته الخاصية أو النوعية أو الجنسية أو الشخصية والذاتية * يمكن الاثبات بسهولة أن الجسم يتركب ويتعوض ويجدد نفسه مع كل خواصه وذلك من المواد الغريبة عن مادته. أليس من الغريب المدهش ان قطعا مخصوصة منفصلة عن كائن مهما كان أزرارا أو خلايا أو بذورا تمتلك عين القدرة التي يمتلكها المجموع التي كانت هي جزء منه فتركبه بكل خواصه ومزاياه. والجزء الحي من النبات هو مخلوق بطريقة بها أنه يحيل المواد غير العضوية (التي يمتصها ويحللها ويركبها ثانيا) الي تركيب مشابه تماما لتركيبه حتى في الخواص الدنيئة جدا. ولايجاد الخلية التي تحتوى على البزرة والخلية التي باجتماعها فيما بعد مع خلية أخرى من جنس مضاد لجنسه تكون جسما جديدا تظهر فيه العلامات المميزة للآباء * ولكن ماذا نقول في أن خلية بسيطة تحتوي على قوة ابراز كل هذه الاعضاء بكل هذه الخواص * كيف ذلك . لعمرى ان هذه الاشياء هي آية عجيبة اه ومن عجيب صنع الباري خلق الاوراق على الاشجار زينة لها ووقاية لثمارها من نكاية الشمس والهواء ثم انه تعالي خلقها مرتفعة عن الثمار متفرقة بعض التفرق لامتكاثفة عليها ولا بعيدة عنها لتأخذ الثمار من النسيم تارة ومن الشمس أخري فلو تكاثفت عليها حتي منعتها اصابة النسيم وشعاع الشمس لبقيت على فجاجتها غليظة الجلد قليلة المائية واذا سقط منها بعض الورق أصابتها الشمس وأحرقتها كما تري في الرمانة التي احترق منها احدي الجوانب ثم اذا فرغت الثمرة تناثرت الاوراق حتى لاتجذب مائية الشجرة فتضعف قوتها كما تري في الحيوان فان الام تضعف من ارضاع أولادها * واعلم أن عقول العقلاء متحيرة في أمر الحشائش وعجائبها وأفهام الاذكياء قاصرة عن ضبط خواصها وفوائدها

وكيف لامع مايشاهد من اختلاف صور قضبانها. واختلاف أشكالها والوانها. وعجيب صور أوراقها وأزهارها وكل لون منها ينقسم الي أقسام كالحمرة مثلا فانها وردى وأرجواني وسوسى وشقائق وأدريونى وغير ذلك مع اشتراك كلها فى الحمرة ثم عجائب روائحها ومخالفة بعضها بعضا مع اشتراك الكل في الطيب ثم عجائب أشكال حبوبها فانه لكل واحدة شكل وورق وعرق وزهر ولون وطم ورائحة وخاصية بل خاصيات لايعرفها غير الله والتي عرفها الانسان بالنسبة الي مالم يعرفه كقطرة من بحر فانظر الي الارض وهى ميتة فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت فنون الاشجار وعجائب النبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصي مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والاراييح يفضل بعضها على بعض فى الاكل تسقي بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت ان اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى ارض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الي كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الي الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليها وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الارض ورقة

ولا

ولا نبتة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من
هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الي عمل مخصوص وبعض ذلك يستنبت
ببث البذر فى الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب في الشجر
ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله
لانقضت الايام فى وصف ذلك لكثرة ما اشتمل عليه من العجائب
والغرائب حتي حير الالباب بما أودع فيه من النظام المحكم والاسرار
والحكم قال صاحب الرساله الحميدية وأغرب شأنه وكل شؤنه غريبة كيفية
تمثيله لاجزاء الارض والماء والهواء لبنيته وتطويرها باطواره بينما هذه الاشياء
عديمة النمو والحياة اذ راها قد دخلت في تركيب النبات فانقلبت جسما ناميا
متغذيا ذا حياة نباتية مكتسبا خواص لم تكن له من قبل ثم تنظر الي ذلك الجسم
النباتي فتراه من وجه عديم الارادة فاقد الادراك أشبه شيء بالجماد وتنظر
اليه من وجه آخر فتراه قد ضرب بعروقه في بطن الارض لتناول الغذاء فهو
وان لم يسع على أقدامه كالحيوان في طلب رزقه ولكن يبلغ فى باطن الارض
مالا يبلغه الحيوان وتري أغصانه تتعالى أو يتعرش بشوكه ولبابه على المرتفعات
لينتفع بنور الشمس كالحيوان المتسلق على الاشجار لطلب الاثمار وقال صاحب
كشف الاسرار النورانية القرآنية واذا تامل عاقل فى الاعضاء النباتية يتعجب
من صنع البارى تعالى وقدرته جل وذلك أنه يشاهد الجذور ذات الالياف الشعرية
التى تمتص السائلات الكائنة في الارض بقوة عجيبة وتنقل السائل المغذى الى
أوعية النبات وكذلك الى السوق والفروع القائمة فى وسط الهواء المعد لتغذيته
ثم الاوراق التى هي أعضاء تنفس وتحاب وافراز يمتص بها النبات الهواء ويخرج
الابخرة والغازات التى ليست نافعة لغذائه وكذلك الاوعية المختلفة الاشكال
التي تدور فيها العصارة الليمفاوية والعصارة المنصلحة وكذلك المسام القشرية

والخلايا قال صاحب الفلسفة الحقة ولو حثثنا مطايا البحث والتنقيب في ميدان علم النبات فلا يحتمل أن نجد لبدائعه حدا ولو بذلنا عمرنا كدا وجدا بل كلما توغلنا في أرجائه نرى غرائب تدهش ألبابنا وعجائب تستحق اعجابنا فهي مملكة يتنزه فيها الناظر والخاطر وربما زاد تنزه الثاني على الاول وهو في الحقيقة عليه المعول * من هذه البدائع أن من البذور مالا تتأتى رؤيته الا الا بالميكروسكوب ولو وضعناه في شروط انباته لا نستطيع أن ننظره بالعين العارية الا بعد جملة سنين أي لا ينمو الا ببطء زائد الحد . لكنا نرى من جهة أخرى أن بعض النباتات لا يستطيع رؤيتها الرائي الا بالميكروسكوب تنمو خلاياه (اذا وضعت في شروط الانبات) بسرعة مدهشة للفكر جدا حتي انها لتصل في بضع ساعات الي حجم البطيخة أعنى أنه يتكون فيها في الدقيقة الواحدة (٩٥) مليونا خلية ويوجد من النبات مايزرع نفسه بنفسه وذلك أنك تجد في بعضها أن الغلاف الثمرى أو المبيض متمتع بخاصية المرونة بزوره غير ثقيلة ففي النبات الذى من هذا القبيل ينفتح مصاريع ثمره فجأة فتنقذف البزور من داخلها الى مسافات بعيدة وقد يكون انفصال المصاريع مصطحبا بفرقعة شديدة تسمع من بعد كما يسمع انفجار البارود . ومن النباتات مايأكل لحوم الحيوانات وهو متمتع بالاعضاء التي تؤهله لهذه العملية على أحسن نظام وترتيب وذلك أن أوراقه منقسمة الى قسمين قسم مفرطح والقسم الذى يليه منقسم الى قسمين يمكن أن ينطبقا عند اللزوم وحافات هذين القسمين الاخيرين محلاة بهدبات بحيث انهما اذا انطبقا تعشقت هذه الهدبات في بعضها وكونت لقفص شبيه بالمصيدة ويوجد داخل هذه المصيدة ثلاثة خيوط متى لامسها حيوان انطبقت عليه المصيدة في الحال فتمنعه من الخروج فاذا تم لها هذا الصيد تفرز الغدد الموجودة في المصيدة سائلا فيه

حوامض بها تذيب جسم الحيوان أى تهضمه وتمتص مايوافقهامن أجزاء الحيوان وتترك مالا يوافقها منه ولبعض أنواع هذه النباتات خاصية غريبة وهو أنه يصطاد الحيوانات بطريقة فنية وذلك أنه يفرز لها مادة مخصوصة يحصل بها التأثير على أنوف الحيوانات التي تنفع لغذائه تأثيرا مقبولا فتطلب تلك الرائحة ولما تصل اليها وتلامس داخل المصيدة تنطبق عليها أجزاؤها فيكون عقاب عدم تبصرها وقوعها فى شرك ذلك النبات الذى يذيب جسمها ويمتصه ليقيم أود حياته وقال صاحب الرسالة الحميدية وبينما نقول انه لا يتغذي الا بأجزاء الارض والماء والهواء نرى منه النباتات المفترسة وهى التي تنبت فى غيرها من النباتات وتتغذى بعصارتها كما يعيش بعض الحيوان على بعضه ومنها ما احتوت أوراقه على عصار يغري الذباب أن يسقط عليها فاذا سقط على ورقة منها أحست به وانطبقت عليه ولا تتركه حتى تمتص رطوبته ثم تتركه ميتاً لم يبق منه سوي القشر فهذا نبات يتغذي بحيوان أخذا بثار العالم النباتي الذي يتغذي به العالم الحيوانى وبينما نري أن النبات لا بد أن تعلق جذوره اما فى الارض واما في بنية غيره من النباتات التى يفترسها نري النباتات الهوائية وهي أعشاب لا أصول لها في التربة تتعلق على غيرها وتتناول غذاءها من الهواء ومن عجيب أمرها أن زهرها قد يشاكل الفراش والنحل وغيرها من أنواع الذباب واذا حركها الهواء يظنها الرائي فراشاً يحوم علي الاشجار أو نحلا يسعي فى جنى العسل من الازهار ومن أزهارها مايشاكل الرتيلاء ومنها ما يشاكل الانسان الي غير ذلك من الصور المختلفة قال ومما نظرته بعيني وان كان ليس من النباتات الهوائية بل ينبت من بصيلات فى الارض نبات يحمل زهرة هى صورة طير أصفر برأس وعينين ومنقار وعنق وصدر وجناحين منتشرين بعض الانتشار منتصب القامة كما ينتصب الديك

وعند أسفل بطنه صورة نحلة بلون سنجابي واضحة فمها ببطنه كأنها تمتص منه شيأ وهي ذات رأس وعينين وظهر منقوش وجناحين ممتدين من أصل فخذي الطير فهما مشتركان بين أن يكونا فخذين له وجناحين لها وكل تلك الاعضاء التي فيها واضحة بينه لأنها تقارب الاعضاء مجرد مقاربة منظر يستوقف الطرف ويشهد بوحدانية خالقه وقدرته واحكامه وتوجد هذه الزهرة في برية بيروت في محل يقال له ظهو ر الاشرفية ويسميها بعض أهل تلك الجوار بزهرة الطير وبعضهم بزهرة النحلة قال وقد وجدت بعضكم (يعني بعض الفلاسفة الماديين) يعلل تكون تلك الازهار على صورة الحيوانات بتعاليل واهية فأطلب منهم تعليل تكون هذه الزهرة بما يقنع العقل ولا أراكم تقدرون على ذلك ولا أري مقنعا للعقل الا احالة تكوينها على صنع القادر المريد الحكيم العليم لا على حركة أجزاء المادة ولا على ناموس التباينات ولا على أمثال ذلك من الامور العمياء الصماء البكماء وبينما نري أن بعض النبات لا يحس بأشد الملامسات ونحكم بأن من جملة الفوارق بينه وبين الحيوان الاحساس في الحيوان دونه اذ نري النباتات الحساسة ومنها السنط الحساس الذي اذا لمس أو حرك أحس وانضمت وريقاته وتشنج سائر أوراقه ومنه النبات المفترس للحيوان الذي تقدم ذكره فانه يحس بوقع الذباب عليه فيمسكه ويمتصه وبينما نرى أن النبات لا يتحرك الا بفاعل خارجي كالهواء والحيوان اذ نري النبات المتحرك بنفسه لغير قاسر ظاهر فهذا النبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها في الهواء مخاريط هندسية فورقته مؤلفة من ثلاث وريقات أكبرها العلياء في الوسط والصغريان تحتها على الجانبين تتحركان مدة حياتهما ليلا ونهارا في الحر والبرد والشمس والظل والصحو والمطر لا تنقطع حركتهما ترتفع الواحدة منها وتنخفض الاخري على التوالى بحركة

مستديرة

مستديرة ومنه مالا تحرك ورقته الوسطى الا صباحا ومساءً بخلاف
الجانبتين فان احداهما ترتفع والاخري تنخفض طول النهار قال وقلتم انهم
وجدوا على جانب نهر الكنج في الهند نبتاً تحرك وريقاته كذلك ستين حركة
فى الدقيقة فهو ساعة حية نامية لاتقف ولا تكلف صاحبها شيأً من النفقة
ومشركوا الهند يقدسون هذا النبات وينسبون اليه قوّة الهية وماهو الآشاهد
على انفراد خالقه بالربوبية ومنه ما يحرك زهره مع حركة الشمس فى قبة الفلك
وهو كثير فى بلادنا ويسمونه بالملك وبعابد الشمس لان زهرته المستديرة
المؤلفة من دوائر بديعة الاصباغ محكمة الصنع محاطة بأهداب كخيوط الحرير
وفى وسط نوع منه شيء كعقرب الساعة تستقبل تلك الزهرة الشمس في أول
شروقها ولا تزال تحرك لاستقبالها كلما ارتفعت الشمس لقبة الفلك حتي تبلغ
الهاجرة فتكون تلك الزهرة حينئذ سطحية الوضع ثم كلما مالت الشمس الي
المغرب مالت معها حتي تقاربها فى المغيب فسبحان المبدع الخبير ثم في تباينات
النبات مايحير الافكار ويشهد بأن مبدعه فاعل مختار لا يحكم عليه ناموس ولا تدخل
قدرته تحت تحديد ينبيء عن الاضطرار وعدم الاختيار وذلك أنا نري منه ما
يبلغ من الكبر والارتفاع مبلغا يفوق الحد كما فى أرز لبنان وأم الاجمة التى
توجد في أمريكا طولها ثلاثمائة قدم وأربعمائة قدم وقطر بعضها عند الارض
ثلاثة عشر قدما وسمك قشرها ثمانية عشر قيراطا ومن أشجارها ما جوف
ساقها وطرحت فكان الفارس يدخل جوفها منتصبا على صهوة حصانه فلا
يمسها وبعض الاشجار فى اسكتلندا بلغ محيطها تسعين قدما وحسب عمرها
بمقابلتها بأصغر أشجار نوعها فكان خمسة آلاف سنة وفي كاليفورنيا شجرة
صنوبر طولها ثلاثمائة قدم ومحيطها ثلاثون قدما وعمرها ستة آلاف سنة وأغرب
من ذلك كله شجرة عندم فى احدي جزائر كناريا فى الاقيانوس الاتلنتيك لا

يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله وقد مر على اكتشاف تلك الجزيرة ما يقرب من أربعمائة سنة ولم يتغير منظر تلك الشجرة فان نمو هذا النبت بطيء كما يشاهد من نمو صغاره فكم مر عليها من القرون قال بعضهم اني أقول انها كانت تنمو منذ قرون كثيرة قبل خلق الانسان ونري من النبات ما هو على غاية الصغر قد أظهره المكرسكوب وذلك كالطحلب الذي يعلو وجه الماء والعفونة التي تلتصق بالجدران وغيرها فكل ذلك يظهر تحت المكرسكوب كانه بستان أو مرج أو غابة كثيفة تحمل مع صغرها ودناءتها زهرا وبزرا ينتشر مع الهواء من جملة الهباء ويقع على الجدران وغيرها فاذا شاء الله ووافقته الاحوال استفرخ ونما وأزهر وبزر والعين المجردة لا تراه الا كالغبار الاخضر ونري من النبات ما يتقابل فيه الاضداد ففي اختلاف أشكاله وأشكال أوراقه وازهاره وأثماره وبزوره وروائحه وطعومه وألوانه ومنافعه ومضاره ما يفوق الاحصاء فمنه الشجر والنجم والعشب والصيفي والشتوي والربيعي والخريفي والسهلي والجبلي والمكتفي بماء المطر والمحتاج الي سواه والمختص باقليم والذي يعيش بكل الاقاليم ومن أوراقه المستدير والمستطيل والمسنن والعريض والرفيع ومع اشتراكها في لون الخضرة فخضرتها مختلفة لا تجد خضرة نوع تشبه خضرة نوع آخر وأزهاره اكثر اختلافا وأوفر تباينا في الاشكال والالوان فمنها المستدير والمستطيل والمفرد والمضاعف وأشكال شتي لا تحصى ومنها الابيض والاحمر والاصفر والازرق والاخضر والمنقش بأبدع النقوش والمجتمع فيه الضدان والاضداد من الالوان وروائحه من أبدع الخواص فمنها المستطابة التي تنعش القلوب والمستكرهة التي تميت النفوس ويكفي بالتنبيه على اختلافها انا لا نجد رائحة زهرة من نوع تشبه رائحة زهرة من نوع آخر تمام الشبه واختلاف

أثماره

أثماره بأشكالها وألوانها وروائحها وطعومها وأقدارها مما يتيه العقل في تيهائه فمنها الكبير والصغير والعريض والطويل والمستدير والكروى والمحدب والمسنن وغير ذلك ومنها الاحمر والاصفر والابيض والاسود والازرق والمنتقش وغير ذلك ومنها ذو الرائحة التي لم توجد فى زهره ولا ورقه من كل رائحة زكية.وأخري على الانوف بلية.ومنها الحلو والحامض والمز والمر ونحو ذلك من الطعوم التى لاتستقصي ومن غريب أمر الاثمار انك تري قشرها بطعم ولون ورائحة لاتوجد في االب وفى اللب من ذلك مالا يوجد في البزر وفى البزر من ذلك مالا يوجد في كامل اجزاء الشجرة ومن الاثمار مايحتوي على البزور المختلفة الاشكال والروائح والطعوم والالوان ومنها ما يخلو عن البزور ومنها ماهو مغلف بغلاف أو أكثر ومنها ماليس كذلك ومنها صغير وأصله شجر كبير كالجميز ومنها ماهو كبير وأصله من الاعشاب كالبطيخ ومن النبات مايعطي ثمرته بشهر أو أقل ومنه مالا يعطي ثمرته الا بعد سنين ومنه ماينتفع بعروقه أو أصوله أو ورقه أو زهره أو ثمره أو بزره أو قشره أو عصارته وماينتفع منه بشيئين أو أكثر من ذلك وما ينتفع بجميع ذلك ومنه ما أصله نافع وثمره ضار أو ورقه أو زهره ومنه بالعكس فيجتمع في النبات الواحد الداء والدواء وبالاختصار نرى الشجرة الواحدة قد تتخالف خواص عروقها وساقها وقشرها وورقها وزهرها وثمرها وبزورها فلا تجد خاصة من تلك الخواص تنطبق تماما على خاصة أخرى منه وكل أنواع النبات تسقي بماء واحد وقد تتغذي بتربة واحدة وتمتص مايلزمها من هواء واحد وأعضاؤها انما هي قسمان اعضاء النمو وهي الجزور والسوق والورق وأعضاء التناسل وهي الزهر والثمر والبزر ثم انه من هذه الاعضاء البسيطة القليلة العدد تتالف الالوف من النباتات البالغة بحسب ما وصل اليه احصاء النباتيين ماينوف عن ثمانين الف نوع وهي

التي تكسو جبالنا وتلولنا وأوديتنا وحدائقنا خضرة وتزينها بأزهارها وتملأ مخازننا فواكه وحبوبا وتلبس أجسادنا وتعمر بيوتنا وسفننا وتعالج أمراضنا وتشعل نيراننا وتحفظ أمتعتنا وتفعل وتفعل الي ما يكبو في مضمار احصائه القلم ويرمى اللسان بالبكم. أكل تلك الصور وجميع تلك الاطوار وترتب تلك المنافع وظهور هاتيك الاسرار مع اتحاد أصل المادة واتفاق جميع الاسباب الجوهرية يكون مصدرها حركة أجزاء المادة مع الضرورة العمياء أو الصدفة الصماء أو النواميس التى لا تعلم ولا تشاء أم ذلك كله من ابداع مبدع قادر. وحكيم قاهر. وعليم يعلم بما صار وبما هو صائر. نعم ان جميع تلك الغرائب وعموم هاتيك العجائب ترفع أعلام الشهادة بأن للعالم الها عليما وصانعا حكيما يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ثم ان النبات وان كان كل نوع منه نعمة أنعم بها الخالق سبحانه على خلقه ولكن بعضه تعظم فيه النعمة وتسمو فيه المنة وان يكن كل فرد منه غريباً ولكن قد يكون بعضه أعرق فى الغرابة فلنذكر من ذلك طرفاً بالتفصيل فنقول * من النعم المستغربة فى عالم النبات شجرة الخبز فى جزائر الباسفيك تحمل ثمرات كروية قطر أصغرها أربعة قراريط وقطر أكبرها سبعة وثقلها أربعمائة وعشرون درهما وهى تجنى مدة ثمانية أشهر متوالية من كل سنة وهى خبز لاهل تلك الجزائر يقتاتون به كما يقتات بالخبز الصناعى وهو جل طعامهم أعده لهم البارى تعالى من دون عناء مانكابده فى تدبير خبزنا وفي هذه الشجرة منافع أخرى فوائدهم من أخشابها وثيابهم من قشورها وقواريرهم من سوقها ومن ذلك شجرة الحليب وهي شجرة يوجد منها فى الهند ما يسمى هيا هيا يخرق ساقها فيخرج منه حليب جيد أخثر من حليب البقر وفى برازيل شجرة منها تسمى ما ساردوبا تزهر فى شباط وتثمر ثمراً طعمه كشراب الليمون ويستخرج من ساقها لبن أبيض شهي

أخر من حليب الماشية يتغذى منه السكان ويتخذونه جل قوام حياتهم ومن ذلك شجرة القشدة وهي شجرة هندية وإفريقية تحمل ثمراً كالبيض كالقشدة قواما وطعماً يبقى شهوراً في البلاد الحارة في الآنية ولا يتغير منه لونه ولا طعمه ومن ذلك شجرة النارجيل أي الجوز الهندي فان منافعها قل ان تحويها شجرة فقد قيل انه يتخذ من جوزها قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب وتطبخ أوراقها كالخضر ويتخذ من عصارة أزهارها سكر ومن أخشابها وقشر جوزها أوان وصحون وجفان وتشاد من أخشابها أيضا البيوت وتنسج من أوراقها حصر ومظالل ويتخذ من خيوط أليافها ثياب ومناخل وقلوع وحبال ومن دهن جوزها زيت ومن نشارة أخشابها حبر للكتابة ومن أوراقها قراطيس للكتابة أيضاً وشجرة النخل لا تقصر كثيراً عنها في وفرة المنافع فتري ثمرها يؤكل زهرا وبسراً ومذنباً ورطباً وتمراً وهو فاكهة وقوت وذخيرة وينتفع بأخشابها وجريدها وعراجينها وأليافها حتى بنواها فيطحن ويجعل قوتا للجمال فسبحان المنعم المتفضل على عباده بغرائب نعمه وعجائب منته القادر على تنويع الانواع وتطوير الاطوار وخاتمة الكلام في عالم النبات ان أحق الناس بالاستدلال بشؤن النبات علي وجود الصانع القادر العليم الحكيم هم العلماء النباتيون الذين ملؤا المجلدات فى شرح أحواله وشؤنه فتراهم قد خاضوا في البحث عن كيفية استفراخه ونموه والتغيرات التى تطرأ عليه من أول زرعه الي أن يبلغ غايته وعن كيفية تناسله وتلقيحه جنينه بمادة اللقاح التي هي كمنى الحيوان وعن تشريح أبنية جذوره وسوقه وأغصانه وأوراقه وبراعمه وأزهارها وأثماره وبزوره وعن أعضاء كل منها ونظامات قيامها فيه وخواصها ووظائفها ومنافعها وتقلباتها وعن مدد حياته واختلاف أنواعها وعن انقسامه الي صفوف وعيال وأسباط وأجناس وأنواع وتباينات وأفراد

الي غير ذلك مما يحير العقول ويدل على عظمة قدرة خالقه وحكمة مصوره جل وعلا فتبارك الله رب العالمين فهؤلاء العلماء يكاد العقل لا يصدق بوجود طبيعيين منهم منكرين للخالق سبحانه كيف وقد اطلعوا على تفاصيل هذا العالم ودقائق صنعه المحتاجة الي صانع قادر ومدبر حكيم عليم

﴿ المطلب الثاني فى كيفية التفكر فى النبات ﴾
« على مقتضي ما تدل عليه الآيات »
(القرآنية)

قال تعالي فى سورة البقرة (وما أنزل الله من السماء من ماء) عطف على مافى الآية قبله والمعنى ان آيات لقوم يعقلون حاصلة في ماأنزل الله من السماء من مطر (فأحيي به الارض) بأنواع النبات والازهار وما عليها من الاشجار (بعد موتها) أي يبسها وذهاب زروعها وتناثر أوراقها قال الامام فخر الدين اعلم أن هذه الحياة من جهات (أحدها) ظهور النبات الذى هو الكلأ والعشب وما شاكلها مما لولاه لما عاشت دواب الارض (وثانيها) انه لولاه لما حصلت الاقوات للعباد (وثالثها) انه تعالي ينبت كل شيء بقدر الحاجة لانه تعالي ضمن أرزاق الحيوانات بقوله وما من دابة فى الارض الآ على الله رزقها (ورابعها)انه يوجد فيه من الالوان والطعوم والروائح وما يصلح للملابس لان ذلك مما لا يقدر عليه الا الله (وخامسها) انه يحصل للارض بسبب النبات حسن ونضرة ورواء ورونق فذلك هو الحياة . واعلم أن وصفه تعالي ذلك بالاحياء بعد الموت مجاز لان الحياة لا تصح الا على من يدرك ويصح أن يعلم وكذلك الموت الا أن الجسم اذا صار حيا حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء والنشو والنماء فأطلق لفظ الحياة على حصول

هذه الاشياء وهذا من فصيح الكلام الذي على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة (واعلم) ان احياء الارض بعد موتها يدل على الصانع من وجوه (أحدها) نفس الزرع لان ذلك ليس في مقدور أحد على الحد الذي يخرج عليه (وثانيها) اختلاف ألوانها على وجه لا يكاد يحدو يحصى (وثالثها) اختلاف طعوم ما يظهر على الزرع والشجر (ورابعها) استمرار العادات بظهور ذلك فى أوقاتها المخصوصة * وقال تعالى فى سورة الانعام (ان الله فالق الحب والنوي) شروع في تقرير بعض أفاعيله تعالي الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته والفلق الشق بابانة أى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر فيشق الحبة اليابسة فيخرج منها ورقا أخضر ويشق النواة اليابسة فيخرج منها شجرة صاعدة في الهواء وقيل المراد به الشق الذى فى الحبوب و النوى أي خالقهما كذلك وقيل الفلق بمعني الخلق قال الواحدي ذهبوا بفالق مذهب فاطر وقال الامام فخر الدين الفطر هو الشق وكذلك الفلق فالشيء قبل أن دخل في الوجود كان معدوما محضا ونفيا صرفا والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انفلاق ولا انشقاق فاذا أخرجه المبدع الموجد من العدم الى الوجود فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمحدث والمبدع (يخرج الحى من الميت) أي يخرج ماينمو من الحيوان والنبات مما لاينمو من النطفة والحب (ومخرج الميت) كالنطفة والحب (من الحي) كالحيوان والنبات قال الزجاج يخرج النبات الغض الطري الخضر من الحب اليابس ويخرج اليابس من النبات الحى النامي قال الامام فخر الدين والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية أما حصول الضد

من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لابد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم والمدبر العليم (ذلكم) القادر العظيم الشان هو (الله) المدبر الخالق المستحق للعبادة وحده (فانى تؤفكون) فكيف تصرفون عن عبادته تعالى *وقال تعالى في سورة الانعام أيضا (وهو الذي أنزل من السماء ماء) تذكير لنعمة من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أي أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خالصا هو المطر (فاخرجنا به) التفت الى التكلم اظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لاجله أي فاخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته (نبات كل شي) من الاشياء التي من شأنها النمو من أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة فى الكم والكيف والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان (فاخرجنا منه خضرا) شروع في تفصيل ما أجمل من الاخراج وقد بدىء بتفصيل حال النجم أى فاخرجنا من النبات الذي لاساق له شيا غضا أخضر يقال شى أخضر وخضر كأعور وعور وأكثر مايستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية وهو ماتشعب من أصل النبات الخارج من الحبة المسمى بالسويق (نخرج منه) صفة لخضرا وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أي نخرج من ذلك الخضر (حبا متراكبا) هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وذلك لان الاصل هو ذلك العود الاخضر وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات متراكبة بعضها فوق بعض ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الابر والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبة المتراكبة قال صاحب الفلسفة الحقة لو فحصنا بزرة من القمح فحصا علميا نجد أنها مكونة من مواد أزوتية أعنى مواد مركبة من أوكسجين وأيدروجين وكربون وأزوت ومواد

أيدروكربونية أي مواد مكونة من أوكسجين وأيدروجة وكربون بدون وجود الازوت ثم يوجد مع هـذه المواد خلية صغيرة تسمي الجنين وهى الخلية التى تستحيل بسبب الحياة التي أودعها الخالق تعالي في النبات الي نبات شبيه بالتي خرجت منه فلو وضعنا هذه البزرة فى أرض رطبة متمتعة بالاشياء التى جعلها الله تعالى شروطا عادية للانبات وهي الماء والحرارة الشمسية والهواء نجد بعد مدة يسيرة أنها برزت من الارض على هيئة شجيرة صغيرة ذات ساق وورقتين فى قمته فتستمر على النمو الي أن تلحق أعظم شأوها فتنبت لنا سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ولو زرعت تلك الحبات كلها لانتجت لنا ملايين من الحبوب المشابهة لها أيضا حتى أننا لواستمررنا على زرع كلما ينتج لأمكننا أن نملأ مخازن الدنيا كلها حبوبا. ذلك كله من حبة واحدة . لاشك أن من يري هذه الغرابة لابد أن تتوق نفسه الى النظر والتفكر فى صنع البارى تعالى لنمو البزرة واستحالتها الي شجرة فنقول يوجد داخل البزرة خميرة مخصوصة يسمونها الديستاز وهذا الديستاز قد جعله البارى تعالي سببا لاحالة المواد الايدروكربونية الي مادة سكرية قابلة للذوبان في الماء تسمي الجليكوز وحكمة هذه الاستحالة عجيبة فان تغذية النباتات لاتحصل الا بتشرب خلاياها للسوائل المغذية بطريقة الاسموز التي تكلمنا عليها عند النظر فى الانسان فلو لم تستحل المواد الايدروكربونية الي جليكوز لما أمكن الجنين تشرب الغذاء لان هـذه المواد غير قابلة للذوبان فوجد الديستاز ليحصل به فعل كيماوى مهم به تستحيل تلك المواد الي جليكوز قابل للذوبان (فتأمل) وفى الوقت الذي يحصل فيه تشرب الخلية الجنينية للسائل المغذي

يكبر حجمه فتنقسم تلك الخلية الى خليتين فتظل الخلايا الجديدة تكبر وتنقسم الي أن تكون السويق أي الساق الصغير الذى يبرز بعد وضع البزرة بمدة يسيرة وفى الوقت ذاته يتكون جذير أى جذر صغير يتجه الي مركز الارض ومن الغريب أن الخلايا لما تنقسم وتتكاثر لاتكون أوراقا ولا تكون خيوطا ولا ولا بل تكون ذلك السويق المعهود لكل شجيرة قمح وهولا يتجه الى أسفل ولا الي احدى الجوانب بل يظهر خارج الارض كان في داخل الارض مهندسا ماهرا فوق العادة يأمر الخلايا أن هذه تبقي في هذا الموضع والاخري في ذلك على حسب الدقة والهندسة التي نري بها ذلك السويق فسبحانك اللهم لااله الا أنت لك المثل الاعلى في السموات والارض وأنت الصانع المختار الحكيم قال الامام حجة الاسلام اذا وجدت حبة أو حبات من البر فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا فما أحوجك الى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك ولا يكون ذلك الا بالغذاء كما تغتذي أنت فان النبات انما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لانه يغتذي بالماء بواسطة العروق كما تغتذي أنت ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات ولكن نشير الى غذائه فنقول كما أن الخشب والتراب لايغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج الي شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا هواء ومجرد الهواء لايصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم تزد ولو تركتها فى ارض لاماء فيها لم تزد بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ثم لا يكفي الماء والتراب اذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الي تركها في أرض رخوة

متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ثم الهواء لايتحرك اليها بنفسه فيحتاج الي ريح تحرك
الهواء وتضرب به بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله
تعالي وأرسلنا الرياح لواقح وانما القاحها في ايقاع الازدواج بين الهواء والماء
والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج الي
حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الى هذه الاربعة فانظر الي ماذا
يحتاج كل واحد فان الله تعالي في خلقها عجائب كثيرة لاتحصي وذكر ذلك
هنا مما يطول قال صاحب الفلسفة الحقة وحيث ان البزرة في أثناء نموها تحتاج
الي حرارة شأن كل كائن حى فالبزرة تستمد هذه الحرارة من المواد
الايدروكربونية الموجودة فيها بطريقة لطيفة وهى. نحن علمنا ان اتحاد اى عنصر
من العناصر بأوكسجين الهواء يحدث احتراقا ومن المعلوم ان اوكسجين الهواء
لابد ان يكون دائرا فى خلال الارض المحروثة فيتحد هناك بالمواد الايدروكربونية
فينتشر بسبب هذا الاتحاد حرارة تكفي لانعاش الجنين وجعله صالحا للحياة
وعند ماتنفد المواد الازوتية التي تغذى النبات والمواد الايدروكربونية التى
يتسبب عنها وجود الحرارة يكون قد نما له عضوان آخران يقومان له بوظيفتي
التغذية والحرارة وهما السويق والجذير أما السويق فيكون حاملا لو رقتين منبثا
فى خلاياه وخلاياها مادة خضراء تسمي الكلوروفلا واليها الاشارة بقوله تعالي
فاخرجنا منه خضرا وقد أوجد تعالي تلك المادة لتكون سببا فى تحليل حمض
الكربون الموجود فى الهواء (بعد أن تمتصه الاوراق من الهواء والجذير
من الارض) الى أوكسجين وكربون فتأخذ الثانى وتترك الاول وقد جعل
تعالي ضوء الشمس سببا مساعدا على ذلك وهذا التحليل هو سبب عدم فناء
أوكسجين الهواء من سطح الكرة لان النبات ياخذ حمض الكربون الذي
أخرجه الأنسان من فمه بالزفير فيأخذ كربونه وينشر الاوكسجين فى الهواء

ولما ياخذ النبات الكربون ويدخله الى خلاياه يتحد فيها مع الاوكسجين والايدروجين فيكون تعالى من ذلك مواد أيدروكربونية وقد علمت أن هذه سبب وجود الحرارة عند النبات * أما الجذير فهو عبارة عن قناة ذات ميزاب ضيق تمتص الماء المذيب للمواد المعدنية التى تصلح لتغذية النبات وقد علمت عند النظر فى الانسان ماالامتصاص بواسطة الاسموزفلا لزوم لاعادته هنا (ومن النخل من طلعها قنوان) شروع في تفصيل حال الشجر اثر بيان حال النجم وقوله تعالي ومن النخل خبر مقدم وقوله من طلعها بدل منه باعادة العامل والطلع أول شيء يخرج من النخل كانه نعلان مطبقان والحمل بينها منضود وقوله تعالى قنوان مبتدا مؤخر أى وحاصلة من طلع النخل قنوان جمع قنو وهو عنقود النخلة المسمى بالعرجون (دانية) ماثلة متقاربة أوسهلة المجتنى قريبة من القاطف فان النخلة وان كانت صغيرة ينالها القاعد نأتي بالثمر لاينتظر الطول واذا طالت فقد أوجد تعالى من الخشونات والتضريسات فى جذوعها مايسهل به اجتناء ثمرها ولولا هذه الخشونات والتضريسات لكان اجتناء ثمر النخل في غاية البعد فقوله تعالى دانية للتنبيه على تلك الحكمة وقال الزجاج ولم يقل ومنها قنوان بعيدة لان ذكر احد القسمين يدل على الثانى وقيل أيضا ذكر الدانية القريبة وترك البعيدة لان النعمة فى القريبة أكمل وأكثر (وجنات من أعناب) عطف على نبات كل شيء اى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب (والزيتون والرمان) منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أوعلى العطف على نبات (مشتبها وغير متشابه) حال من الزيتون اكتفى به عن حال ما عطف عليه وتقديره والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف حال الاول والمعني بعضه متشابها وبعضه غير متشابه فى الهيئة

والمقدار

والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الاوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها قال الامام فخر الدين اعلم أنه تعالي ذكر ههنا أربعة أنواع من الاشجار النخل والعنب والزيتون والرمان وانما قدم الزرع على الشجر لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفاكهة وانما قدم النخل على سائر الفواكه لان التمر يجري مجري الغذاء بالنسبة الي العرب ولان الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة في خواص كثيرة بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات وفيه من المنافع والخواص ماليس فى غيره من الاشجار وانما ذكر العنب عقيب النخل لان العنب من أشرف أنواع الفواكه وذلك لانه من أول مايظهر يصير منتفعا به الي آخر الحال فاول ما يظهر على الشجر يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم لذيذة المطعم وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه ثم بعده يظهر الحصرم وهو طعام شريف للاصحاء والمرضى وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق نافعة لاصحاب الصفراء وقد يتخذ الطبيخ منه فكانه الذ الطبائخ الحامضة ثم اذا تم العنب فهو الذ الفواكه وأشهاها ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر وهو فى الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ثم يبقي منه أنواع من المتناولات الزبيب والدبس والخل ومنافع هذه الانواع لايمكن ذكرها الا في المجلدات فاخس ما في العنب عجمه والاطباء يتخذون منه جوارشنات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة فثبت أن العنب كانه سلطان الفواكه وأما الزيتون فهو أيضا كثير النفع لانه يمكن تناوله كما هو وينفصل أيضا عنه دهن كثير عظيم النفع في الاكل وفى سائر وجوه الاستعمال وأما الرمان فحاله عجيب جدا وذلك لانه جسم مركب من أربعة أقسام قشره وشحمه وعجمه وماؤه أما الاقسام الثلاثة الاول وهى القشر والشحم والعجم فكلها باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية فى هذه

الصفات وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات فانه ألذ الاشربة والطفها وأقربها الي الاعتدال وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة وفيه تقوية للمزاج الضعيف وهو غذاء من وجه ودواء من وجه فاذاتأملت فى الرمان وجدت الاقسام الثلاثة موصوفة بالكثافة التامة الارضية ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان موصوفا باللطافة والاعتدال فكانه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الاقسام الاربعة التى هى أشرف أنواع النبات واكتفى بذكرها تنبيها على البواقي ولماذكرها قال تعالى مشتبها وغير متشابه وفي تفسير مشتبها وجوه * الاول أن هذه الفواكه قد تكون متشابهة فى اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة فى الطعم واللذة وقد تكون مختلفة فى اللون والشكل مع أنها تكون متشابهة فى الطعم واللذة فان الاعناب والرمان قد تكون متشابهة فى الصورة واللون والشكل ثم انها تكون مختلفة في الحلاوة والحموضة وبالعكس *الثانى أن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والعجم متشابها في الطعم والخاصية وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فانه يكون مختلفا فى الطعم *والثالث قال قتادة أوراق الاشجار تكون قريبة من التشابه أما ثمارها فتكون مختلفة ومنهم من يقول الاشجار متشابهة والثمار مختلفة * والرابع أنك قد تأخذ العنقود من العنب فترى جميع حباته مدركة نضيجة حلوة طيبة الاحبات مخصوصة منها بقيت على اول حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة وعلى هذا التقدير فبعض حبات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابه (انظروا الي ثمره اذا أثمر) أي انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لا يكاد ينتفع به (وينعه) أي والى حال نضجه كيف يصير الى كماله اللائق به ويكون شيأ لذيذا جامعا لمنافع جمة وقال

في الخازن المعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالي هذه الثمرة
الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وقال الامام فخر الدين قوله
انظروا الي ثمره اذا أثمر أمر بالنظر في حال الثمر في أول حدوثها وقوله وينعه
أمر بالنظر فى حالها عند تمامها وكمالها وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التى
هي تمام المقصود من هذه الآية ذلك لان هذه الثمار والازهار تتولد فى أول
حدوثها على صفات مخصوصة وعند تمامها وكمالها لاتبقي على حالاتها الاولي بل
تنتقل الي أحوال مضادة للاحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون
الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أوبلون الحمرة وكانت موصوفة بالحموضة
فتصير موصوفة بالحلاوة وربما كانت في أول الامر باردة بحسب الطبع
فتصير فى آخر الامر حارة بحسب الطبع فحصول هذه التبدلات
والتغيرات لابد له من سبب وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول
والأنجم والافلاك لان نسبة هذه الاحوال بأسرها الى جميع هذه الاجسام
المتباينة متساوية متشابهة والنسب المتشابهة لايمكن أن تكون أسبابا
لحدوث الحوادث المختلفة ولما بطل اسناد هذه الحوادث الي الطبائع
والانجم والافلاك وجب اسنادها الى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر
لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة ولما نبه الله سبحانه على
مافى هذا الوجه اللطيف من الدلالة قال (ان في ذلكم) أشارة الى ما أمر
بالنظر اليه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار
اليه وبعد منزلته (لآيات لقوم يؤمنون) أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة
على وجود القادر الحكيم فان حدوث هاتيك الاجناس المختلفة والانواع
المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال الى حال على نمط بديع يحار فى
فهمه الالباب لايمكن أن يكون الا باحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح

ماتقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه.أو ند يقاويه*وقال تعالى في سورة الانعام أيضا (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) يعنى وهو الذي ابتدع وخلق بساتين ذات اشجار مرفوعات على مايحملها (وغير معروشات) أي غير مرفوعات وفى المراد بالمعروشات وغير المعروشات وجوه . الاول أنهما الكرم فان بعض الاعناب يعرش وبعضها لايعرش بل يبقى على وجه الارض منبسطا . والثاني المعروشات العنب الذى يجعل لها عروش وغير المعروشات كل ماينبت منبسطا على وجه الارض مثل القرع والبطيخ . والثالث المعروشات مايحتاج الى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه وهو الكرم وما يجري مجراه وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغنى باستوائه وذهابه علوا لقوة ساقه عن التعريش . والرابع المعروشات مايحصل فى البساتين والعمرانات مما يغرسه الناس واهتموا به فعرشوه وغير معروشات مما انبته الله تعالي وحشيا فى البراري والجبال فهو غير معروش (والنخل والزرع) عطف علي جنات اى انشاهما (مختلفا أكله) اي ثمره الذي يؤكل فى الهيئة والكيفية والطعم والضمير اما للنخل والزرع داخل فى حكمه أو للزرع والباقي مقيس عليه أو للجميع علي تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة اذ ليس كذلك وقت الانشاء (والزيتون والرمان) أى انشأهما (متشابها وغير متشابه) نصب على الحالية أي يتشابه بعض افرادهما فى اللون والهيئة والطعم ولا يتشابه بعضها مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل ان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم*وقال تعالى فى سورة الرعد (ومن كل الثمرات جعل فيها) أي فى الارض (زوجين اثنين) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر واكد به الزوجين لئلا يفهم ان المرد بذلك

الشفعان

الشفعان اذ يطلق الزوج علي المجموع ولكن أثنينية ذلك أثنينية اعتبارية
أي جعل من كل نوع من انواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين
اما في اللون كالابيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر
كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك وذكر صاحب
صفوة الاعتبار أن المشار اليه في الآية الاعتبار بما فى الارض من الثمرات
وانها كلها مثل الحيوان ذكر وانثي قال وهذا التفسير البين المحمولة فيه الآية
على حقيقة اللفظ من قوله تعالي ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين أثنين
انما اطلعنا عليه من ترقى العلوم الطبيعية والفلاحية فقد تبين بالتجربة
والمشاهدة وقرره جميع فلاسفة المتأخرين فى كتبهم أن جميع أنواع الثمرات بل
حتى الزهور أيضا تشتمل على ذكر وأنثي واذا أفرد أحدهما عن الآخر لا تتولد الثمرة
غير أن بعض الانواع تكون فيه الشجرة الواحدة مشتملة على البزر الذكر وعلى
البزر الانثى وتتلاقح مع بعضها بالريح وهو المشار اليه بقوله تعالى وأرسلنا الرياح
لواقح وبعض الانواع تكون فيه شجرة الذكر مفردة عن شجرة الانثى
وهذا النوع الاخير كان معلوما منه سابقا بعض أفراد كالنخل والتين لكن
الآن قد تحقق أن جميع الانواع لا تثمر الا بالتلاقح بين الذكر والانثي حتى
اذا تتبع قطع أحد الصنفين من شجرة تشتملهما وأبقي نور الآخر بحاله ولم
يكن فى ذلك الموضع شجرة أخرى مثلها فان مابقي فيها من النور لا يثمر
وقد حرر ذلك وعلمت علامات الذكر وعلامات الانثي فى كل نوع بحسبه
فسبحان القادر الحكيم الذى ارسل محمدا صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا
باوضح المعجزات فقد انبأ بهذا منذ اكثر من ثلاث عشرة مائة سنة عند
مالم يكن هناك حكيم يختلج هذا بفكره فضلا عن الامة الامية وهو أحدها
لايقرأ ولا يكتب فلا شك أن هذا انما هو بوحى من الخالق الذي يعلم

ماخلق سبحانه وتعالي ولدقة هـذا الامر وغرابتـه قد اعترف مصنفو اهل هـذا العصر بان الحكمة قد فازت بها الامة العربيـة منـذ بعث فيها رسولها واستندوا لما اشتمل عليـه القرآن من بديع الحكم فان معرفة كـون الريح تلقح الاشـجار لم تعـلم عنـد الحكماء الا في آخر هـذا القرن والقرآن الكريم ناطق بها ولهـذا قال مستراجنيري الانكليزي ان أصحاب الابل قد عرفوا أن الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرونا أقول وكذلك كون الثمار تشتمل على الزوجين وما ذلك الا بتعليم الخالق لابواسـطات ولاتعليمات ولاتجربات وتحليلات كيماوية اه قال صاحب الفلسفة الحقة لما ينمو النبات تتكون له الازرار التى بعضها يكون الفروع وبعضها يكون الازهار التي تختلف في الشكل والطعم والرائحة * وفى المادة تتكون كل زهرة من غلاف أخضر يسمى الكاس الزهري يوجد داخله أوراق أوورقة مستديرة ذات ألوان بديعة تسمي بالتويج وداخل هذا التويج يوجد خيوط تسمي أعضاء التناسل وهذه الاعضاء تنقسم الي أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث أما عضو التذكير فهو خيط يعلوه جزء منتفخ يحتوي على حبوب دقيقة تسمي حبوب الطلع منها مايري بالعين وما يحتاج للميكروسكوب وهي ذات أشكال متنوعة حيث يري بينها الكروي والبيضاوي والذى على هيئة الاشرطة الخ وسطحها اما أن يكون أملس أو عليه تولدات مخصوصة ذات أشكال غاية فى الجمال وكل حبة من حبوب الطلع حتي التي لا تري الا بالميكروسكوب مكونة من ظرف ومظروف فالظرف عبارة عن طبقتين * أولهما ملساء اذا كان النبات فوق سطح الارض ومزركشة بزيادات ظريفة اذا كان مائيا واذا دقق النظر على سطح حبة الطلع يرى على سطحها بعض نقط رقيقة جدا ورقتها لحكمة بالغة سترى الآن وهذه الطبقة غير مرنة أي غير قابلة للتمدد والطبقة الداخلة

من

من حبة الطلع ملساء وقابلة للتمدد وفيها مادة تسمى فوفلا لزجة سابح فيها كرات صغيرة فى حالة تحرك مستمر (تامل هذه الدقائق !:) فلو وضعت حبة الطلع هذه في الرطوبة تشربت مادتها اللزجة الماء فيزداد حجمها وحيث ان غلافها الداخلي فيه مرونة فيتمدد ولما كان الغلاف الخارجى غير مرن فيضغط الاول عليه ولما لم يجد منفذا للخروج يثقب الغلاف الظاهر من النقط الرقيقة الموجودة فيه فتخرج المادة اللازجة على هيئة خيوط * وأما عضو التأنيث فشكله كشكل عضو التذكير انما له فوهة علوية معدة لاستقبال الطلع من عضو التذكير وهي تفرز على الدوام مادة لزجة ومحمولة على خيط يمر منه الوعاء التناسلي وبلي هذا الخيط شيء يقال له المبيض وهو جزء موضوع فى مركز الزهرة ومتكون من أوراق ذات أشكال وهذا يكون منقسما من الداخل الى مسكن واحد أوجملة مساكن على حسب عدد الاوراق المكونة له ويوجد داخل هذه المساكن جراثيم صغيرة لما تتلاقى مع الطلع يتكون عنها بزر الثمر أما المبيض فانه ينمو حتى يكون ثمرا ولاجل حصول الاخصاب يلزم بحسب المادة تلاقي حبوب الطلع التي في عضو التذكير مع الماده اللزجة التي فى عضو التأنيث * وكيف ذلك وهذان العضوان منفصلان عن بعضهما بل تارة يكون أحدهما في زهرة والثانى فى زهرة أخرى بل قد يكون أحدهما فى شجرة والثانى فى شجرة أخري فلو فرضنا أن الزهرة الواحدة حاوية لكلا هذين العضوين فالعادة أن عضو التذكير يكون أطول من عضو التأنيث وموضوع بطريقة بها يتم التقليح فلما يأتي الوقت المناسب لذلك ينفتح الكيس الحاوى للطلع فينزل الي عضو التأنيث وبامتصاصه للرطوبة الموجودة في هذ العضو ينتفخ فيتمدد كما قلنا غلافه الداخلي ويخرج من الغلاف الخارجي على هيئة أصابع وهذا الذى يسمي بالمعي التناسلي فيمر من وسط خيط عضو التأنيث فينتهي الي المبيض ويلامس جراثيمها وبسبب ذلك يحصل الخصب

هذا فى أبسط الاحوال ولكن ليست هذه كل الحالات الاخصابية فقد تكون عوائق لذلك موجودة وفى وقتها يظهر في الزهرة عمل يقضي بالعجب العجاب لان بعض النباتات تكون أعضاء التذكير فيها فى بعض الاحوال بعيدة عن عضو التأنيث ولو سقط طلعه يسقط على غير هذا الاخير فيضيع سدى ولكن في هذه الحالة ترى عضو التذكير يقرب من عضو التأنيث بطريقة هندسيه بحيث اذا سقط طلعه لايقع الا على عضو التأنيث وبعض النباتات تكون أعضاء تذكيرها مثنية فعند حلول وقت الاخصاب ترى أنها انفردت فجأة لانها ان بقيت على حالتها يذهب طلعها سدى وقد شاهد علماء الفلاسفة أن عضو التذكير يظل يبحث عن عضو التأنيث زمانا حتى يضع نفسه موضعا به يتم الاخصاب فماذا يقول المتدبر الذى يقدر الاشياء قدرها فى هذه الاعمال المدهشة فهل يجرى وراء الاوهام الباطلة ويحكم على ذلك العضو الجماد بانه عاقل زكى مع أن الحس والمشاهدة يكذبان ذلك أو يحكم بأن ذلك تقدير العزيز العليم الذي خلق فسوي والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعي فجعله غثاء أحوى وأغرب مما ذكر أن في أوربا نباتات تنبت في قاع البرك وشأنها أن تكون أعضاء تذكيرها في زهرة وأعضاء تأنيثها فى زهرة أخرى ومن المعلوم أن التقليح لو حصل داخل الماء لايتم فلذلك يشاهد أن أعضاء التأنيث تنتهي بحلزون طويل ملتف على نفسه فلما يجيء وقت الاخصاب ينفرد هذا الحلزون ويرفع الزهرة التي فيها عضو التأنيث الي سطح الماء وفي الوقت عينه تنقطع الزهرة التى فيها عضو التذكير من الشجرة وتصعده بقوة مخصوصة الي سطح الماء بجانب زهرة عضو التأنيث فتنفتح الاجربة التي فيها الطلع فتأتى تيارات هوائية وتحمل الطلع الي أعضاء التأنيث ولما يتم اخصابها بهذه الكيفية يلتف الحلزون كما كان وينزل بالزهرة الي مكانها وهكذا يحصل

فى سائر زهور ذلك النوع ويوجد نوع أغرب من هذاوهو أنه يوجد نبات
فى قاع المياه له أجربة تشبه القرب فتى جاء وقت الاخصاب تنقلب هذه
الاجربة الي عوامات تعلو على سطح الماء ولكنها لاتعلو بمفردها بل تحمل
الزهرة على عاتقها الى سطح الماء فيتم الاخصاب ثم تستحيل العوامات الى
قرب فتميل للنزول الى قاع الماء فتحمل معها الزهرة التي تلقحت * من
ينظر لهذه العجائب يتعجب جدا ولكن من ينظر اليها بعين البصيرة يضطر الي
الاعتراف بالصانع المختار الحكيم لان استحالة القربة الى عوامة ليست بحسب
المادة من الهنات الهينات بل تستلزم تلك الاستحالة جملة نظريات طبيعية
وبالتالى تحتاج الي جملة طرق صناعية وزيادة عن كل ذلك تستوجب قريحة
وروية * وقال تعالي فى سورة الرعد أيضا (وفي الارض قطع) أي بقاع
كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى
رخوة الى غير ذلك (متجاورات) أي متلاصقات (وجنات من أعناب) أي
بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب (ونخيل صنوان
وغير صنوان) الصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو والصنو أن يكون الأصل
واحدا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو (يسقي) أي ما ذكر
من القطع والجنات والزرع والنخيل (بماء واحد) لا اختلاف في طبعه سواء
كان السقي بماء الامطار أو بماء الانهار (ونفضل) بمحض قدرتنا واختيارنا
(بعضها على بعض) آخر منها (فى الأكل) فيما يحصل منها من الثمر الذي
يؤكل أو المهيأ للاكل فترى الثمر متغايرا فى الاشكال والطعوم والروائح متفاضلا
فيها وقد يكون من أصل واحد وذلك يدل دلالة قاطعة على الصانع الحكيم
فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال
الامام فخر الدين ان القطعة الواحدة من الارض تسقي بماء واحد فيكون تأثير

الشمس فيها متساويا ثم ان تلك الثمار تجيء مختلفة فى الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى أنك قد تأخذ عنقودا من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة الاحبة واحدة فانها بقيت حامضة يابسة ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والافلاك للكل على السوية بل نقول ههنا ماهو أعجب منه وهو أنه يوجد فى بعض انواع الورد مايكون احد وجهيه في غاية الحمرة والوجه الثانى فى غاية السواد مع ان ذلك الورد يكون فى غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال وصل تأثير الشمس الي احد طرفيه دون الثانى وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار لابسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل (ان في ذلك) الذى فصل من احوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لايتلعثم في الجزم بأن القادر المختار الحكيم سبحانه وتعالى هو الذى أبدع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة في الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة * وقال تعالي في سورة ابراهيم (الله الذي خلق السموات) وما فيها من الاجرام العلوية (والارض) وما فيها من انواع المخلوقات (وأنزل من السماء ماء فاخرج به) أى بسبب ذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عزوجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها المتخالفة على المواد الممتزجة من الماء والتراب مع توسط الاسباب وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا اسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد كذلك لكن له تعالى فى انشائها مدرجا

من طور الى طور من بدائع حكم باهرة يجدد فيها لاولى الابصار عبرا وسكونا الي عظيم قدرته ماليس في ابداعها دفعة * وقال تعالى في سورة النحل (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) اي ماتشربونه (ومنه شجر) من ابتدائية اي ومنه يحصل شجر ترعاه المواشي والمراد به ما ينبت من الارض سواء كان له ساق اولا أو تبعيضة مجازا لانه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه (فيه تسيمون) ترعون مواشيكم (ينبت) اي الله عز وجل (لكم به) أى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) اعلم ان الغذاء النباتي قسمان حبوب وفواكه أما الحبوب فاليها الاشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فاشرفها الزيتون والنخيل والاعناب أما الزيتون فلانه فاكهة من وجه وادام من وجه آخر لكثرة مافيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الاكل والطلي واشتعال السرج وأما امتياز النخيل والاعناب من سائر الفواكه فظاهر معلوم ولما ذكر الانواع المنتفع بها من النبات قال في صفة البقية ومن كل الثمرات تنبيها على أن تفصيل القول فى أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره فى مجلدات فالاولي الاقتصار فيه على الكلام المجمل (ان فى ذلك) أي فى انزال الماء وانبات ما فصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت متنكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على اجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة

الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الي الكل علم ان من هذه افعاله وآثاره لايمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال * وقال تعالى فى سورة النحل أيضاً (ومن ثمرات النخيل والاعناب) ثمر (تتخذون منه سكراً) خمراً يسكر سميت بالمصدر (ورزقا حسناً) كالتمر والزبيب والخل والدبس (واعلم) أن المقصود من الآية الاستدلال على قدرته تعالي وحكمته حيث انه يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب ما يستحيل بالتغير الى شيء أعجبت به النفوس واستحسنته لما فيه من الطرب وأبانت الشعراء بالتفنن فى أوصافه عن آيات الابداع واذا تغير مرة أخري استحال الي شيء يعد من الرزق الحسن وغيره من الثمرات اذا عصر وترك استحال بالتغيرالى شيء تشمئز منه النفوس وتنفر منه ويجوز أن يكون ذكر الخمر هنا في معرض الانعام فان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمرة فيه غير محرمة على أنه لا حاجة الى التزام هذا النسخ وذلك لانه تعالى ذكر مافى هذه الاشياء من المنافع وخاطب المشركين بها والخمر من أشربتهم فهي منفعة فى حقهم ثم انه تعالي نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها وذلك لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب أن لا يكون السكر رزقا حسنا ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة وهذا انما يكون كذلك اذا كانت محرمة وقيل ان السكر هو النبيذ وقيل هو الطعام (واعلم) أنه تعالي لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر قال (ان فى ذلك لآية) باهرة (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل فان من كان عاقلا علم بالضرورة أن هذه الاحوال لا يقدرعليها الا الله سبحانه وتعالى فيحتج بحصولها علي وجود الاله

القادر

القادر الحكيم * وقال تعالى في سورة المؤمنون (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به) أي بسبب ذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطباً ويابسا (لكم فيها) أى في الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) أي من الجنات (تأكلون) تغذيا أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والاعناب أى لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه (وشجرة) عطف علي جنات أى وأنشأنا لكم شجرة وهى الزيتون وتخصيصها بالذكر من بين سائر الاشجار لاستقلالها بمنافع معروفة (تخرج من طور سيناء) وهو جبل موسي عليه السلام بين مصر وأيلة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضاً لتعظيمها ولان معظمها هناك لانه المنشأ الاصلى لها ومنه تشعبت في البلاد وانتشرت (تنبت بالدّهن) أى تنبت ملتبسة به والدّهن عصارة كل شيء ذى دسم وهو في الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يخلط بالماء الذى هو أصله (وصبغ للآكلين) معطوف على الدّهن جار على اعرابه عطف أحد وصفى الشيء على الآخر أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه اداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به مع أن تولدها في الجبال التي لا يوجد فيها شيء من الدهنية ألبتة * وقال تعالي فى سورة الشعراء (أولم يروا الي الارض) أي الي عجائبها الدالة على قدرته تعالي

وحكمته (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما فى الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده أي كثيراً من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ماعداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معاً ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيأ الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذي خلق لكم مافى الارض جميعاً فان الحكيم لا يكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان فى ذلك) أى فى الانبات المذكور أو في كل واحد من تلك الازواج (لآية) عظيمة دالة علي كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر لمن يتفكر ويتدبر (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي مع كل ذلك يستمر اكثرهم على كفرهم ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل مايريده من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترأوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات * وقال تعالى فى سورة النمل (أم من خلق السموات والارض) التى هى أصول الكائنات ومبادى المنافع (وأنزل لكم) أي لاجلكم ومنفعتكم (من السماء ماء فانبتنا به حدائق) أى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) أي ذات حسن ورونق يبتهج به النظار (ما كان لكم) أى ماصح وما أمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة والالتفات الى التكلم فى قوله تعالى فانبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بأن إنبات تلك الحدائق

المختلفة

المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح والاشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحدمما لايقدر عليه الا هو وحده حسبما ينبيء عنه تقييدها بقوله تعالى ماكان لكم أن تنبتوا شجرها (أإله مع الله) أي أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يقدر عليها غيره حتي يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذاتبكيت لهم بنفى الالوهية عما يشركون به تعالى فى ضمن النفى الكلي على الطريقة البرهانية فان أحدا ممن له تمييز فى الجملة لا يكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عن غيره تعالى رأساً لا سيما بعد ملاحظة انتفاءاحكامها عما سواه تعالى (بل هم قوم يعدلون) اضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب الي بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الامور فلذلك يفعلون مايفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التصديق بوجود الله تعالى وتوحيده والعكوف على الباطل البين الذى هو الاشراك * وقال تعالي فى سورة السجدة (أولم يروا أنا نسوق الماء الي الارض الجرز) اليابسة التي قطع عنها الماء والنبات (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) أى من ذلك الزرع (أنعامهم) كالتبن والقصل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها (وأنفسهم) كالحبوب التى يقتات بها الانسان والثمار (أفلا يبصرون) أى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله *وقال تعالي في سورة فاطر (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به) أي بذلك الماء والالتفات من الغيبة الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بفعل الاخراج لما فيه من الصنع البديع المنبيء عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفاً ألوانها) أي اجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها أو أصنافها على ان

كلا منها ذو أصناف مختلفة كالعنب فان أصنافه تزيد على خمسين وكالتمر فان أصنافه تزيد على مائة أو هيآتها وأشكالها أو الوانها من الصفرة والحمرة والخضرة وغيرها قال الامام فخر الدين وهذا يدل على انه لا يجوز ان يكون حدوث النبات لاجل تأثير الطبائع والافلاك والانجم وذلك لان تأثير الطبائع والافلاك والانجم والشمس والقمر بالنسبة الي الكل واحد ثم انا نري انه اذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع بل نقول انا نري فى الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه فى غاية الصفرة والوجه الثانى من تلك الورقة فى غاية الحمرة وتلك الورقة تكون فى غاية الرقة واللطافة ونعلم بالضرورة ان نسبة الانجم والافلاك الى وجهي تلك الورقة نسبة واحدة والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل الا فعلا واحدا الا تري انهم قالوا شكل البسيط هو الكرة لان تأثير الطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة يجب ان يكون متشابها والشكل الذى يتشابه جميع جوانبه هو الكرة وأيضا اذا وضعنا الشمع فاذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب وجب أن يحصل مثل هذا الاثر فى جميع الجوانب لان الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها الي كل الجوانب اذا ثبت هذا فنقول ظهر ان نسبة الشمس والقمر والانجم والافلاك والطبائع الي وجهى تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة وثبت ان الطبيعة المؤثرة متي كانت نسبتها واحدة كان الاثر متشابها وثبت ان الاثر غير متشابه لان أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة والجانب الثانى في غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بان المؤثر فى حصول هذه الصفات والالوان والاحوال ليس هو الطبيعة بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى وهذا هو المراد من قوله تعالي فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها واعلم ان مدار هذه

الحجة

الحجة على ان المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب ان يكون نسبته الي الكل نسبة واحدة فلما دل الحس فى هذه الاجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر ان المؤثر فيها ليس موجبا بالذات بل فاعلا مختارا * وقال تعالي فى سورة يس (وآية لهم الارض الميتة) اليابسة الجامدة (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كون الارض الميتة آية كأن قائلا قال كيف تكون آية فقال أحييناها أي باختراع النبات فيها أو باعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله (وأخرجنا منها حبا) أي جنس الحب كالحنطة والشعير والارز (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) ذكر هذين النوعين لكثرة نفعهما وقدم النخيل لانه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعا وبسرا ورطبا وتمرا وفيه زينة دائما لكونه لا يسقط ورقه والنخلة تشبه الانسان من حيث استقامة قدها وطولها ورائحة طلعها كرائحة المني ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها ولو قطع رأسها ماتت كما قالوا أقرب الجماد الى النبات المرجان وأقرب النبات الى الحيوان النخل وأقرب الحيوان الي الانسان الفرس ولو أصاب جمار النخلة آفة هلكت والجمار من النخلة كالمخ من الانسان واذا تقارب ذكورها واناثها حملت حملا كثيرا وربما قطع القها من الذكور فلا تحمل لفراقه ويعرض لها العشق وهو ان تميل الي نخلة أخرى ويخف حملها وتهزل وعلاجه ان يشد بينها وبين معشوقها الذي مالت اليه بحبل أو يعلق عليها سعفة منه أو يجعل فيها من طلعه (وفجرنا فيها) الفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى (من العيون) أي بعضا من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأي الاخفش واعلم ان اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار

فالله تعالي جعل الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الانهار والمجاري أو صعد الماء من المواضع المتسفلة الي الاماكن المرتفعة بامر الله وجري فى الاودية الي البقاع التى أنعم الله على أهلها (ليأكلوا من ثمره) متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لانه من مبادى الاثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى أثمارها ليأكلوا من ثمر ماذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمشهور ان الضمير عائد الي الله أي ليأكلوا من ثمر الله . وفيه لطيفة وهى ان الثمار بعد وجود الاشجار وجريان الانهار لم توجد الا بالله تعالي ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع ما يظن الظان انه سبب وجوده ليس الا بالله تعالى وارادته فهي ثمره (وما عملته أيديهم) مانافية والمعنى ان الثمر بخلق الله تعالي لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية أوعطف على ثمره ويكون المراد بما عملته أيديهم ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما (أفلا يشكرون) انكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها واعلم ان نفس الارض وان كان دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على وجود الاله ووحدته الا ان الفائدة فى قوله الارض الميتة أحييناها وقوله وأخرجنا منها حبا الخ ان فيه تعديد النعم كانه يقول آية لهم الارض فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والامر الضروري الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لابدلهم منها فهى نعمة ثم احياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فانها تصير أحسن وأنزه ثم اخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير في مكانهم وكان يمكن ان يجعل الله رزقهم في السماء أو فى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لان الارض تنبت الحب فى كل سنة وأما الاشجار بحيث تؤخذ

منها

منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم انها أين تدرس وأين يقع المطر وينزل القطر * وقال تعالى في سورة يس أيضا (الذي جعل لكم) أي خلق لاجلكم ومنفعتكم (من الشجر الاخضر) كالمرخ والعفار (ناراً فاذا أنتم منه توقدن) فان الرجل يقطع من المرخ والعفار المذكورين عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وهذه عيدان الكبريت المستعملة الآن فان مادتها من بعض النباتات السريعة الالتهاب ويضاف اليها بعض المواد الكيماوية قال صاحب كشف الاسرار النورانية القرآنية ان في الآية اشارة الى تكون الاحجار الفحمية ذات النار الشديدة التي تستعمل الآن في المطابخ والنانير والآلات البخارية ونحو ذلك ويستحضر منها غاز الاستصباح حيث ان تلك الاحجار ليست الا مادة النباتات التي تكون منها الغابات وكانت تنبت في المستنقعات في قديم الزمان ثم قال لا شك ان الرسوبات الفحمية التي توجد فى باطن الارض تكونت من نباتات تراكمت على بعضها ودليل ذلك البقايا التي تكشف فيها بالمنظار المعظم وكذا السوق والاوراق العديدة التي توجد فى المواد الطينية التي تصاحبه وقد اتفقت آراء الجيولوجيين على هذه المسئلة وأجمعوا على هذا الرأي فكثيرا ما يشاهد فى معادن الفحم الحجري بقايا هذه النباتات التي بجذوعها وأوراقها تتميز الارض الفحمية وقد وجدوا مرارا جذوع أشجار كبيرة فى طبقات الفحم الحجري * وقال تعالى فى سورة ق (وأنبتنا فيها) أي الارض (من كل زوج بهيج) حسن فى غاية الرونق والاعجاب يبتهج به أى يسر به (تبصرة وذكري) أى تبصيرا وتذكيرا (لكل عبد منيب) أي راجع الى ربه متفكر في بدائع صنائعه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أى كثير المنافع

شروع فى بيان كيفية إنبات ماذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا
وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعد (فأنبتنا به)أي بذلك الماء
(جنات) كثيرة أي أشجاراً ذوات ثمار (وحب الحصيد) أى حب الزرع الذى
شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما وتخصيص انبات حبه بالذكر لانه
المقصود بالذات(والنخل) عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى
الجنات لبيان فضلها على سائر الاشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها
وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل (باسقات) أي طوالا
في السماء عجيبة الخلق أو حوامل من أبسقت الشاة اذا حملت قال الامام فخر
الدين في تفسيره لهذه الآية فأنبتنا به جنات أي أنشأنا جنات يقطع ثمارها
وأصولها باقية وحب الحصيد أي زرعا يحصد كل سنة ويزرع فى كل عام أو
عامين وقوله تعالى والنخل باسقات اشارة الى المختلط من جنسين لان الجنات
تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة فى كل سنة لكن النخل يؤبر ولولا التأبير
لم يثمر فهو جنس مختلط من الزرع والشجر فكانه تعالى خلق ما يقطف كل
سنة ويزرع وخلق ما لا يزرع كل سنة ويقطف مع بقاء أصلها وخلق المركب
من جنسين في الاثمار لان بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه وأكثر الزرع
قوت والتمر فاكهة وقوت وقوله تعالي باسقات يؤكد كمال القدرة والاختيار
وذلك من حيث ان الزرع ان قيل فيه انه يمكن أن يقطف منه ثمرته لضعفه وضعف
حجمه فكذلك يحتاج الي اعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر
سنة بعد سنة فيقال أليس النخل الباسقات أكبر وأقوي من الكرم الضعيف
والنخل محتاجة كل سنة الي عمل عامل والكرم غير محتاج فالله تعالي هو الذي
قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر (لها طلع) أى ثمر يطلع
ويظهر ويسمى طلعا قبل أن ينشق ويخرج من أكمامه (نضيد) أي منضود

ومتراكب بعضه فوق بعض في أكمامه كما فى سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار
الطوال أثمارها بارزة متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه
كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد (رزقا
للعباد) أى لنرزقهم علة لقوله تعالي فأنبتنا وفى تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا
الاول بالتبصرة والتذكير تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه
بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق
ولم يقيد هنا العبادة بالانابة وقيده فى قوله تعالي تبصرة وذكري لكل عبد
منيب لان التذكرة لا تكون الا للمنيب والرزق يعم كل أحد غير أن المنيب
يا كل ذاكرا وشاكرا للانعام وغيره يا كل كما تا كل الانعام فلم يخصص بقيد * وقال
تعالي فى سورة الرحمن (والارض وضعها للانام فيها فاكهة) أي ضروب
كثيرة مما يتفكه به ويتلذذ (والنخل ذات الاكمام) جمع كم بضم الكاف كل
مايكم أى يغطي من ليف وسعف وكفرّي فانه مما ينتفع به كالمكموم من ثمره
وجماره وجذوعه أو جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فانه يكون أولا
فى وعاء فينشق ويخرج منه الطلع وعلى الوجه الاول فذات الاكمام في ذكرها
فائدة لانها اشارة الي أنواع النعم والفائدة في ذكرها على الوجه الثاني الاشارة
الي سهولة جمعها والانتفاع بها فان النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط
منها الثمرة فلا بد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذى يخرج من الشجرة
منفرقا لصعب قطافها فقال ذات الاكمام أي يكون فى كم شيء كثير اذا أخذ
عنقود واحد منه كفى رجلا واثنين كمناقيد العنب فانظر اليها فلو كان العنب
حباتها فى الاشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهز متي أريد جمعه
فخلقه الله تعالي عناقيد مجتمعة كذلك الرطب فكونها ذات الاكمام من جملة اتمام
الانعام (والحب) هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير (ذو العصف) هو أوراق

النبات الذي له ساق الخارجة من جوانب الساق كاوراق السنبلة من أعلاها الى أسفلها وقيل هو التبن الذي ينتفع به دوابنا التي خلقت لنا (والريحان) قيل ما يشم وقيل هو الرزق أريد به اللب أي فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذي وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب الذي له عصف هو علف الانعام وريحان هو مطعم الناس وتقديم الفاكهة على القوت من باب الابتداء بالادني والارتقاء الى الاعلى والفاكهة فى النفع دون النخل الذي منه القوت والتفكه وهو دون الحب الذي عليه المدار فى سائر المواضع وبه يتغذى الانام فى جميع البلاد فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذي هو أتم نعمة لموافقته مزاج الانسان ولهذا خلقه الله في سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة ونكر الفاكهة لانها على ماثبتنا مايتفكه به وتطيب به النفس وذلك عند كل أحد بحسب كل وقت شيء منه فمن غلب عليه حرارة وعطش يريد التفكه بالحامض وأمثاله ومن الناس من يريد التفكه بالحلو وأمثاله فالفاكهة غير متعينة فنكرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما (فبأى آلاء) أي نعم (ربكما) أيها الانس والجن اوالذكر والانثي (تكذبان) ابتلك النعم أم بغيرها * وقال تعالى فى سورة الواقعة (أفرأيتم ماتحرثون) أي تبذرون حبه وتعملون في أرضه (أأنتم تزرعونه) تنبتونه وتردونه نباتا يربو وينمو حتى يشتد ويقوم على سوقه فيكون فيه السنبل والحب (أم نحن الزارعون) أى المنبتون لاأنتم قال الامام فخر الدين الفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أوائل الزرع ومقدماته من كراب الارض والقاء البذر وسقي المبذور والزرع هو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق فقوله أفرأيتم ماتحرثون أي ماتبتدؤن منه من الاعمال أأنتم تبلغونها المقصود أم الله ولا يشك أحد فى أن إيجاد الحب فى السنبلة ليس بفعل

الناس وليس بفعلهم ان كان سوى القاء البذر والسقي (لو نشاء لجعلناه حطاما) أى نباتا يابسا لاحب فيه أو هشيما متكسرا متفتتا بعد ماأنبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة أغلاله وقيل هو جواب لمعاند يقول نحن نحرثه وهو بنفسه يصير زرعا لابفعلنا ولابفعل غيرنا فرد الله على هذا المعاند بقوله لو نشاء لجعلناه حطاما فهل تقدرون أنتم على حفظه أو هو يدفع عن نفسه بنفسه تلك الآفات التى تصيبه ولايشك أحد فى أن دفع الآفات ليس الا باذن الله وحفظه (فظلتم تفكهون) أى تتعجبون من سوء حاله اثر ماشاهدتموه على أحسن مايكون من الحال أو تندمون على مافعلتم فيه من الاجتهاد وأنفقتم عليه أو تندمون على ماأصبتم لاجله من المعاصي فتتحدثون فيه وتقولون (إنالمغرمون) أي لملزمون غرامة ماأنفقنا أومهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك (بل نحن محرومون) أي ممنوعون رزقنا * وقال تعالى فى سورة الواقعة أيضا (أفرأيتم النار التى تورون) أي تقدحونها وتستخرجونها (أأنتم أنشأتم شجرتها) السريعة الالتهاب كالمرخ والعفار المار ذكرهما وهما شجرتان موجوتان في أغلب المواضع من بوادي العرب وقيل أراد جميع الشجر التي توقد به النار (أم نحن المنشؤن) لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالانشاء المنبيء عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الاشجار كذا قال بعض المفسرين وهو مرجح لان المراد بها شجرة مخصوصة كشجرة المرخ والعفار والنباتات الفصفورية التى يتخذ منها عيدان الكبريت وأشجار الفحم الحجرى قالوا وأغربها المرخ والعفار المذكوران حتي قيل في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (نحن جعلناها تذكرة) أي جعلناها تذكيرا لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا اليها ويذكروا ماأوعدوا به من نار جهنم (ومتاعا) أى

منفعة (للمقوين) للذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيصهم بذلك لانهم
أحوج اليها قال بعضهم المعنى أنه ينتفع بها أهل البوادى والاسفار فان منفعتهم
بها أكثر من المقيم فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدى الضال الي
غير ذلك من المنافع ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله تعالي منها وقال ابن
زيد للجائعين في اصلاح طعامهم وقال قطرب المقوي من الاضداد يقال
للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغنى مقو لقوته على ما يريد والمعني فيها متاعا
ومنفعة للفقراء والاغنياء لاغنى لأحد عنها وقال المهدوي الآية تصلح للجميع
لأن النار يحتاج اليها المسافر والمقيم والغنى والفقير (فسبح باسم ربك العظيم)
الفاء لترتيب ما بعدها على ماعدد من بدائع صنعه تعالي وروائع نعمه الموجبة
لتسبيحه تعالي اما تنزيها له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته الكافرون
بنعمته مع عظمها وكثرتها أو تعجبا من أمرهم فى غمط تلك النعم الباهرة مع
جلالة قدرها وظهور أمرها أو شكرا على تلك النعم السابقة أى فأحدث
التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فان اطلاق الاسم للشيء ذكر له والعظيم
صفة للاسم أو الرب * وقال تعالي فى سورة النبأ (وأنزلنا من المعصرات) هي
السحائب اذا أعصرت أى حان لها أن تعصرها الرياح فتمطر (ماء ثجاجا)
أي منصبا بكثرة (لنخرج به حبا) يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما (ونباتا)
يعتلف كالتبن والحشيش (وجنات) الجنة فى الاصل هى المرة من مصدر
جنه اذا ستره تطلق على النخيل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه وعلى
الارض ذات الشجر والاول هو المراد (ألفافا) أى ملتفة تداخل بعضها في
بعض * وقال تعالي فى سورة عبس (فلينظر الانسان الي طعامه) الذى هو
قوام حياته وعليه يدور أمر معاشه أي الى تكونه وكيفية حدوثه والي قدرة
ربه فيه أي كيف قدره ربه ويسره ودبره له (أنا صببنا الماء صبا) بدل اشتمال

من

من طعامه لان الماء سبب فى اخراج الطعام فهو مشتمل عليه والتقدير فلينظر الانسان الى أنا كيف صببنا الخ أي صببناه صبا عجيبا (ثم شققنا الارض) أي بالنبات (شقا) بديعا لائقا بما يشقها من النبات صغرا وكبرا وشكلا وهيئة ولا يزال يتزايد ويتسع الى ان يتكامل النمو وينعقد الحب (فأنبتنا فيها حبا وعنبا) عطف على حبا (وقضبا) أي رطبة سميت بمصدر قضبه أى قطعه مبالغة كانها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع ومن الرطبة البرسيم المعروف (وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا) أي عظاما وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها أو لانها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب (وفاكهة وأبا) أي مرعي من أبه اذا أمه أى قصده لانه يؤم وينتجع أو من أب لكذا اذا تهيأ له لانه متهيء للرعى أو فاكهة يابسة تؤب للشتاء (متاعا لكم ولانعامكم) أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فان بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم * وقال تعالى فى سورة الاعلى (والذى أخرج المرعي) أى أنبت العشب وما يرعاه الدواب غضا طريا من بين أخضر وأحمر وأصفر وأبيض وغير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما المرعى الكلأ الاخضر (فجعله) بعد ذلك (غثاء أحوي) أى دريسا أسود وقيل أحوى حال من المرعى أى اخرجه احوي من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد ذلك

البحث الخامس فى النظر فى الافلاك

والكواكب وما يتبع ذلك * وفيه أربعة مطالب

(المطلب الاول في كيفية ترتيب الافلاك)

«والكواكب وصورها وحركاتها»

الفلك الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لان أهل اللغة اتفقوا

على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة وقد ذهب المتقدمون من الفلاسفة الي أن الفلك جسم بسيط كروي مشتمل على الوسط متحرك عليه ليس بخفيف ولا ثقيل ولا بارد ولا حار ولا رطب ولا يابس ولا قابل للخرق ولا للالتئام فحقيقته مجهولة لا يعلمها الا الله وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه فالله تعالي قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد الي موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالي وكل في فلك يسبحون وبه قال الاكثرون والافلاك كرات يحيط بعضها ببعض قالوا وأقربها الينا كرة القمر وفوقها كرة عطارد ثم كرة الزهرة ثم كرة الشمس ثم كرة المريخ ثم كرة المشترى ثم كرة زحل ثم كرة الثوابت ثم الفلك الاعظم * واعلم أن عدد الكواكب الثابتة مما يقصر ذهن الانسان عن ضبطه لكنّ الاولين قد ضبطوا منها ألفا واثنين وعشرين كوكبا تنتظم منها ثمانية وأربعون صورة كل صورة منها تشتمل على كواكبها وهي الصور التي أثبتها بطليموس في كتاب المجسطي بعضها في النصف الشمالي من الكرة وبعضها على منطقة فلك البروج التي هي طريقة السيارات وبعضها في النصف الجنوبي فسمي كل صورة باسم الشيء المشبه بها فوجد بعضها على صورة الانسان كالجوزاء وبعضها على صورة الحيوانات البحرية كالسرطان وبعضها على صورة الحيوانات البرية كالحمل وبعضها علي صورة الطير كالعقاب وبعضها خارجا عن شبه الحيوانات كالميزان والسنبلة ووجدوا من هذه الصور مالم يكن تام الخلقة مثل قطعة الفرس ومنها مابعضه من صورة حيوان وبعضه الآخر من صورة حيوان آخر كالرامى

ومنها مالم تتم صورته حتى جعل من صوة أخري ككوكب مشترك منهما مثل ممسك الاعنة فان صورته لم تتم حتى جعل الكوكب النير الذى على طرف القرن الشمالي من الثور مشتركا بينهما فصار على قرن الثور وعلى رجل ممسك الاعنة * وأما الكواكب الأخر وهي مائة وثمانية عشر كوكبا فانها لم ينتظم منها شيء من الصور فاضافوا كل ماوجدوه منها قريبا من صورة الي تلك الصورة وسموها خارج الصورة مثل النير الذى فوق رأس الحمل الذي تسميه العرب الناطح * وأما عدد الصور ومواقعها من الفلك فهي ثمان وأربعون صورة منها في النصف الشمالي من الكرة احدي وعشرون صورة ومنها على البروج اثنتا عشرة صورة ومنها فى النصف الجنوبى من الكرة خمس عشرة صورة فلنذكر الآن كوكبة كل صورة على الانفراد وعدد كواكبها على سبيل الاختصار ليتوصل بتلك الصور والاشكال الى الاستدلال على مبدعها وصانعها بالقدرة والاختيار جل وعلا (أما الصور الشمالية) فهى احدى وعشرون صورة كما ذكرناه احداها كوكبة الدب الاصغر وهى أقرب كوكبة الي القطب الشمالي وكواكبها من نفس الصورة سبعة والخارج عن الصورة خمسة وجميع الكواكب الداخلة في الصورة والخارجة عنها تشبه بحلقة سمكة وتسمى الـ[illegible] لشبهها بفأس الرحا الذي يكون القطب في وسطه وذكر بعضهم أن الـ[illegible] الشمالى ظاهر حوله بنات نعش الصغري وهى الكواكب السبعة المذكورة وكواكب خفية اذ جمعتها صارت فى صورة سمكة والقطب في وسط هذه السمكة والسمكة تدور حول القطب * وثانيتها كوكبة الدب الاكبر وكواكبها تسعة وعشرون كوكبا من الصورة وثمانية حوالى الصورة * وثالثتها كوكبة التنين وهو الحية العظيمة وكواكبها أحد وثلاثون كوكبا فى الصورة وليس حواليها شيء من الكواكب المرصودة * ورابعتها

كوكبة فيقاوس وكواكبه احد عشر كوكبا في الصورة وعشرة خارجها وهى من كوكبة ذات الكرسي * وخامستها كوكبة العواء وكواكبها اثنان وعشرون كوكبا فى الصورة وواحد خارجها وهي صورة رجل بيده اليمنى عصا وسادستها كوكبة الفكة وكواكبها ثمانية وهي على استدارة وفى استدارتها ثلمة * وسابعتها كوكبة الجاثي وهى صورة رجل قد مدّيده وجثا على ركبتيه وكواكبه ثمانية وعشرون كوكبا فى الصورة وواحد خارج الصورة * وثامنتها كوكبة السلياق وكواكبه عشرة * وتاسعتها كوكبة الدجاجة وكواكبها سبعة عشر كوكبا في الصورة واثنان خارجها * وعاشرتها ذات الكرسي وهي صورة امرأة قاعدة على كرسى له قائمتان كقائمة المنبر وعليه مسند وقد أدلت رجليها * الحادية عشرة كوكبة سياوس وهو صورة رجل قائم على رجله اليسري وقد رفع رجله اليمنى ويده اليمني فوق رأسه وبيده اليسرى رأس غول وكواكبها ستة وعشرون كوكبا فى الصورة وثلاثة خارجها * الثانية عشرة كوكبة ممسك الأعنة وهي صورة رجل قائم خلف رأس الغول بين كوكبة الثور وبين كوكبة الدب الا كبر وكواكبه اربعة عشر كوكبا * الثالثة عشرة كوكبة الحور والحية أما الحور فصورة رجل قائم قد قبض بيديه على حية وكواكبه اربعة وعشرون فى الصورة وخمسة خارجها وأما الحية فكواكبها ثمانية عشر * الرابعة عشرة كوكبة السهم وهو خمسة كواكب ونصله الي ناحية المشرق والفوق الى ناحية المغرب وطوله في رأي العين اذا كان فى كبد السماء نحو ذراعين * الخامسة عشرة كوكبة العقاب وكواكبه تسعة فى الصورة وستة خارجها * السادسة عشرة كوكبة الدلفين وكواكبه عشرة مجتمعة * السابعة عشرة كوكبة قطعة الفرس وكواكبها أربعة * الثامنة عشرة كوكبة الفرس الاعظم وكواكبه عشرون وهى على صورة فرس له رأس ويدان وبدن الي آخر الظهر وليس له كفل ولا رجلان

* التاسعة عشرة كوكبة المرأة المسلسلة وكواكبها ثلاثة وعشرون من الصورة وسميت المسلسلة لامتداد احدى يديها وهي اليمنى نحو الشمال والاخري نحو الجنوب ولاجتماع الكواكب بين رجليها شبهوها بمن سلسل * العشرون كوكبة الفرس التام وهو احد وثلاثون كوكبا وهو فرس احسن شبها بالفرس من الاول وبعض الفرس الاول داخل فيه * الحادية والعشرون كوكبة المثلث وكواكبه اربعة وهو على شكل مثلث فيه طول أحد كواكبه علي رأس المثلث وثلاثة على قاعدتها (وأما صور البروج الاثنى عشر) فاحداها كوكبة صورة الحمل وكواكبه ثلاثة عشر فى الصورة وخمسة خارجها مقدمه الي جهة المغرب ومؤخره الي المشرق ووجهه على ظهره * وثانيتها كوكبة الثور صورة ثور مؤخره الى المغرب ومقدمه الي المشرق وليس له كفل ولا رجلان تلتفت رأسه الي جنبه وقرناه الى ناحية المشرق وكواكبه اثنان وثلاثون والخارج عن الصورة احد عشر كوكبا * وثالثتها كوكبة التوأمين وهى الجوزاء وكواكبها ثمانية عشر في الصورة وسبعة خارجها وهي صورة انسانين رأسهما فى الشمال والشرق وأرجلهما الي الجنوب والمغرب وقد اختلطت كواكب أحدهما بكواكب الآخر * ورابعتها كوكبة السرطان وكواكبه تسعة من الصورة وأربعة خارجها * وخامستها كوكبة الاسد وكواكبه سبعة وعشرون في الصورة وثمانية خارجها * وسادستها كوكبة العذراء وهي ستة وعشرون في الصورة وستة خارجها ومن كواكبها السنبلة * وسابعتها كوكبة الميزان ثمانية كواكب في الصورة بين كوكبة العذراء وكوكبة العقرب وتسعة خارجها * وثامنتها كوكبة العقرب أحد وعشرون كوكبا من الصورة وثلاثة خارجها * وتاسعتها كوكبة الرامى وهو القوس أحد وثلاثون كوكبا فى الصورة وليس حواليه شيء من الكواكب المرصودة * وعاشرتها كوكبة الجدي وكواكبه ثمانية وعشرون كوكبا في الصورة

وليس حوالى الصورة شيء من الكواكب المرصودة * الحادية عشرة كوكبة ساكب الماء وهو الدلو كواكبه اثنان وأربعون كوكبا فى الصورة وثلاثة خارجها * الثانية عشرة كوكبة السمكة وهي الحوت وكواكبها أربعة وثلاثون فى الصورة واربعة خارجها وهى سمكتان احداهما السمكة المتقدمة وهى التي على ظهر الفرس الاعظم فى الجنوب والاخري على جنوب كوكبة المرأة المسلسلة وبينهما خيط من كواكب يصل بينهما على تدريج (وأما الصور الجنوبية) وهى الكواكب التى في النصف الجنوبي من الكرة: فاحداها كوكبة قيطس وهي صورة حيوان بحري مقدمه فى ناحية المشرق على جنوب كوكبة الحمل ومؤخره فى ناحية المغرب خلف الثلاثة الخارجة عن صورة ساكب الماء وكواكبه اثنان وعشرون * وثانيتها كوكبة الجبار وكواكبه ثمانية وثلاثون كوكبا في الصورة وهي صورة رجل قائم فى ناحية الجنوب لي طريقة الشمس بيده عصا وعلى وسطه سيف * وثالثتها كوكبة النهر وكواكبه أربعة وثلاثون فى الصورة وليس حواليه شيء من الكواكب المرصودة ويبتدىء من عند النير الذي على قدم الجوزاء فيمر فى المغرب على تدريج الي قرب الاربعة التي على صدر قيطس ثم يمر في الجنوب على ثلاثة كواكب ثم ينعطف الي المشرق فيمر على ثلاثة كواكب أيضا ثم ينعطف الي الجنوب فيمر على ثلاثة كواكب مجتمعة ثم ينقطع فيمر في الجنوب على كوكبين متقاربين ثم ينعطف الى المغرب فيمر على كوكبين متقاربين أيضا ثم على ثلاثة كواكب متقاربة ثم ينتهي الى كوكب نير على آخر النهر * ورابعتها كوكبة الارنب وهي اثنا عشر كوكبا في الصورة وليس حواليه شيء من الكواكب المرصودة وهي تحت رجل الجبار ووجهه الى المغرب ومؤخره الي المشرق * وخامستها كوكبة الكلب الاحمر وكواكبه ثمانية عشر فى الصورة واحد عشر خارجها وهي صورة كلب خلف كوكبة

الجوزاء

الجوزاء ذكر القزويني أن النير الاعظم الذي على موضع الفم المسمي بالشعرى العبور والشعرى اليمانية يقطع السماء عرضا دون غيره من الكواكب * وسادستها كوكبة الكلب المتقدم وهما كوكبان بين النيرين اللذين على رأس التوأمين وبين النير الذي على فم الكلب الاحمر يتأخر عنهما الي المشرق أحدهما أنور وتسميه العرب الشعرى الشامية . وسابعتها كوكبة السفينة وكواكبها خمسة وأربعون كوكبا من الصورة وليس حواليها شيء من الكواكب المرصودة * وثامنتها كوكبة الشجاع كواكبه خمسة وعشرون كوكبا في الصورة واثنان خارجها رأسه على زباني الجنوبي من صورة السرطان * وتاسعتها كوكبة البلطية وهي سبع كواكب على شكل كوكبة الشجاع * وعاشرتها كوكبة الغراب وهي سبع كواكب خلف البلطية * الحادية عشرة كوكبة قيطورش وهى سبعة وثلاثون كوكبا وصورته صورة حيوان مقدمه مقدم انسان من رأسه الى آخر ظهره ومؤخره مؤخر فرس من منشأ ظهره الى ذنبه وجهه الي المشرق ومؤخر ذنبه الى المغرب وبيده شمراخان وقد قبض بيده الاخري على يد السبع * الثانية عشرة كوكبة السبع وهى تسعة عشر كوكبا من الصورة خلف كوكبة قيطورش على يده وليس حولها شيء من الكواكب المرصودة * الثالثة عشرة كوكبة المجرّة كواكبها سبعة فى الصورة * الرابعة عشرة كوكبة الاكايل الجنوبي وهي ثلاثة عشر كوكبا فى الصورة قدام الاثنين اللذين على عرقوب الرامي ومن العرب من يسمى هذه الكواكب القبة لاستدارتها * الخامسة عشرة كوكبة الحوت الجنوبى وهي أحد عشر كوكبا فى الصورة رأسه الي المشرق وذنبه الى المغرب * هذا ماذكره المتقدمون من الكواكب الثابتة والسيارة قال السيد عبدالله الادريسي الملقب بالنديم رحمه الله تعالى وقد نقضت الطبقة الاخيرة (من الفلاسفة) كل ما أسسته الطبقة الاولي وأثبتت من

السيارة وسيارة السيارة مالم يكن في حساب المتقدمين فانخرمت قواعدهم
وانهدمت أصول عقائدهم وبقي العلم آخذا فى التقدم والترقى غير واقف عند
حد فكلما تعددت المراصد وكبرت المعظمات البلورية وتعدد الراصدون
فى أقطار متباينة تقدم الفلك تقدما عظيما وظهرت خفايا العالم العلوى بالنظارات
العظيمة وانكشف للفلكيين من الكواكب وغرائبها مالو ظهر للمتقدمين
لبهرهم وزادهم حيرة ولو أنصف المتقدمون والمتأخرون أنفسهم لقطعوا بأن وجود
هذه الاجرام العظيمة بالعوالم العديدة والاسرار البديعة والافعال الغريبة مع
اختلاف الاجناس وتنوع الصور والاشكال لا يكون الا أثرا لمؤثر وليس
المؤثر مجموعها بعد ثبوت احتياجها الى بعضها ولا جواهرها الفردة فان كل
جوهر محتاج لمخصص يخصصه مع احتياجه الى المكان والزمان وجواهر
المكان كذلك محتاجة الى مبدع مخصص وليس ذلك الا الله تعالى والقول
بوجود الكون صدفة بعيد عن التصور العقلى فان اختلاف العنصريات وتنوع
الاجناس والصور مبطل له مثبت للفاعل المختار والقول بالطبع كذلك منقوض
بالخوارق المسماة فى عرف أهله بفلتات الطبيعة لعدم سريان الطبيعة على نسق
يقضي ببروز الاشياء محفوظة الصور ولا يخلصنا من هذا قولهم ان الطبيعة
بلهاء تصدر عنها فلتات لاحتياج التكوين الى فاعل مختار عليم قادر حكيم
لا يصدر عنه العبث ولا تتشوش عليه المطالب ولا تغالبه الطبيعيات ومالهم
اذا رجعوا بالموجودات عند انتهاء سلسلة الممكنات الى واجب الوجود سموه
طبيعة ولم يسموه الها والمعقول لا تأبي ذلك ولا تراه بعيدا عن التصور بعد
اقامة البرهان عليه انتهى *ومن الخوارق التي أشار اليها ما ذكره المقتطف في
الجزء السابع من المجلد السادس عشر من ظهور أشكال جديدة فى الفلك لم
يشر اليها أحد من الاقدمين ولم تر الا منذ عهد قريب فمنها ما ظهر على شكل

ممسك الأعنة فى المجرة ومنها ما هو على شكل ذات الكرسى ومنها ما هو على شكل الدجاجة ومنها ماهو على شكل الا كليل الشمالى وقد توالي ظهور هذه الاشكال بغتة بحيث انه لم يحصل مثل ذلك في غابر الازمان وقد تحيرت عقولهم فى هذه الاشكال وأشكلت عليهم كل الاشكال حتى قال بعضهم ليس فى علم الهيئة ماهو أغمض حقيقة من ظهور هذه النجوم بغتة في جهات مختلفة من السماء * ومن أشهرها نجم رآه تيخو براهى الفلكى سنة (١٥٧٢) ظهر فى صورة ذات الكرسى وكان يختلف عن غيره من النجوم في شدة لمعانه ودهرهته فكان أول رؤيته ألمع من الشعرى الشامية ومن المشتري وكاد لمعانه يفوق لمعان الزهرة وهي فى أشد لمعانها وكان يري في النهار مثلها وفى أوائل دسمبر (ك ٢) أخذ نوره يضعف وزاد ضعفه رويداً رويداً الى أن اختفى فى شهر مارس أذار سنة (١٥٧٤) ولما قل اشراقه تغير لونه فكان أولا أبيض كالزهرة والمشترى ثم صار أصفر ضاربا الي الحمرة كالمريخ ورجل الجبار بل أشبه الدبران ثم صار لونه رصاصيا وما زال إشراقه يضعف رويداً رويداً الى أن اختفي عن الابصار * ومنها النجم الجديد الذى رآه كيلر الفلكى سنة (١٦٠٤) وقد رآه أولا برونوسكى تلميذ كيلر في العاشر من اكتوبر وكان حينئذ لامعا مثل المشتري ثم اختفى سنة (١٦٠٦) وقد ظهرت نجوم أخري جديدة ولكنها لم تبلغ هذين النجمين فى شدة لمعانهما. وسنة (١٦٦٩) ظهر نجم جديد في صورة الدجاجة وكان بين القدر الثالث والخامس ورأى هدجنس وملر نجما جديدا فى صورة الاكليل الشمالي سنة (١٨٦٦) وظهر نجم جديد فى صورة الدجاجة سنة (١٨٧٦) الي سنة (١٨٧٧) وقد اختلفوا كثيرا فى تعليل حدوث هذه النجوم بالعلل الفرضية ولم يقروا على تعليل صحيح لها وعلى كل حال فمحال أن يكون اختلافها في الأشكال والصور منسوبا الي علة أو طبيعة فهى من الآيات

الباهرة والدلائل القاهرة على وجود الصانع المختار تقدس وتعالى (واعلم) أن مذهب المتقدمين من الفلاسفة أن فلك الثوابت يتحرك حركة بطيئة فى كل ست وستين سنة درجة واحدة على قطبين يسميان فلك البروج وتتم دورة فلك الثوابت في ستة وثلاثين ألف سنة وأما الكواكب السيارة فتتحرك كلها مع أفلاكها بحركة الفلك الاعظم حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخري من المغرب الي المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية في الثابتة واستدلوا عليه بأنا وجدنا الكواكب السيارة كل ما كان منها أسرع حركة اذا قارب ماهو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر يجتمع بالشمس في آخر كل شهر ويظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الي أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته في ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربي فعلمنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق قال الامام فخر الدين ان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الي المشرق حركة بطيئة ولا شك أنها متحركة بسبب حركة الفلك الاعظم اليومية من المشرق الي المغرب لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الي الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الي جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال هذا كلام الامام وهو مبني على أصلهم من أن الكواكب

مغروزة

مغروزة فى الافلاك وأنه يمتنع على الافلاك الخرق والالتئام قال فان قيل لم لا
يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الي الجانب الشرقي تنقطع حركتها الى الجانب
الغربي وبالعكس فلنا هذا لا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة
عن الانقطاع عندكم أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب
الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال جميع الكواكب متحركة
من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيختلف بعضها عن بعض
بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تحرك الي خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم
استدارته من أول اليوم الاول الي أول اليوم الثانى دورة تامة الا مقدار ثانية
فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة المخالفة لجهة حركة الفلك الاعظم
مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير
فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت
ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهي الي فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة قال
وهذا الذى قلناه مع ما يشهد له البرهان فهو أقرب الى العقول والي ترتيب
الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة حاصلة للفلك المحيط وهو
الفلك الاعظم ونهاية السكون حاصلة للجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض
ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك الاعظم كان أسرع حركة وكل ما كان منه
أبعد كان أبطأ حركة فلك الثوابت أقرب الافلاك اليه فلا جرم لا تفاوت
بين الحركتين الا بقدر قليل وهو الذي يحصل من اجتماع مقادير التفاوت
فى كل مائة سنة درجة واحدة ويليه فلك زحل فانه أبطأ من فلك الثوابت
فلا جرم كان تخلفه عن الفلك الاعظم اكثر حتى أن مقادير التفاوت اذا اجتمعت
بلغت في كل ثلاثين سنة الى تمام الدورة وعلى هذا القول كل ما كان أبعد عن
الفلك الاعظم كان أبطأ حركة فكان تفاوته اكثر حتى يبلغ الي فلك القمر الذي

بلغ العدد معنا أكثر من خمسمائة كوكب ولم يعرف بالحساب الا دورة كوكبين منها أحدهما هو الذى ظهر سنة (١٠٨٢) عيسوية ودورته تتم تقريبا فى خمس وسبعين سنة ونصف والثاني تتم دورته في ألف يوم ومائتي يوم وبعض أيام * قال صاحب صفوة الاعتبار واعلم أن مسئلة حركة الارض أى هل هى التى تدور أو أن الشمس هى التى تدور هى من المسائل الظنية أعني أن أدلتها ظنية وكثير من مسائل علم الهيئة هو على هذا النحو الي الآن كمسائل الابعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وماتشتمل عليه وعلماء هذا الفن مقرون بذلك كما يأتى ويشهد له أنهم كانوا مطبقين على أن بعد الزهراء من الشمس مقادير معلومة ففي سنة (١٢٩٣) كان اقتران الشمس بالزهراء يعنى أن الزهراء تمر حائلة بين الارض والشمس فاعتنوا لذلك من قبل وأرسلوا العارفين الى الجهات التى يمكن منها رؤية ذلك لتحرير الرصد بالآلات فحرروا ذلك ووجدوا أن جميع حسابات السابقين خطأ فان البعد الذي حرر هو أقل مما كانوا يحسبون وكذلك مقدار جرم الزهراء ومن الجائز أيضا ظهور الغلط فى هذا التحرير في وقت آخر اه ومن هذا القبيل ماذكره الامام فخر الدين من أن الراصدين للميل الاعظم وجدوه مختلف المقدار وكل من كان رصده أقدم وجد مقدار الميل الاعظم أعظم فان بطليموس وجده (كج نا) ثم وجد فى زمن المأمون (كج له) ثم وجد بعد المأمون قد تناقص بدقيقة ثم قال ان بطليموس رصد الثوابت فوجدها تقطع فى كل مائة سنة درجة واحدة والمتأخرون رصدوها فوجدوها تقطع فى كل مائة سنة درجة ونصفا وهذا تفاوت عظيم يبعد حمله على التفاوت في الآلات التي تتخذها المهرة في الصناعة على سبيل الاستقصاء كذا قال الامام وبعد أن ذكر اختلافهم فيما يلتمسونه من العلل لماذكر قال واعلم أن هذا الخبط ممما ينبهك على أنه لاسبيل للعقول البشرية الي

ادراك

ادراك هذه الاشياء وأنه لايحيطبها الاعلم فاطرها وخالقها فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية اه قال صاحب صفوة الاعتبار وحيث كانت المسائل في هذا الفن ظنية اختلف علماؤه في أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد فقدماء الفلاسفة ذهبوا الى أن الارض هى التي تدور والذين بعدهم ذهبوا الي أن الارض مركز للفلك وبدوران الفلك يحدث الليل والنهار وأن الشمس هي التى تدور معه ولها سير خاص بها يحدث منه الصيف والشتاء واشتهر هذا المذهب وزاد انتشارا عند ما انتشر هذا العلم وتهذب في الامة الاسلامية لما استفحل فيها العلم وكان ذلك المذهب هو المشتهر فيمن أخذوا عنه العلوم الرياضية ثم أحيي المذهب الاول وتأكد الآن عند علماء العصر بهذا الفن وقدظن بعض المنتسبين للعلم أن المذهب الآخر هو من عقائد الاسلام والحق أن ليس شيء من هذا ولا من ذلك هو مما يجب اعتقاده عندنا وانما المدار عندنا على الاعتبار بالآثار المشاهدة من الليل والنهار وأشباه ذلك واثبات جريان للشمس وهو ثابت على كلا المذهبين لان المتأخرين يثبتون لها حركة رحوية على نفسها وحركة ثانية على منطقة لها أيضا ثم حركة ثالثة لها مع جميع ما يتبعها من الكواكب حول شيء مجهول كما أن هاته الدورة مجهولة المستقر أيضاً وعلماء هذا الفن الآن من غير المسلمين مقرون بذلك فهو حينئذ اجماعى بيننا وبينهم كذا قال صاحب صفوة الاعتبار * واذا علمت أن ما يذكرونه فى هذا الباب هو ظنى وليس لهم عليه دليل يقينى فالواجب علينا اعتقاده هو ما يدل عليه ظاهر النصوص الشرعية كما تقدم في مقدمة المقصد الثالث. والذي يدل عليه ظاهر النصوص الشرعية هو أن الارض ساكنة والشمس متحركة من المشرق الي المغرب كما يثبته الحس والمشاهدة وحمل ذلك على الوهم مفض الى السفسطة والشك فى المحسوسات وهو باطل

فمن تلك النصوص قوله تعالي قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانه على حد قوله تعالي قال ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به فلا يتوهم أحد قط أن المراد أنه يحرك قصر سليمان حتى يأتي به الي عرشها بل المراد قطعا أنه يحرك عرشها حتى يأتى به الى سليمان ولذا قال فلما رآه مستقراً عنده فكذا ههنا يكون المراد قطعا ان الله تعالي يحرك الشمس من المشرق الي المغرب لا ان الارض هى التى تتحرك من المغرب الى المشرق كما زعموا * ومنها قوله تعالى وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً فلو كانت الارض هي المتحركة لامتن علينا تعالي بحركتها اذ على ما زعموا هي التي يعلم بها حساب الاوقات لا حركة الشمس المجهولة لنا فكيف يمتن علينا بها لو كان ما ذكروه صحيحاً وقوله تعالي وسخر لكم الشمس والقمر دائبين فلو كانت الارض هي المتحركة لامتن علينا تعالي بحركتها اذ هي التى يعود نفعها علينا لا حركة الشمس حول شيء آخر مجهول وقوله تعالي وألقى فى الارض رواسي أن تميد بكم فانه يدل على عدم حركة الارض مطلقا لا تقييده بحركة الاضطراب فانها مشاهدة عند حدوث الزلازل الى غير ذلك من الآيات والاخبار. أما ما استدلوا به على حركة الارض من قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون فسيأتى الكلام عليه فى المطلب الثاني من هذا المبحث وأما قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب فلا يمكن الاستدلال به على حركة الارض اذ هو لم يدل الا علي حركة الجبال فقط ولذلك أجمع المفسرون على أن هذه الحركة هى التى تكون عند قيام القيامة كما هو مقتضى نظم الآية فانه تعالي قال ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين وتري الجبال تحسبها جامدة الي أن قال من جاء بالحسنة فله خير منها

الخ

الخ فهذه الآية هى كقوله تعالي ويوم نسير الجبال وتري الارض بارزة وحشرناهم أما قوله تعالى صنع الله الذي أتقن كل شيء بعد قوله وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب فقال العلامة أبو السعود فيه انه مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى صنع الله ذلك صنعا على انه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الافاعيل وتهويل أمرها والايذان بأنها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو اليها داعية أو يكون لها عاقبة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التي لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادي الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالي الذي أَتْقَنَ كل شيء أي أحكم خلقه وسوّاه على ما تقتضيه الحكمة اه وذكر صاحب التذكرة أن القول بحركة الارض ممنوع لوقوع السهم فى موضعه على استقامة ولو صح ما قالوه من تحرك الارض لوقع فى غربى مسقطه اه ومما يبطل القول بحركة الارض ان الارض اذا كانت متحركة الي جهة المشرق وهناك طير يتحرك الى جهة المغرب لغاب عن أعيننا فى أسرع من لمح البصر اذ الارض تسبقه في الثانية الواحدة بثلاثة أميال وهو يسبقها بحركته الذاتية واذا كان يتحرك الي جهة حركة الارض فلا يمكنه أن يصل الى أي موضع قصده من الارض اذ لايمكنه أن يتحرك حركة تفوق حركة الارض حتى يصل الي مقصده فان قالوا ان قوّة الجاذبية التي فى الارض توجب له حركة موازية لحركة الارض ثم هو يتحرك بحركته الذاتية فلم يلزم ما ذكرتم قلنا اذا أوجبت له قوّة الجاذبية مثل تلك الحركة التي تفوق قوته أضعافا مضاعفة فكيف لا توجب له السقوط على الارض وكيف لا تعوقه عن حركته الذاتية وأيضاً انهم يقولون كما يفهم من

كلام صاحب النخبة الازهرية في الجغرافية العمومية ان الارض لا تزال تتحرك حول الشمس حتي تحتجب عنا بجرم الارض وحينئذ تكون قد انتهت الي جانب آخر فيه الكواكب الثابتة فلا تزال تتحرك حولها حتى تصل الي الجانب الذي فيه الشمس وهكذا ولو كان الامر كذلك لكانت الكواكب الثابتة تبدو لنا دفعة واحدة وتغيب عنا دفعة واحدة مع انه ليس كذلك فان أول مايبدو لنا بعض الكواكب ثم تبدو الكواكب حواليه شيأ فشيأ ومثل ذلك يحصل عند مغيبها فالحق أن عقول البشر عاجزة عن ادراك حقيقة نظام الموجودات فيجب التسليم الى مبدعها على وفق حكمته مع اتباع ماوردت به الادلة السمعية ومن يسلم وجهه الي الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقي * واذا علمت ماذكرنا تعلم أنه لا يجوز تأويل ما يدل من الآيات على طلوع الشمس وغروبها وغير ذلك بأنه باعتبار الابصار والعرف الجاري في اللسان نعم ان ثبت بالدليل القطعي ان الحقيقة هي بخلاف ما يدل عليه ظاهر الآيات رجعنا الي التأويل وأين هو الدليل القاطع وكل واحد من المتقدمين والمتأخرين يظن ظنا قد يحتمل الوقوع مع الجهل بحقيقة الواقع والمتيقن انما هو مانطقت به النصوص الشرعية قال صاحب صفوة الاعتبار * اعلم أنه لا يلزم من دوران الارض نفي السماء على مايتوهمه غير العارف لان السموات لا شك في وجودها للنصوص القطعية عليها غير أن جرمها غير معلوم لنا وانما نعتقد أنها أجرام شداد هي بالنسبة لكل من على الارض فوقه كما هو المفهوم اللغوي للفظ سماء وأما ماهية اجرامها فالله أعلم بها ونعتقد انها سبع طبقات شداد ثم طبقة أخرى تسمي بالكرسي ثم طبقة أخرى تسمى بالعرش ولا يلزم من كونها شدادا أن لا تخترقها الكواكب بسيرها فان ذلك مشاهد لنا كما انه لا يلزم من سير الكواكب انعدامها حتى يقولون ان الكواكب ملقاة في الفضاء لان

ذلك

ذلك متوقف على معرفة كنهها ولا تدركه عقولنا لان العقول انما تتوصل الي المعهودات للحواس وما لا تعهده الحواس يعسر ادراكه على حقيقته ولهذا كان علينا أن نصدق الصادق ونكل معرفة ذلك الي خالقها بل الاغرب أن مثل هاته المسائل أقربها الحكماء الذين لا يعتقدون الشرع فقد قال أحد حكماء الفرنساويين المتأخرين ما ترجمته ان للعقل حداً محدوداً لا يتجاوزه كما أن للبصر حداً محدوداً لا يتجاوزه فاتعاب العقل في التوصل الى معرفة كنه الاجرام العلوية وماهيتها كاتعاب البصر فى أن يري ما فوق السقف من أسفله فهب انك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فانه لا يمكن أن يخترق السقف حتي يرى ما فوقه اه ويمكن لنا أن نقرب لاولئك المنكرين للسماء فهم وجودها على مقتضى علم الهيئة الذي هم عليه الآن بأنهم يسلمون وجود كرة الهواء محيطة بالارض وانها عظيمة شديدة حتي قرروا أن ذات الانسان المتوسط مضغوطة وحاملة لا كثر من ثلاثة وثلاثين ألف رطل من الهواء ومع ذلك فان هاته الكرة العظيمة الشديدة تخترق كيفما أراد المخترق لها فلم لا يجوز أن تخترق الكواكب السيارة السموات على هذا النحو ثم انّ هاته الكرة الهوائية نهاية ارتفاع سطحها الأعلى عن سطح الارض نحو ستة عشر فرسخاً وهي فى ذاتها تختلف طبقاتها وما فوقها ليس بخلو لانه لا يوجد فى الكون خلو مطلق كما هو رأى قدماء الفلاسفة ومتأخريهم كما قرره الحكيم لامروس فى كتابه الآتي ذكره فلم لا يجوز أن يسمي الشيء المعمر لحد محدود من الفضاء بالسماء وما فوقه من حد آخر بسماء آخر وهكذا وان كنا نجهل حقائقها لكنا نقول انها لا تمتنع من سير الكواكب في مناطقها اه وقال صاحب الرسالة الحميدية وأما ان الله تعالى خلق سبع سموات فوقنا وخلق جسما كبيراً يسمي كرسيا فوق تلك السموات وجسما أكبر منه فوقه يسمي عرشا وأن بيننا وبين تلك الاجسام

مسافات عظيمة وانه خلق جسما كبيرا يسمي لوحا وجسما آخر يسمي قلما لاثبات
ما يكون وتسطيره لا عن حاجة الى ذلك وانه يجري نعيم الانسان فى دار خلقها
تسمي الجنة وعذابه فى دار تسمى جهنم يدخلها البشر بعد خراب عالم الارض
والسموات وبعثهم بعد الموت فأقول أنتم وأتباع محمد عليه السلام تقولون
بالخلاء الممتد وهو البعد الشاسع الذي تتيه الافكار في سعته ثم أنتم تقولون
ان الشمس والكواكب قائمة فى الفراغ الشاسع بناموس الجاذبية وفي أقوال
بعض أتباع محمد عليه السلام ما يوافق قولكم هذا فى أن الشمس والكواكب
ليست مركوزة فى السماء بل هى قائمة في الفراغ وفلكها هو مدارها فيه فما
المانع من أن يكون وراء تلك الكواكب فى ذلك البعد الشاسع قد خلق
الله تعالي تلك الاجسام المذكورة وهي السموات السبع والعرش والكرسى
واللوح والقلم والجنة وجهنم وأقامها هناك بقدرته سبحانه سواء أقامها بناموس
من النواميس التى يضعها فى نظام مخلوقاته أم بغير ناموس اذ هو قادر على
ذلك والنواميس هي أسباب عادية كما أقام الشمس والكواكب في الفراغ
التى هى فيه ثم الجميع بعيد عنا بمسافات شاسعة كما بينها مسافات كذلك وما
أدركناه من عظمة ذلك الاله وعظمة قدرته فى مصنوعاته التى نشاهدها لا يبعد
عنده شيء من ذلك عليه فكل ذلك جائز ممكن لا يحيله العقل وقدرة الاله
صالحة لتعلقها بايجاده وعدم وصولكم الي ادراكه بحواسكم أو بوسائط أخري
لا يقتضى عدمه هذا كلام صاحب الرسالة الحميدية *أقول ولا مانع من أن
السموات أجسام نورانية أى شفافة كالزجاج فلذلك لا ترى مع البعد ولذلك
قال تعالي ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً
فنسبه الى الكل مع أنه فى السماء الدنيا وما ذاك الا لان كل واحدة منها
شفافة لا تحجب ماوراءها فيري الكل كأنها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك

أن يكون مافى واحدة كأنه فى الكل كما قاله العلامة أبو السعود وقد اتفق المتقدمون من الفلاسفة على أن الكواكب الثابتة مركوزة فى الفلك الثامن الذي هو فوق أكر السيارات مع أن هذه الكواكب ترى كأنها مركوزة فى سماء الدنيا وهذا لا يصح الآ اذا كانت السموات شفافة فلذلك تظهر تلك الكواكب في سماء الدنيا وتلوح منها ولاجل كون السموات شفافة قد التبس الامر على بعضهم فقال الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه وقال بعضهم ماء مجموع تجري فيه الكواكب وهذا كما التبس الامر على بلقيس حين قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وأما ما ورد من أن بعض السموات من فضة وبعضها من ذهب وهكذا كل واحدة على شكل بعض المعادن فهذا ان صح فالامر على حد قوله تعالى كانت قوارير قوارير من فضة ولنرجع الي كلام صاحب الرسالة الحميدية قال ومن تقرير هذا المقام يظهر أنه لامانع أيضا من وجود سبع أرضين كما ورد فى بعض نصوص الشريعة المحمدية وتكون الارضون الستة قائمة فى الفراغ الذى فيه أرضنا وسائر الكواكب ولامانع من اشتمالها على عوالم كما تظنون أنتم في اشتمال الكواكب على ذلك وان قلتم انا لم نرها بالنظارات المكبرة قلت يحتمل أنها ليست منيرة تصلح للرؤية بها ويحتمل أنكم رأيتموها وحسبتموها فى عدد الكواكب القائمة في الفراغ وان قلتم سلمنا أن جميع ذلك جائز الحصول ولكن ما الدليل على أن ذلك حاصل بالفعل وما الذى حمل أتباع محمد عليه السلام على القول به فات الذي حملهم على ذلك وهو دليلهم عليه نصوص شريعتهم الصريحة في وجود تلك الاجسام وهى نصوص واردة ورودا قطعيا عن رسولهم عليه السلام وهو الصادق فى جميع مايخبر

به لأنه معصوم عن الكذب لثبوت رسالته بالبراهين القاطعة

﴿ المطلب الثاني في كيفية النظر فى الافلاك ﴾
(والكواكب للاستدلال على)
« مبدعها بالقدرة والاختيار »

(اعلم) أن وجه دلالة العالم على وجود الصانع تعالى اما الامكان واما الحدوث واما بمجموعهما واما الامكان بشرط الحدوث وكلها طرق موصلة الي العلم بالصانع وهي اما أن تعتبر فى الذوات أو الصفات فتكون الطرق الموصلة ثمانية من ضرب أربعة فى أثنين وقد أسقط بعضهم منها طريق الامكان بشرط الحدوث لانه يرجع فى الصورة الى طريق الاستدلال بمجموع الامكان والحدوث فسقط بسببه من الثمانية طريقان فتبقي ستة طرق وكذا عدها الامام فخر الدين فى الاربعين وعدها فى المعالم أربعة لانه أسقط منها الطريقين الاخيرين لتركبهما من الاولين وهذه الطرق معتبرة فى العالم العلوي وهو عالم السموات والكواكب وتارة فى العالم السفلى والمقصود هنا بيان الاستدلال من العالم العلوى وبيان الفرق بين الاستدلال بطريق الامكان المجرد وبين غيره من الطرق أن العلم بحدوث العالم يتأخر في طريق الامكان المجرد عن العلم بالصانع وفي غيره يتقدم وبيانه كما أفاده العلامة السنوسى انا اذا حققنا أن العالم ممكن وجوده وعدمه لاأرجحية لاحدهما على الآخر بذاته ويدل على ذلك افتقاره وأن كل ممكن بذاته من حيث هو هو قابل للوجود والعدم فالوجود له ليس من ذاته وكل ماليس له الوجود من ذاته فالوجود له من غيره ثم ذلك الغير لا بد وان يكون واجب الوجود لذاته والا لافتقر الى مافتقر اليه العالم ودار أو تسلسل على ما تقدم بيانه في مبحث قدم

الصانع

الصانع من الالهيات والدور والتسلسل محالان على ماتقدم هناك أيضا فثبت العلم بوجود مؤثر واجب لذاته فقد خرج لك من هذا العلم بالصانع لكن مع احتمال أن يكون صانعا باللزوم الذاتى فلا يكون العالم حادثا بل قديما واحتمال أن يكون صانعا بالاختيار فيكون العالم حادثا فيحتاج الى دليل آخر لاثبات هذا المطلب أعني مطلب حدوث العالم بعدمافرغت من مطلب وجود الصانع الذى نظرك فيه ونظر الفيلسوف واحد وانما تنفرد عنه بهذا المطلب الثانى فانه لم يهتد هو اليه فتقول صانع العالم اما أن يكون أوجبه لذاته أو اقتضاه بطبعه أو أوجده باختياره وجهات التأثير منحصرة في هذه الاوجه الثلاثة كما تقدم بيانه في المبحث الاول من المقصد الثالث ثم تقول لاجائز أن يكون المؤثر فى هذه الممكنات موجبا لها بذاته كالعلة ولا مقتضيا لها بطبعه لان مايؤثر كذلك لايجوز أن يخصص مثلا عن مثل لاستحالة الاختلاف فى معلول العلة الواحدة ومطبوع الطبيعة الواحدة وفاعل العالم قد خصص مثلا عن مثل فتعين أن يكون موجدا بالاختيار فتقول حينئذ العالم موقع بالاختيار وكل موقع بالاختيار حادث اذ اختيار وجوده يستلزم سبق عدمه والا كان تحصيل الحاصل فى الوجود وثبوت ممكن ممالا يصح معه كونه فى العدم فينتج العالم حادث فأنت ترى كيف تأخر العلم بحدوث العالم فى هذه الطريقة عن العلم بوجود الصانع فقد ظهر الفرق بين هذه الطريقة وغيرها من الطرق ﴿واعلم﴾ أن الاعتبارات المأخوذة من العالم العلوي للدلالة على وجود الاله القادر المختار من وجوه كثيرة جمعناها ولخصناها من كلام الامام فخر الدين فى مواضع متفرقة (الوجه الاول) أن الاجرام الفلكية لاشك أنها مركبة من الاجزاء التي لا تتجزأ ومتي كان الامر كذلك كانت لامحالة محتاجة الى الخالق والمقدر * أما بيان المقام الاول فهو أن الاجرام

الفلكية لاشك أنها قابلة للقسمة الوهمية وكل ماكان قابلا للقسمة الوهمية فانه يكون فى نفسه مركبا من الاجزاء والابعاض فثبت أن الاجرام الفلكية مركبة من الاجزاء التي لاتجزأ واذا ثبت هذا وجب افتقارها الى خالق ومقدر وذلك لانها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الاجزاء فى داخل ذلك الجرم وبعضها حصلت على سطحها وتلك الاجزاء متساوية في الطبع والماهية والحقيقة والفلاسفة أقروا لنا بصحة هذه المقدمة حيث قالوا انها بسائط ويمتنع كونها مركبة من أجزاء مختلفة الطبائع واذا ثبت هذا فنقول حصول بعضها فى الداخل وحصول بعضها فى الخارج أمر ممكن الحصول جائز الثبوت يجوز أن ينقلب الظاهر باطنا والباطن ظاهرا واذا كان الامر كذلك وجب افتقار هذه الاجزاء حال تركيبها الي مدبر قاهر يخصص بعضها بالداخل وبعضها بالخارج فدل هذا على أن الاجرام الفلكية مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها الي مدبر قدير عليم حكيم وحاصل هذا الوجه أن أجرام الافلاك والكواكب والعناصر مركبة من أجزاء صغيرة ولابد وأن يقال ان بعض تلك الاجزاء حصلت في داخل تلك الاجرام وبعضها حصلت على سطوحها فاختصاص حصول كل واحد من تلك الاجزاء بحيزه المعين ووضعه المعين لابد وأن يكون لتخصيص المخصص القادر المختار (الثانى) أن نقول ان الافلاك والعناصر مركبة من الاجزاء وكل مركب فانه مفتقر الي كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر الي غيره وكل مفتقر الى غيره فهو ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فهو محتاج الي المؤثر والحاجة الي المؤثر لاتكون فى حال البقاء والا لزم تكوين الكائن فتلك الحاجة لاتحصل الا فى زمان الحدوث أو فى زمان العدم وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الاجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصا بوقت معين وذلك

خلق

خلق وتقدير ويدل على الحاجة الي الصانع القادر المختار (الثالث) أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الاول فاختصاص كل واحد منها بتلك الاجزاء أمر ممكن ولابد له من مرجح ويعود التقرير الاول (الرابع) النظر الي مقادير هذه الاجرام الفلكية فانها مع اشتراكها فى الحقيقة الفلكية اختص كل واحد منها بمقدار خاص مع أنه لا يمتنع فى العقل وقوعها على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرة فلما قضي صريح العقل بأن المقادير بأسرها على السوية قضى بافتقارها فى مقاديرها الي مخصص مدبر (الخامس) النظر الى أحيازها فان بعض الاجرام الفلكية أعلى من بعض فكل واحد منها فانه يوجد جسم آخر اما أعلى منه واما أسفل منه وقد كان وقوعه على خلاف ذلك الترتيب أمرا ممكنا بدليل أن الاجسام لما كانت متساوية في الطبيعة الجسمية فكل ما صح على بعضها صح على كلها ومتى كان كذلك صح أن العالى يمكن وقوعه سافلا والسافل يمكن وقوعه عاليا فكان اختصاصه بذلك الحيز والترتيب أمرا ممكنا ثم ان بعض الكواكب حصل فى المنطقة وبعضها في القطبين فاختصاص كل واحد منها بموضعه المعين لابد وأن يكون لتخصيص مخصص قادر مختار (السادس) أن الاجرام الفلكية مع تشابهها فى الطبيعة الفلكية كل واحد منها مختص بنوع معين من الحركة في البطء والسرعة فلكل واحد منها حركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة فاختصاص بعضها بالسرعة وبعضها بالبطء عن الآخر ليس الا لمخصص والعقل يقضي بان كل واحد منها انما اختص بما هو عليه بتقدير العزيز العليم (السابع) أنها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق الى المغرب وبعضها من المغرب الي المشرق وبعضها شمالية وبعضها جنوبية مع ان جميع الجهات بالنسبة اليها على السوية فكل حركة وقعت

متوجهة الي جهة فانه يمكن وقوعها متوجهة الي سائر الجهات فاختصاصها بالوقوع على ذلك الوجه الخاص اختصاص بامر ممكن ولا بد له من مخصص مدبر قادر مختار (الثامن) أن كل حركة فانه يمكن وقوعها أسرع مما وقع وابطأ مما وقع فاختصاص تلك الحركة المعينة بذلك المقدار المعين من السرعة والبطء اختصاص بامر ممكن ولا بد له من مخصص مختار (التاسع) أن يقال ان حركاتها اما أن تكون من لوازم جسمانيتها المعينة لكنا نري جسمانيتها المعينة منفكة عن كل واحد من اجزاء تلك الحركة فاذن كل واحد من أجزاء حركته ليس من لوازمه فافتقرت الافلاك في حركاتها الى محرك من خارج وذلك هو محرك المتحركات ومدبر الثوابت والسيارات وهو الحق سبحانه (العاشر) أن هذه الاجسام لا تخلو عن الحركة والسكون المحدثين وما لا يخلو عن المحدث فهو محدث فهذه الاجسام محدثة وكل محدث فقد حصل حدوثه فى وقت معين وذلك خلق وتقدير ولا بد له من الصانع القادر المختار وقد استقصينا فى شرح هذا الوجه في مبحث الوجود من الالهيات (الحادى عشر) أن الحركة والسكون جائزان على كل الاجسام بدليل أن الطبيعة الجسمية واحدة ولوازم الامور الواحدة واحدة فاذا صح السكون والحركة على بعض الاجسام وجب ان يصحا على كلها فاختصاص الجسم الفلكي بالحركة دون السكون اختصاص بامر ممكن ولا بد له من مخصص مختار (الثانى عشر) أن هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الافلاك وائتلاف حركاتها أتري أنها مبنية على حكمة أم هى واقعة بالجزاف والعبث أما القسم الثاني فباطل وبعيد عن العقل فان من جوز في بناء رفيع وقصر مشيد أن التراب والماء انضم احدهما الي الآخر ثم تولد منهما لبنات ثم تركبت تلك الابنات وتولد من تركبها قصر مشيد وبناء عال فانه يقضى عليه بالجنوب ونحن نعلم أن تركيب هذه الافلاك والكواكب

وما

وما لها من الحركات ليس أقل من ذلك البناء فثبت أنه لابد فيها من رعاية
لانه يبعد في المعقول أن يكون مدارهذه الاجسام المستمظمة والحركات الدائمة
على العبث والسفه فلم يبق فى المعقول قسم هو الاليق بالذهاب اليه الا أن
مدبرا قاهرا غالبا على الدهر والزمان يحركها لاسرار مخفية ولحكم لطيفة هو
المستأثر بها والمطلع عليها وليس عندنا الا الايمان بها على الاجمال على ماقال
ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلاسبحانك
(الثالث عشر)أنا نراهامختلفة فى الالوان مثل صفرة عطارد واشراق الزهرة
وبياضها وضياء الشمس وحمرة المريخ ودرية المشترى وكمودة زحل وزهور
القمر واختلاف كل واحد من الكواكب الثابتة بعظم خاص ولون خاص
وتركيب خاص ونراها أيضامختلفة فى الوجوه والحدود والثلثات والذكورة
والانوثة وكون بعضها نهاريا وليليا وسائرا وراجعا ومستقيما وصاعدا وهابطا
مع اشتراكها بأسرها فى الشفافية والصفاء والنقاء في الجوهر فيقضى العقل بأن
اختصاص كل واحد منها بما اختص به لابد وأن يكون بتخصيص مخصص
الرابع عشر أن الاجسام متساويةفى الجسمية لانه يصح تقسيم الجسم الي الفلكى
والمنصرى والكثيف واللطيف والحار والبارد والرطب واليابس ومورد
التقسيم مشترك بين كل الاقسام فالجسمية قدر مشترك بين هذه الصفات
والامور المتساوية في الماهية يجب أن تكون متساوية فى قابلية الصفات فاذن
كل ماصح على جسم صح على غيره فاذن اختصاص كل جسم بما اختص به
من المقدار والوضع والشكل والطبع والصفة لابد وأن يكون من الجائزات
وذلك يقضي بالافتقار الى الصانع القديم جل جلاله وتقدست اسماؤه ولا إله
غيره فهذا هو الاشارة الى معاقد الدلائل المستنبطةمن الافلاك والكواكب
على اثبات الصانع ولا يخفي الاستدلال بها من أجسام السموات والارض

قال صاحب الرسالة الحميدية لننظر الى عالم الكواكب على ما نصت عليه كتب الهيئة عندكم (عند المتأخرين من الفلاسفة) ان كلا منها اختص بخاصية لم توجد فى سواه والبعض منها صغير جدا والبعض منها كبير جدا حتي ان أرضنا بالنسبة اليه كحبة رمل بالنسبة الى كرة قطرها ذراع أو اكثر فان كان قطر أرضنا سبعة آلاف وتسعمائة واثني عشر ميلا ومحيطها الاستوائي أربعة وعشرين الفا وثمانمائة وتسعة وتسعين ميلا فقطر الشمس ثمانمائة واثنان وخمسون الفا وخمسمائة وثمانون ميلا ومحيطها مليونان وستمائة وثمانية وسبعون الفا وخمسمائة ميل وجرمها مثل جرم أرضنا بمليون ومائتين وتسعة وخمسين الفا وسبعمائة مرة ومنها القريب الينا والبعيد عنا بملايين من الاميال ومنها ما يومه وسنته دون يومنا وسنتنا ومنها ما هو أكثر من ذلك بكثير حتي ان سنة زحل تسع وعشرون سنة من سنيننا وسنة أورانوس أربعة وثمانون وسنة نبتون مائة وأربعة وستون وكسور ومنها ما هو بطيء السير فى فلكه ومنها ما هو سريع السير حتي ان المشتري يجرى ثلاثين الف ميل فى الساعة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان مرة وسرعة اجزائه الاستوائية فى دورانه على محوره أربعمائة وسبعة وستون ميلا ومنها ما نوره أحمر ومنها ما نوره أصفر ومنها ما نوره أبيض ومنها غير ذلك ومنها ما نوره أصلي كالشمس والنوابت ومنها ما نوره مكتسب من نور غيره كالقمر وبقية السيارات ومنها ما يخلو عن الحرارة ومنها ما فيه حرارة تبلغ قدراً عظيما فشمسنا على قول بعضكم لو جمعت حرارتها لكانت كافية لان تذيب في يوم واحد مقدارا من الجليد يغطي كل وجه الارض وسمكه احد عشر ميلا والذى يصل من حرها الى الارض هو جزء من الفي مليون وثلاثمائة وواحد وثمانين مليونا ومنها النوابت وهى شموس أضواؤها ذاتية كشمسنا

ومنها

ومنها ما هو ناء عن الشمس يبعد عنها على توالي الايام ومنها ما هو دان اليها كذلك ومنها المتغير يزيد ضوءه تارة وينقص أخرى ومنها الوقتي أي الذي يظهر زمانا قد يكون ممتدا ثم يختفي ولا يعود أصلا ومنها ما نوره لا يصل الينا الا بعد سنين أو مئات من السنين مع ان نور شمسنا يصل الينا بمدة ثماني دقائق وبعض ثوان مع ان الشمس تبعد عنا ماينوف عن تسعين مليون ميل ومنها الشمالي ومنها الجنوبي ومنها المتوسط ومنها الليلي ومنها النهاري ومنها ما يتسع وجهه المنير تارة ويضيق أخرى ومنها ما ليس كذلك ومنها الكاسف ومنها المكسوف ومنها ومنها وهي قائمة في الفضاء سائرة في ابراجها ومنازلها على غاية الضبط والاحكام بحركات مختلفة ودورات متنوعة تضبط بها الاوقات ويعلم منها السنون والاشهر والايام والساعات وتمتاز الفصول بترتيب تحار فيه العقول مما فيه من منافع المخلوقات من نبات وحيوان ومعدن الى غير ذلك مما يعجز عن احصائه اللسان وتكل لديه الفكر ويخسأ البصر فاذا كانت متساوية في أصل المادة وليست مادتها تقتضي تخصيص كل منها بما اختص به عن سواه فيقال بعد ذلك ان الذي خص كل واحد منها بما اختص به ورتبها على نظامها العجيب مشتملة على المنافع حسب مصلحة المخلوقات مع ذلك الاتقان هو حركة أجزائها الفردة أم يقال ان الذي أبدعها كذلك هو العليم المريد القادر الحكيم وقال صاحب الفلسفة الحقة لو قسنا حجم أرضنا نجده لا يذكر بجانب أحجام تلك النجوم الزهر التي تظهر لنا كأنها فصوص الماس الزاهية في قبة زرقاء وقد حسبوا حجم الارض فوجدوه أقل من حجم الشمس بمليون وخمسمائة الف مرة أما الذي يرينا صغر الشمس هو بعدها عنا بمسافة سبعة وثلاثين مليونا من الفراسخ * فالعيب للعين لا للنجم في الصغر * ولكن حجم الشمس الهائل لا يذكر أيضا بجانب حجم نجمة من النجوم

الاخرى الا كما يذكر ذرة من ذرات الهباء بجانب كرة الارض فان الضوء يقطع في الثانية الواحدة خمسة وسبعين الف فرسخ وضوء الشمس التى نعلم حجمها يصل الينا فى مدة ثماني دقائق تقريبا ولكن ضوء أقرب نجمة الينا يصل الينا فى مدة ثلاث سنين ونصف تقريبا فقل لى بعيشك ما يكون حجم هذه الكرة التي تظهر لنا كانها نقطة لعمرى يفني الامداد والاعداد دون الوصول الى ذلك . ثم اننا لو نظرنا الي هذه الكرة الارضية وسائر الاجرام السماوية التي لا يمكن تصور احجامها فضلا عن قياسها نجدها كلها معلقة فى الفراغ أليس ذلك أمراً عجيبا لم نر له من مثال ولم ينسج أحد له على منوال نعم صناعة أكبر من أن يقال انها عجيبة فانا لو لم نرها باعيننا بل نقلها الينا الناقلون لرميناهم بالجنون والهذيان واتهمناهم بكونهم يريدون أن يهزؤا بفضيلتنا لان عقلنا الضعيف لم يسمح لنا بادراك ذلك الصنع الغريب ومن أعجب العجب ان هذه الاجرام (أى غير الثابتة) تؤدي دوراتها بمزيد الدقة والانتظام ولا يمكن أن تقارن بساعة أبدا على رقة أجزاء هذه وضخامة أجزاء تلك فان الساعة مهما اتقنت فلا تسلم من التقديم أو التأخير أما هذه الاجرام فانها لو كانت تؤخر دورتها كل سنة جزأ من الثانية لكنا رأينا الآن في الحركات الجوية اختلافا واختلالا لا يذكر أليست هذه دقة قليل فيها لفظ دقة ولكن عفوا فانى لو كنت أعلم لفظة تعبر دقة انتظام الاجرام السماوية لأتيت بها ولكن ضرورة الحال ألجأتني الى استعمال الصفة التي توصف بها ساعة.... لتلك الاجرام . ولكن أى جاذبية تجذبها الي بعضها وتجعلها واقفة في الفراغ وهل سمعنا بشيء واقف فى الفراغ بدون مانع يمنعه من السقوط كلا ولا ذرة من الهباء فكيف ان هذه الاجرام التي لا يتصور العقل لها حدا ولا جرما لا تتناثر على بعضها لو قيل حصل ذلك بجاذبية تؤثر من كل منها على الآخر

وهي

وهي تشبه جذب المغناطيس فبميشك أى هندسة وضعت هـذه الجاذبية متناسبةهذا التناسب المحكم الذي لا يتصوره العقل لغرابته لان فى الاجرام مالا يقدر بالنسبة لغيره الا كما تعد الحصاة الصغيرة بجانب كرة الارض فيلزم بالطبع لكل منها جاذب متناسب بالنسبة للكوكب الذي فوقه وهو كبير مثلا مع عدم اختلال هذا التناسب مع الكوكب الذي تحتهوهو صغير مثلا مع حفظ ذلك التناسب أيضاً مع الذي على يمينه والذي على يساره وربما كانا مختلفين في الاحجام . لعمري لو كان ذلك بجاذبية كجاذبيـة المغناطيس فهى صناعة لا تحوم حول ادراكها العقول ولا تطمع في استكناهها الفحول .ولكن كيف تشبه هذه الجاذبية بجاذبية المغناطيس فان كان كذلك فلم نرى بعض النجوم سيارة لانه كان يلزم على التجاذب المتكافئ وقوف سائر هذه الاجرام لانا نعلم ان اقتراب وابتعاد جسمين ممغطسين من بعضهما يحدث تغيرا فى درجة الجذب ومن المعلوم أنه بتسيار ودوران بعض هذه الاجرام لا بد أن تبعد عن بعض النجوم وتقرب من البعض الآخر وينبنى على ذلك اختلال فى الجاذبية العامة اذن ليس هذا التجاذب يشبه تجاذب الاجسام الممغطسة بل هى صناعة تحير الافهام ويعلم دقتها العلماء الاعلام .وقال صاحب صفوة الاعتبار ان حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف والتحاليل والآلات الي ما لم تبلغه فلاسفة الاقدمين حتى زيفوا لهم كثيرا من خرافاتهم وبينوا خطأهم فهؤلاء حذاقهم قد أقروا بانه لا بد من خالق لما هو موجود اذ مايعللون به كثيرا من الاشياء من قولهم الجاذبية والنواميس الطبيعية وغير ذلك قد صرحوا بأنها عبارات اصطلاحية والا فحقائقها أمور مجهولة يلتزم متتبعها بالاعـتراف بالصانع فمن هؤلاء الحكيم المتبحر فيلكس لامروس وهو من مشاهير فحول علمائهم فى القرن التاسع عشر المسيحي حتى أن كتابه فى الجغرافية الطبيعية الموسوم

بالدراسة الاولية عليه مدار تعاليمهم فى المدارس واختير للتعريب ليعلم ويعمل
به في المدارس المصرية وقد صرح هذا فى كتابه المذكور في مبحث الجوّ وكرة
الهواء بقوله واذا نرض زوال التثاقل العمومي من الهواء فانه يتشتت فى الفضاء
الي أن قال لكن الحكمة الالهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها فى
مواضعها الشاغلة هي لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا فعلها تسمى بالجذب وهي
كلمة يعلم منها الفعل لا السبب اذ هذا الاخير مع كثرة بحث الطبيعيين عنه
وتفتيشهم عليه لم يزل مجهولا الي الآن وعلى المتولع بدراسة العلوم أن لا يأخذ
بظواهر مثل هاته الكلمات العلمية (المصطلح عليها بين علماء الطبيعة) التي يوضح
بها سبب أو أسباب طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث فاذا قيل هنا مثلا
ان الاجرام تزن أو تثقل لانها مجذوبة لغيرها أو أنها جارية على مقتضى
نواميس الجذب كان ذلك الدور المعيب الى كلامه آخر. وقال الامام حجة الاسلام
اعلم أن ملكوت السموات وما فيها من الكواكب هو الامر كله ومن أدرك
الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهواء
وكل جسم سوي السموات بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر وأصغر
ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه فما من سورة الا
وتشتمل على تفخيمها في مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى
والسماء ذات البروج والسماء والطارق والسماء ذات الحبك والسماء وما بناها
وكقوله تعالي والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها وكقوله تعالي فلا أقسم
بالخنس الجوار الكنس وقوله تعالى والنجم اذا هوى فلا أقسم بمواقع النجوم
وانه لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها
الاولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال
الارزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالي وفى السماء رزقكم وما توعدون وأثني

على المتفكرين فيه فقال ويتفكرون فى خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلتيه أي تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظاوهم عن آياتها معرضون فأي نسبة لجميع البحار والارض الى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير الي أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالي محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقال سبحانه وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فانظر الي الملكوت لتري عجائب العزة والجبروت ولا تظنن أن معني النظر الي الملكوت بأن تمد البصر اليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم تشاركك في هذا النظرفان كان هذا هوالمراد فلم مدح الله تعالي ابراهيم بقوله وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل مايدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الابصارفيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالي عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشىء من علمه الا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضي من رسول فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها الي أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال رأى قلبي ربى وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة الادنى وأدنى شيء اليك نفسك ثم الارض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ثم عجائب الجوّ وهو ما بين السماء والارض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان

السموات ثم منه تجاوز النظر الي رب العرش والكرسي والسموات والارض وما بينهما فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيما ذا أتفكر والي ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك الي السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجري جميعها في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها الله تعالى طيّ السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل الى الحمرة وبعضها الي البياض وبعضها الي اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والاسد والانسان وما من صورة في الارض الا ولها مثال فى السماء ثم انظر الي مسير الشمس في فلكها فى مدة سنة ثم هي تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالي الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الي امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف وعجائب السموات لا مطمع فى احصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب الا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم

في

في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك اذ ما من جزء الا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الارض الي عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الارض فأنت تعرف من كبر الارض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون (من المتقدمين) على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة وفي الاخبار مايدل على عظمها ثم الكواكب التي تراها أصغرها (عند المتقدمين) مثل الارض ثمان مرات وأكبرها (عندهم) ينتهي الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها اذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الي بعدها فقال رفع سمكها فسواها وفي الاخبار ان مابين كل سماء الى الاخري مسيرة خمسمائة عام فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الارض أضعافا فانظر الي كثرة الكواكب ثم انظر الي السماء التي الكواكب مركوزة فيها والي عظمها ثم انظر الي سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لان الزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه يسير وكذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبي صلي الله عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حيث قلت لا الى ان قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام فانظر الي عظم شخصها ثم الى خفة حركتها

ثم انظر الي قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع اكنافها في حدقة العين مع صغرها حتي تجلس على الارض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر اليها بل انظر الي بارئها كيف خلقها ثم امسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والي سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الارض التي هي من اجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له سبب الا انه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ماتأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وان صدقوك في مودتهم اياك فلا يملكون لك ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصاري من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر الي جلال مالك الملك والملكوت ومامثلك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجواري والغلمان

وانواع

وأنواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الي غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بذيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات ألا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيما واحتراما حتى أن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالي وتصنيفه وتأليفه وكل مافى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وانما لكل عبد منها بقدر مارزق وكل مانظرنا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة فى السماء والارض الا والله سبحانه وتعالي يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء فمن نظر فى هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منها المعرفة بجلال الله تعالي وعظمته واهتدي بها ومن نظر فيها قاصرا النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض

لامن حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقى وارتدي فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلةأقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته

المطلب الثالث فى كيفية التفكر في خلق السموات والكواكب على مقتضى ماتدل عليه

(الآيات القرآنية)

قال الله تعالي فيسورة البقرة (الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) أي جعلها قبة مضروبة عليكم قال الجاحظ اذا تأملت فيهذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل مايحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منورة كالمصابيح والانسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه وضروب الحيوان مصروفة فى مصالحه فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غيرمتناهية*وقال تعالي فىسورة الانعام (وكذلك نري ابراهيم) هذه الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتهاوذلك اشارة الي الاراءة التى تضمنها قوله نري لا الي اراءة أخرى يشبه بها هذه الاراءة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والمعني كذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام (ملكوت السموات والارض) أي ربوبيته تعالي ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيراً آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت

والجبروت

والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر والاظهر انه مختص بملك الله عز سلطانه وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والاشجار والبحار وهذه الاقوال لا تقتضى ان تكون الاراءة بصرية اذ ليس المراد باراءة ما ذكر من الامور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤنه عز وجل ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبئ عنه اسم الاشارة المفصح عن كون المشار اليه أمرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة قال الامام فخر الدين انه ليس المقصود من اراءة الله ابراهيم ملكوت السموات والارض هو مجرد ان يري ابراهيم هذا الملكوت بل المقصود ان يراها فيتوسل بها الى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته ومعلوم ان مخلوقات الله وان كانت متناهية في الذات وفي الصفات الا أن جهات دلالتها على الذات والصفات غير متناهية وذلك لان الجوهر الفرد يمكن وقوعه فى أحياز لا نهاية لها على البدل ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل وكل تلك الاحوال التقديرية دالة على حكمة الله تعالى وقدرته واذا كان الجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ كذلك فكيف القول فى ملكوت الله تعالي فثبت ان دلالة ملك الله تعالي وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية وحصول المعلومات التى لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال فاذن لا طريق الى تحصيل تلك المعارف الا بان يحصل بعضها عقيب البعض لا الي نهاية ولا الي آخر فى المستقبل فلهذا السبب والله أعلم لم يقل وكذلك أريناه ملكوت السموات والارض بل قال وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض فان قيل رؤية البصيرة حاصلة لجميع

الموحدين كرؤية البصر ومقام الامتنان يأبي ذلك قلنا جميع الموحدين وان كانوا يعرفون أصل دليل الربوبية الا أن الاطلاع على آثار حكمة الله تعالي فى كل واحد من مخلوقات هذا العالم بحسب أجناسها وأنواعها وأصنافها وأشخاصها وأحوالها مما لا يحصل الا للاكابر من الانبياء عليهم السلام ولهذا كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه اللهم أرنا الاشياء كما هي (وليكون من الموقنين) أي وليكون من زمرة الراسخين في الايقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فان الوصول الى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لا وارشاد الخلق والزام المشركين من فوائده بل لبيان انه الاصل الاصيل والباقى من مستتبعاته قال الامام فخر الدين واعلم ان الانسان في أول ما يستدل فانه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه فاذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سببا لحصول اليقين وذلك لوجوه . الاول انه يحصل من كل واحد من تلك الدلائل نوع قوة فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهي الي الجزم . الثانى ان كثرة الافعال سبب لحصول الملكة فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجري تكرار الدرس الواحد فكما ان كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذى لا يزول عن القلب فكذا ههنا . الثالث ان القلب عند الاستدلال كان مظلما جدا فاذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الاول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة فاذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الاولي فيصير الاشراق واللمعان أتم وكما ان الشمس اذا ظهرت من المشرق ظهر

نورها في أول الامر متغيراً ثم لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس فاذا وصلت الي سمت الرأس حصل النور التام فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلي الا أن الفرق بين شمس العلم وبين شمس العالم ان شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين لا يمكن ان يزاد عليه في الصعود وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لازديادها فقوله وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض اشارة الي مراتب الدلائل والبينات وقوله وليكون من الموقنين اشارة الي درجات أنوار التجلي وشروق شمس المعرفة والتوحيد (فلما جنّ عليه الليل) أي ستره بظلامه (رأي كوكباً) قيل هو الزهرة وقيل هو المشتري (قال هذا ربي) وهذا القول ليس الغرض منه اثبات ربوبية الكوكب لان الانبياء معصومون وانه لا يجوز ان يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الاوقات الا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على ابراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والارض أفبرؤية الكوكب يعتقد ربوبيته حاشا ابراهيم صلي الله عليه وسلم من ذلك لان منصبه أعلى وأشرف من ذلك صلى الله عليه وسلم بل قوله هذا ربي يحتمل وجوها سبعة كما ذكره الامام فخر الدين. الاول أن يقال ان ابراهيم عليه السلام لم يقل هذا ربي على سبيل الاخبار بل الغرض منه انه كان يناظر عبدة الكوكب وكان مذهبهم ان الكوكب ربهم والههم فذكر ابراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتي يرجع اليه فيبطله ومثاله ان الواحد منا اذا ناظر من يقول بقدم الجسم فيقول الجسم قديم فاذا كان كذلك فلم نراه ونشاهده مركبا متغيرا فهو انما قال الجسم قديم

اعادة لكلام الخصم حتى يلزم المحال عليه فكذا ههنا قال هذا ربي والمقصود منه حكاية قول الخصم ثم ذكر عقيبه ما يدل على فساده وهو قوله لا أحب الآفلين والدليل على هذا الوجه انه تعالي دل على هذه المناظرة بقوله تعالي وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه * والوجه الثاني في التأويل ان نقول قوله هذا ربى معناه هذا ربى فى زعمكم واعتقادكم ونظيره ان يقول الموحد للمجسم على سبيل الاستهزاء ان الهه جسم محدود أي فى زعمه واعتقاده قال تعالي وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا وقال تعالي ويوم يناديهم فيقول أين شركائي وكان صلوات الله عليه يقول يا اله الالهة والمراد انه تعالي اله الالهة في زعمهم وقال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أى عند نفسك * والوجه الثالث في الجواب ان المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار والتوبيخ لقومه وتقديره أهذا ربي الذى تزعمون واسقاط حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى أفاءن مت فهم الخالدون والمعني أيكون هذا ربا ودلائل النقص فيه ظاهرة * والوجه الرابع ان يكون القول مضمرا فيه والتقدير قال يقولون هذا ربي واضمار القول كثير كقوله تعالي واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا أى يقولان ربنا وقوله والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى أى يقولون ما نعبدهم فكذا ههنا التقدير ان ابراهيم عليه السلام قال لقومه يقولون هذا ربى أى هذا الذى يدبرني ويربيني * والوجه الخامس ان يكون ابراهيم ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوما هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء * الوجه السادس انه صلى الله عليه وسلم أراد ان يبطل قولهم بربوبية الكواكب الا انه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لاسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل انه لو صرح بالدعوة الى الله تعالي لم يقبلوه

ولم يلتفتوا اليه فمال الى طريق به يستدرجهم الي استماع الحجة وذلك بان ذكر
كلا ما يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع ان قلبه
صلوات الله عليه كان مطمئنا بالايمان ومقصوده من ذلك ان يتمكن من ذكر الدليل
على ابطاله وافساده وأن يقبلوا قوله وتمام التقرير انه لما لم يجد الي
الدعوة طريقا سوى هذا الطريق وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة الي الله
كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر ومعلوم أن عند الاكراه يجوز اجراء
كلمة الكفر على اللسان قال تعالى الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان فاذا جاز
ذكر كلمة الكفر لمصلحة بقاء شخص واحد فبأن يجوز اظهار كلمة الكفر
لتخليص عالم من العقلاء عن الكفر والعقاب المؤبد كان ذلك أولي وأيضا
المكره على ترك الصلاة لو صلى حتي قتل استحق الاجر العظيم ثم اذا جاء وقت
القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الاسلام فههنا
يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال حتى لو صلى وترك القتال أثم ولو
ترك الصلاة وقاتل استحق الثواب بل نقول ان من كان فى الصلاة فرأي طفلا
أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة لانقاذ ذلك
الطفل أو ذلك الاعمى عن ذلك البلاء فكذا ههنا ان ابراهيم عليه السلام تكلم
بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى اذا أوردعليهم الدليل المبطل
لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل ومثل هذا كمثل
الحوارى الذي ورد على قوم كانو يعبدون صنما فاظهر تعظيمه فاكرموه لذلك
حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم الي أن دهمهم عدو لاقبل
لهم به فشاوروه فى أمر هذا العدو فقال الرأى عندى أن تدعوا هذ الصنم
حتى يكشف عنا ما نزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون اليه فلم يغن
شياء فلما تبين لهم أنه لا يضر ولا ينفع ولا يدفع دعاهم الحوارى وأمرهم أن

يدعوا الله عز وجل ويسألوه ان يكشف عنهم مانزل بهم فدعوا الله مخلصين
فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعا ومما يقوي هذا الوجه أنه تعالي
حكي عنه مثل هذا الطريق فى موضع آخر وهو قوله فنظر نظرة فى النجوم
فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على
حصول الحوادث المستقبلة فوافقهم ابراهيم على هذا الطريق فى الظاهر مع أنه
كان بريئا عنه فى الباطن ومقصوده أن يتوسل بهذا الطريق الى كسر الاصنام فاذا
جازت الموافقة في الظاهر ههنا مع أنه كان بريئا عنه فى الباطن فلم لايجوز
ان يكون فى مسئلتنا كذلك وأيضا المتكلمون قالوا انه يصح من الله تعالى
اظهار خوارق العادات على يدمن يدعى الالهية لان صورة هذا المدعى وشكله
يدل على كذبه فلا يحصل فيه التلبيس فكذا ههنا وقوله هذا ربى لا يوجب
الضلال لان دلائل بطلانه جلية وفى اظهاره هذه الكلمة منفعة عظيمة
وهى استدراجهم لقبول الدليل فكان جائزا والله أعلم * الوجه السابع أن
القوم لمادعوه الي عبادة النجوم فكانوا فى تلك المناظرة الي ان طلع النجم
الدرى فقال ابراهيم عليه السلام هذا ربى اى هذا هو الرب الذي تدعونني اليه ثم
سكت زمانا حتي أفل (فلما أفل) أي غاب (قال لاأحب الآفلين) أى الارباب
المنتقلين من مكان الي مكان المتغيرين من حال الي حال المحتجبين بالاستار
فانهم بمعزل عن استحقاق الربوبية قطعاً قال الامام فخر الدين ولسائل أن
يسأل فيقول الافول انما يدل على الحدوث من حيث انه حركة وعلي هذا
التقدير فيكون الطلوع أيضاً دليلا علي الحدوث فلم ترك ابراهيم عليه السلام
الاستدلال على حدوثها بالطلوع وعول في اثبات هذا المطلوب على الأفول
قال والجواب لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان فى الدلالة على الحدوث
ألا أن الدليل الذى يحتج به الانبياء في معرض دعوة الخلق كلهم الي الله لابد

وان

وان يكون ظاهراً جلياً بحيث يشترك فى فهمه الذكي والغبي والعاقل ودلالة
الحركة علي الحدوث وان كانت يقينية الا انها دقيقة لا يعرفها الا الافاضل
من الخلق أما دلالة الافول فانها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحدفان الكوكب
يزول سلطانه وقت الافول فكانت دلالة الافول على هذا المقصود أتم
وأيضاً قال بعض المحققين الهوي في خطرة الامكان أفول وأحسن الكلام
مايحصل فيه حصة الخواص وحصة الاوساط وحصة العوام فالخواص
يفهمون من الافول الامكان وكل ممكن محتاج والمحتاج لا يكون مقطوع
الحاجة فلا بد من الانتهاء الى من يكون منزها عن الامكان حتي تنقطع
الحاجات بسبب وجوده كما قال وأن الى ربك المنتهى وأما الاوساط فانهم
يفهمون من الافول مطلق الحركة فكل متحرك محدث وكل محدث فهو
محتاج الي القديم القادر فلا يكون الآفل الها بل الاله هو الذي احتاج اليه
ذلك الآفل وأما العوام فانهم يفهمون من الافول الغروب وهم يشاهدون
ان كل كوكب يقرب من الافول والغروب فانه يزول نوره وينتقص ضوءه
ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ومن يكون كذلك لا يصلح الالهية
فهذه الكلمة الواحدة أعنى قوله لا أحب الآفلين كلمة مشتملة على نصيب
المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت اكمل الدلائل وأفضل البراهين
وفيه دقيقة أخرى وهو انه عليه السلام انما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين
ومذهب أهل النجوم ان الكوكب اذا كان فى الربع الشرقى ويكون صاعدا
الي وسط السماء كان قويا عظيم التأثير وأما اذا كان غربيا وقريبا من الافول
فانه يكون ضعيف التأثير قليل القوة فنبه بهذه الدقيقة على ان الاله هو الذي
لا تتغير قدرته الى العجز وكماله الي النقصان ومذهبكم ان الكوكب حال كونه
في الربع الغربي يكون ضعيف القوة ناقص التأثير عاجزا عن التدبير وذلك

يدل على القدح فى ألهيته فظهر على قول المنجمين ان للافول مزيد خاصية فى كونه موجبا للقدح في الهيته فان قيل لا شك ان تلك الليلة كانت مسبوقة بنهار وليل وكان أفول الكواكب والقمر والشمس حاصلا فى الليل السابق والنهار السابق وبهذا التقرير لا يبقى للافول الحاصل فى تلك الليلة مزيد فائدة والجواب انا بينا انه صلوات الله عليه انما أورد هذا الدليل على الاقوام الذين كان يدعوهم من عبادة النجوم الى التوحيد فلا يبعد ان يقال انه عليه السلام كان جالسا مع أولئك الاقوام ليلة من الليالي وزجرهم عن عبادة الكواكب فبينما هو فى تقرير ذلك الكلام اذ وقع بصره على كوكب مضيء فلما أفل قال ابراهيم عليه السلام لو كان هذا الكوكب الها لما انتقل من الصعود الي الافول ومن القوة الى الضعف ثم فى أثناء ذلك الكلام طلع القمر (فلما رأي القمر بازغا) أى مبتدئا في الطلوع (قال هذا ربى فلما أفل) كما أفل النجم (قال لئن لم يهدني ربى) يعنى ان لم يثبتنى ربي على الهدى (لاكونن من القوم الضالين) فان شيأ مما رأيته لا يليق بالربوبية وهذا تعريض لقومه بأنهم على ضلال وانما عرض بضلالهم في أمر القمر لانه أيس منهم فى أمر الكوكب ولو قاله فى الاول لما أنصفوا ولا أصغوا ولهذ صرح فى الثالثة بالبراءة منهم وأنهم على شرك أى فالتعريض هنا لاستدراج الخصم الى الاذعان والتسليم أفاده الكرخي وأيضا فان الانبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله واجنبني وبنيّ أن نعبد الاصنام فليس المراد أنه لم يكن متهديا لان الانبياء لم يزلوا على الهداية من أول الفطرة (فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) من الكواكب والقمر جرما وضوأ ونفعا وفيه اشارة خفية الي فساد دينهم من جهة أخري بيان أن الاكبر أحق بالربوبية من الاصغر (فلما أفلت) هى أيضا كما أفل الكوكب والقمر (قال) مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم (ياقوم انى

برىء مما تشركون) أي من الذي تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة من حالة الي أخرى المسخرة لمحدثها أو من اشراككم قال العلامة أبو السعود وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وان كان في نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا لكن لما كان الاول حالة موجبة لظهور الآثار والاحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة رتب عليها الحكم الاول على الطريقه المذكورة وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الاحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها مارتب ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه الي مبدع هذي المصنوعات ومنشئها فقال (اني وجهت وجهى) أى أخلصت ديني وعبادتي وجعلت قصدي (للذى فطر السموات) التى هذه الاجرام التى تعبدونها من أجزائها (والارض) التى تغيب هي فيها (حنيفا) أي مائلا عن الاديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها (وما أنا من المشركين) فى شيء من الاقوال والافعال * وقال تعالى فى سورة الانعام أيضا (وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا) أى على أدوار مختلفة يحسب بها الاوقات فانه تعالي قدر حركة الشمس بمقدار من السرعة والبطء بحيث تتم دورتها فى سنة وقدر حركة القمر بحيث تتم الدورة فى شهر وبهذا التقدير تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الاربعة كنضج الثمار وامور الحرث والنسل ونحو ذلك مما يتوقف عليه قوام العالم وباختلاف منازل القمر وتجدد الاهلة في كل شهر يعلم آجال الديون ومواقيت الاشياء فمعنى جعل الشمس والقمر حسبانا جعلهما على حساب فالحسبان بالضم بمعنى الحساب والعد وبابه نصر أو الباء محذوفة وهو حال من مقدر أي يجريان بحسبان فهو منصوب بنزع الخافض والمعنى

أنه تعالى قدر حركة الشمس والقمر فى الفلك بحسبان معين (ذلك) اشارة الي جعلها حسبانا وما فيه من معني البعد للأيذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته أي ذلك التسيير البديع بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) الذى قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص (العليم) بما فيهما من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم (وهو الذي جعل لكم) أي أنشأ لاجلكم وأبدع (النجوم) التى تختلف مواضعها من جهة الشمال والجنوب والصبا والدبور (لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أي فى ظلمات الليل في البر والبحر وأضافتها اليهما للملابسة فان الحاجة الي الاهتداء بها انما تحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة قال الحدادي لتعرفوا بها الطرق من بلد من الي بلد فى المفاوز ولجج البحار في الليالي المظلمة فى السفن فان من النجوم ما يجعله السائر تلقاء وجهه . ومنها ما يجعله على يمينه . ومنها ما يجعله على يساره . ومنها ما يجعله خلفه لتظهر له الطريق التى تؤديه الى بغيته قال صاحب الفلسفة الحقة فائدة النجوم الاهتداء بها فى ظلمات البحار وقطع امتداداتها الهائلة فلولاها لما أمكنت المواصلات بين البلدان السحيقة التى يترتب على اتصالها ببعضها قيام أود الحياة على هذه الكرة والا فما كانت تصنع البلاد المعدنية التى لاتفى مزروعات أهلها لمعيشتهم اذا حرمت من الاتصال بالبلاد الزراعية . وهكذا كل الامم مهما كانت اشتغالات أهلها لا بد لها من التعارف بجملة أمم مشهورة بخصائص أخرى حتي تتبادل بينهم المعاملة فلو لم تكن هذه النجوم فمن الذي كان يمكنه أن يلقى بنفسه الي ظلمات المحيط الا طلانتيك أو الباسيفيك وبذلك ما كانت تتعارف الامم وما كان الناس تبعاً لذلك الاهمجيين اذن فاشراق نجوم السماء هو اشراق السعادة والرفاء ولولاها أيضاً لهلك خلق كثير تحت كلاكل السغب والظمأ كيف لا ولا

يخفى

يخفى أن أغلب سكان المعمورة أقوام غير متمدّنين وكثير منهـم يرحلون من محلة الي محلة تبعاً للخصب والامحال فقل بعيشك كيف كانت تقطع هذه الامم تلك السباسب لتبحث عن واد كثر كلأه وماءه مع علم الكل أنه لا هادي لهذه القبائل الرحل النزل الا نجوم السماء فى الليلة الظلماء . أيخبطون خبط عشواء وقال الامام فخر الدين من الدلائل الدالة على كمال القدرة والرحمة والحكمة هو أنه تعالي خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهى من وجوه (الاول) أنه تعالي خلقها لتهتدي الخلق بها الي الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر حيث لا يرون شمساً ولا قمراً لان عند ذلك يهتدون بها الى المسالك والطرق التى يريدون المرور فيها (الثانى) وهو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة وسائر المصالح الدينية والدنيوية (الثالث) انه يمكن أن يقال ان المعطل ينفى كونه تعالي فاعلا مختاراً فهو تعالي خلق هذه النجوم ليهتدي بها فى اثبات ذلك لانا نشاهد هذه الكواكب مختلفة فى صفات كثيرة فبعضها سيارة وبعضها ثابتة والثوابت بعضها فى المنطقة وبعضها فى القطبين وأيضا الثوابت لامعة والسيارة غير لامعة وأيضاً بعضها كبيرة درية عظيمة الضوء وبعضها صغيرة خفية قليلة الضوء وأيضا قدروا مقاديرها على مراتب كثيرة اذا عرفت هذا فنقول ان الاجسام متماثلة ومتى كان الامر كذلك كان اختصاص كل واحد منها بصفة معينة دليلا على ان ذلك ليس إلا بتقدير الفاعل المختار . الرابع انه تعالى ذكر فى بعض السور كون هذه الكواكب زينة للسماء فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وقال تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وقال والسماء ذات البروج . الوجه الخامس في منافع هذه الكواكب ما ذكره الله تعالي فى قوله ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا فنبه

على سبيل الاجمال على أن في وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة وليس كل ما لا يحيط عقلنا به على التفصيل وجب نفيه فمن أراد ان يقدر حكمة الله تعالى فى ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه فقد ضل ضلالا مبينا (قد فصلنا) أي بينا (الآيات) الدالة على قدرتنا وتوحيدنا (لقوم يعلمون) يتفكرون في الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال * وقال تعالي في سورة الاعراف (والشمس والقمر والنجوم) أي وخلق الشمس والقمر والنجوم فهي بالنصب عطفا على السموات من قوله تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات وفى قراءة بالرفع مبتدأ خبره (مسخرات) أي مذللات لما يراد منها من طلوع وأفول وسير ورجوع (بامره) بقدرته وارادته اذ ليس هى قادرات بانفسهن وانما يتصرفن في متصرفاتهن على ارادة المدبر لهن الحكيم فى تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن فان الاجسام متماثلة ومتى كان كذلك كان اختصاص جسم الشمس بذلك التسخير الشديد والتدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسفلى لابد وأن يكون لاجل أن الفاعل الحكيم والمقدر العليم خص ذلك الجسم بهذه الصفات وهذه الاحوال فجسم كل واحد من الكواكب والنيرات كالمسخر فى قبول تلك القوى والخواص عن قدرة المدبر الحكيم الرحيم العليم وأيضا ان لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب سيرا خاصا بطيئا من المغرب الى المشرق وسيرا آخر سريعا فالحق سبحانه قهرها على التحرك من المشرق الى المغرب على خلاف مقتضى طبائعها فاجرام الافلاك والكواكب دارت كالمسخرة لهذا القهر والقسر * وأيضا ان اجسام العالم على ثلاثة أقسام منها ماهى متحركة الى الوسط وهى الثقال ومنها ماهي متحركة عن الوسط وهى الخفاف ومنها ماهى متحركة على الوسط وهي الاجرام الفلكية الكوكبية فانها مستديرة حول الوسط فكونها

مستديرة

مستديرة حول مركزها لاعنه ولااليه لايكون الا بتسخير الله وتدبيره
حيث خص كل واحد من هذه الاجسام بخاصة معينة وصفة معينة وقوة
مخصوصة فلهذا السبب قال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره
وأيضا فلكل واحد من الكواكب مدارات مخصوصة وحركات مخصوصة
في السرعة والبطء ثم انه سبحانه رتب مجموع هذه الحركات على اختلاف
درجاتها وتفاوت مراتبها سببا لحصول المصالح في هذا العالم كما قال في أول
سورة البقرة ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات أي سواهن على
وفق مصالح هذا العالم وهو بكل شيء عليم أي هو عالم بجميع المعلومات فيعلم
أنه كيف ينبغي ترتيبها وتسويتها حتي تحصل مصالح هذا العالم فهذا أيضا نوع
عجيب في تسخير الله تعالى هذه الافلاك والكواكب فتكون داخلة تحت
قوله والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره والسبب في افراد الشمس
والقمر بالذكر مع أنهما من النجوم أنه تعالى جعلهما سببا لعمارة هذا العالم
والاستقصاء في تقريره لا يليق بهذا الموضع فالشمس سلطان النهار والقمر
سلطان الليل والشمس منفعتها في التسخين والقمر منفعته في الترطيب وتولد
المواليد الثلاثة أعني المعادن والنبات والحيوان لا يتم ولا يكمل الا بالحرارة
والرطوبة ثم انه تعالي خص كل كوكب بخاصة عجيبة وتدبير غريب لا يعرفه
بتمامة الا الله تعالى وجعله معيناً لهما في تلك المنافع والمباحث المستقصاة في
علم الهيئة تدل على أن الشمس كالسلطان والقمر كالنائب وسائر الكواكب
كالخدم فلهذا السبب بدأ الله سبحانه بذكر الشمس وثني بالقمر ثم أتبعه
بذكر سائر النجوم (ألاله الخلق والأمر) فانه الموجد للكل والمتصرف
فيه على الاطلاق (تبارك الله رب العالمين) أي تعالي بالوحدانية في الالوهية
وتعظم بالتفرد في الربوبية واعلم ان البركة لها تفسيران أحدهما البقاء والثبات

والثانى كثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة وكلا التفسيرين لا يليق الا بالحق سبحانه فان حملته على الثبات والدوام فالثابت والدائم هو الله تعالي لانه الموجد الواجب لذاته العالم لذاته القائم بذاته الغنى في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنهي الافتقارات وهو غنى عن كل ما سواه فى جميع الامو وأيضاً ان فسرنا البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكل بهذا التفسير من الله تعالي لانه الواجب لذاته وكل ما سواه ممكن وكل ممكن فلا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته فكل الخيرات منه وكل الكمالات فائضة من جوده واحسانه فلا خير الا منه ولا احسان الا من فيضه ولا رحمة الا وهى حاصلة منه فلما كان الخلق والامر ليس الا منه لا جرم كان الثناء المذكور بقوله فتبارك الله رب العالمين لايليق الا بكبريائه وكمال فضله ونهاية جوده ورحمته قال العلامة البيضاوي وتحقيق الآية والله أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالي لانه الذى له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فابدع الافلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار اليه بقوله تعالي فقضاهن سبع سموات في يومين وعمد الي ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها بالصور نوعية متباينة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالي خلق الارض فى يومين أى ما في جهة السفل في يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادّها أولا وتصويرها ثانيا كما قال تعالى بعد قوله خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الاولين ثم لما تم له عالم الملك عمد الي تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الامر من السماء الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والايام ثم صرح بما هو

نتيجة ذلك فقال ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين * وقال تعالى فى سورة الاعراف أيضا (أولم ينظروا) الهمزة للاءنكار والتعجيب والتوبيخ باخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والانفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم أي أكذبوا بآياته تعالى ولم ينظروا نظر تأمل (في ملكوت السموات والارض) أى فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال القدرة (وما خلق الله) أي وفيما خلق فيهما (من شيء) بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشيء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالي وبسائر شؤنه التي تنطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادها فى المدلول فان كل فرد من أفراد الاكوان مما عز وهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الي عالم التوحيد قال الامام فخر الدين كل ذرة من ذرات عالم الاجسام والارواح هى برهان باهر ودليل قاهر على التوحيد ولنقرر هذا المعنى بمثال فنقول ان الضوء اذا وقع علي كوة البيت ظهر الذرات والهباآت فلنفرض الكلام في ذرة واحدة من تلك الذرات فنقول انها تدل على الصانع الحكيم من جهات غير متناهية وذلك لانها مختصة بحيز معين من جملة الاحياز التي لانهاية لها في الخلاء الذى لانهاية له وكل حيز من تلك الاحياز الغير المتناهية فرضنا وقوع تلك الذرة فيه كان اختصاصها بذلك الحيز المعين من الممكنات والجائزات والممكن لابد له من مخصص ومرجح وذلك المخصص ان كان جسما عاد السؤال فيه وان لم يكن فهو الله سبحانه (لأنه لايمكن اثبات وجود غيره من المجردات بمجرد الوهم بل لابد من الرجوع فى ذلك الي الادلة السميعة وقد تطابقت مع الادلة العقلية على

أن الموجد والمبدع لاي شيء كان من الاشياء هو إله واحد أحد) وايضاً فتلك الذرة لاتخلو عن الحركة والسكون وكل ماكان كذلك فهو محدث وكل محدث فان حدوثه لا بد وان يكون مختصاً بوقت معين مع جواز حصوله قبل ذلك وبعده فاختصاصه بذلك الوقت المعين الذي حدث فيه لا بد وان يكون بتخصيص مخصص قديم فان كان ذلك المخصص جسما عاد السؤال فيه وان لم يكن جسما فهو الله سبحانه وتعالي وأيضا ان تلك الذرة مساوية لسائر الاجسام فى التحيز والحجمية ومخالفة لها فى اللون والشكل والطبع والطعم وسائر الصفات واختصاصها بكل تلك الصفات التى باعتبارها خالفت سائر الاجسام لابد وأن يكون من الجائزات والجائز لابد له من مرجح وذلك المرجح ان كان جسما عاد البحث الاول فيه وان لم يكن جسما فهو الله سبحانه فثبت أن تلك الذرة دالة على وجود الصانع من جهات غير متناهية واعتبارات غير متناهية وكذا القول فى جميع أجزاء العالم الجسمانى والروحاني مفرداته ومركباته وسفلياته وعلوياته وعند هذا يظهر لك صدق ماقال الشاعر

وفي كل شيء له آيه * تدل على انه واحد

انتهي كلام الامام فخر الدين وهو يشير الى أن هذا الغبار الدقيق جدا الذي يظهر أنه سابح فى الهواء ويشاهد فى الحزمة الضوئية من الشعاع الشمسي الداخل من ثقب مثلا فى قاعة مظلمة هو من الآيات العجيبة فانه لايمكن مشاهدته فى غير ذلك من الاجزاء المستضيئة بالشعاع ولذلك اختلف المتأخرون من الطبيعيين في أنه هل ينسب هذا الغبار للجو أو هو أجسام مكروسكوبية أعنى لاتشاهد الا بالنظارات المعظمة أو أنه يحتوي على اصول هذه الاجسام قال بعض المحققين منهم هذا كله مجهول وما عندنا في طبيعته الحقيقية الآ آراء فرضية غير محققة *وقال تعالى فى سورة يونس (هو الذي جعل

الشمس

الشمس ضياء) أى ذات ضياء (والقمر نوراً) أي ذات نور وهذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالي وو حدته وعلمه وقدرته وحكمته وبيان ذلك أنه يقال ان الاجسام لا شك أنها متساوية فى الحجمية والتحيز والجرمية فلو خالف بعضها بعضا لكانت تلك المخالفة فى أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن مابه المخالفة غير مابه المشاركة واذا كان كذلك فنقول ان مابه حصلت المخالفة من الاجسام لابد أن يكون صفات لها فتكون الذوات في أنفسها مع قطع النظر عن تلك الصفات متساوية فى تمام الماهية واذا كان الامر كذلك فكل مايصح على جسم وجب أن يصح على كل جسم فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضا وبالعكس واذا كان كذلك وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوءه الباهر وشعاعه القاهر واختصاص القمر بنوره المخصوص بتخصيص مخصص وايجاد موجد وتقدير مقدر وذلك هو المطلوب واعلم أن النور كيفية قابلة للاشد والاضعف فان نور الصباح أضعف من النور الحاصل فى أول النهار قبل طلوع الشمس وهو أضعف من النور الحاصل فى أفنية الجدران عند طلوع الشمس وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس فكمال هذه الكيفية على مايحس به في جرم الشمس هو من مواقف العقول واعلم أن النور اسم لأصل هذه الكيفية وأما الضوء فهو اسم لهذه الكيفية اذا كانت كاملة تامة قوية وذكر صاحب الرسالة الحميدية أن أكبر مشاهير الطبيعيين قال ان النور ذرات صغيرة جدا تنتشر عن الجسم وأنه قد رد عليه متأخروهم بأدلة واضحة وقالوا انه اهتزاز أجزاء المادة الاثيرية السارية في الكون فهو عبارة عندهم عن حركة الاجزاء المذكورة وأنه قد اعتمد جمهورهم الآن على

هذا التفسير وبنوا عليه الصروح قال ولقائل أن يقول مابال تلك الاجزاء الاثيرية تخرق حركتها لوح بلور بسماكة كثير من الاذرع واذا طلي أحد وجهيه بطبقة رقيقة من الحبر الاسود مثلا عجزت تلك الحركة عن خرقها كأنها صدّت بأسوار خانية أو جبال حملايا هلا خرقت تلك الطبقة الرقيقة غير الصلبة كما خرقت اللوح السميك الصلب وان قلتم ان اللون قد ابطل تلك الحركة بطبعه قلنا لامانع أن يكون ذلك بخلق الله تعالي ولكن بينوا لنا على تفسيركم هذا كيف قويت تلك الحركة على خرق اللوح السميك الصلب وعجزت عن تلك الطبقة الرقيقة غير الصلبة وان قلتم ان اللون يتشرب النور قلنا لكم بينوا لنا مامعني تشرب اللون النور الذى هو حركة أجزاء بعبارة واضحة يقبلها العقل وأيضا ان صناعكم قد اخترعوا دهانا اذا عرض لنور الشمس بعض دقائق أضاء في الظلام طول الليل فعلي تفسيركم للنور ان قلتم ان تلك الحركة المنبعثة عن الدهان في الظلام من انعكاس النور قلنا بينوا كيف دامت تلك الحركة ناشئة عن الدهان مع أن الحركة الاصلية المنبعثة عن الشمس قد انقطعت عنه وفارقته من ساعات وهذا خلاف مايعهد من ناموس الانعكاس وان كان خلاف ذلك فبينوه اه ولما بين تعالي قدرته بقوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا بين حكمته بقوله تعالي (وقدّره) أي قدر للقمر وهيأ (منازل) أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذامنازل على تضمين التقدير معني التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل من الشمس والقمر وانما وحد للايجاز أو اكتفي بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه والله ورسوله أحق أن يرضوه والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لايجاوزانها فى السير

ولا نقصران عنها على تقدير مستو لا يتفاوت وهى ثمانية وعشرون منزلا مقسومة على البروج الاثني عشر المتقدمة ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها يسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين فاذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم يستتر ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما (لتعلموا) باعتبار نزول كل منهما في تلك المنازل (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالح الحكم الدينية و الدنيوية (والحساب) أى حساب الاوقات من الاشهر والايام و الليالى وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة (ماخلق الله ذلك) المذكور من الشمس والقمر على ماحكي من الاحوال (الا) ملتبسا (بالحق) مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعي فيه ذلك وهو ماأشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والاوقات المنوط به امور معاملاتهم وعباداتهم قال الامام فخر الدين اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبحركة القمر تحصل الشهور وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم فانا قد دللنا على أن الاجسام متساوية ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين وحيزه المعين وصفته المعينة ليس الا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة فى هذا العالم بسبب حركات الافلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ماحصل الا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول

الظالمون علوا كبيرا ثم أنه تعالي لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله ماخلق الله ذلك الا بالحق ومعناه أنه تعالي خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة (يفصل الآيات) التكوينية الدالة على وحدانيته وقدرته ويذكر بعضها عقيب بعض مع مزيد الشرح والبيان (لقوم يعلمون) الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شؤن مبدعها جل وعلا وخص العلماء بالذكر لانهم المنتفعون بالتأمل فيها * وقال تعالي فى سورة يوسف (وكأين من آية) أي كثير من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته (فى السموات والارض) أى كائنة فيهما (يمرون عليها) أى يشاهدونها ولايعبؤن بها (وهم عنها معرضون) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها قال الامام فخر الدين واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة وهى اما الاجرام الفلكية واما الاجرام العنصرية أما الأجرام الفلكية فقد يستدل بمقاديرها المعينة وأحيازها على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق بعض أو تحته وقد يستدل بأحوال حركاتها اما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر واما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها واما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وقد يستدل بألوانها وأضوائها أو بحصول الاضواء والاظلال والظلمات والنور بسببها وأما الدلائل المأخوذة من الاجرام العنصرية فاما أن تكون مأخوذة من بسائط وهى عجائب البر والبحر واما من المواليد وهى أقسام. أحدها الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح. وثانيها المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها. وثالثها النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة. ورابعها اختلاف

احوال

أحوال الحيوانات فى أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها . وخامسها تشريح أبدان الناس وتشريح القوي الانسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل ومن هذا الباب أيضا قصص الاولين وحكايات الاقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الارض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الاعلى والعالم الاسفل والعقل البشرى لايفى بالاحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الابهام * وقال تعالى فى سورة الرعد (الله الذى رفع السموات) أى خلقها مرفوعة لاأنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك (بغير عمد) أى بغير دعائم كالاساطين التي تكون تحت السقف (ترونها) استئناف استشهد به على ماذكر من رفع السموات بغير عمد كأنه قيل ماالدليل على أن السموات مرفوعة بغير عمد فاجيب بانكم ترونها غير معمودة وقيل الضمير راجع الى عمد والجملة صفة لها أى خالية من عمد مرئيـة وانتفاء العمد المرئية يحتمل ان يكون لانتفاء العمد والرؤية جميعاً أى لا عمد لها فلا ترى ويحتمل ان يكون لانتفاء الرؤية فقط بان يكون لها عمد غير مرئية وهى قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه اياها في الجو العالى وانهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك قال الامام فخر الدين ان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذواتها لوجهين الاول ان الاجسام متساوية فى تمام الماهية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز . والثاني ان الخلاء لا نهايه له والاحياز المعترضة فى ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهى باسرها متساوية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة أن

الاحياز بأسرها متشابهة فثبت ان حصول الاجرام الفلكية فى احيازها وجهاتها ليس أمرا واجبا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح والحاصل ان السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد ترونها ولا يجوز ان يقال انها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها والا لعاد الكلام فى ذلك الحافظ ولزم المرور الى مالا نهاية له وهو محال فثبت ان يقال الاجرام الفلكية فى أحيازها العالية لاجل أن مدبر العالم تعالي وتقدس أوقفها هناك فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر (ثم استوى) أي استولي (على العرش) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره قال الامام فخر الدين ان المراد استواؤه على عالم الاجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ بعني ان من فوق العرش الى ما تحت الثرى فى حفظه وفي تدبيره وفى الاحتياج اليه (وسخر الشمس والقمر) ذللهما لمنافع خلقه وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجرى) حسبما أريد منهما (لأجل مسمى) لمدة ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميع ماأريد منهما من القوة الي الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك أو لمدة معينة فيها تتم دورة كل منهما كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية واعلم أن تقدير حركاتهما بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتهما وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر وهو الله جل وعلا قال ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الي واحد منها فى ستة أشهر أخري وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله كل يجرى لاجل مسمى هذا قال الامام فخر الدين وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا خاصا الي جهة خاصة

بمقدار

بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتي كان الامر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حاله أخري ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم ان بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة الى الشمال وبعضها مائلة الي الجنوب وهذا لايتم الا بتدبير كامل وحكمة بالغة ثم انه تعالي لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أي يقضي ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والامانة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من أعلى العرش الي ماتحت الثري أنواع وأجناس لايحيط بها الا الله تعالي والدليل دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالي ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فانه لايمكنه تدبير شيء آخر الا الباري سبحانه وتعالى فانه لا يشغله شأن أما العاقل فانه اذا تأمل في هذه الآية علم انه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه تعالي متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أي يأتي بها مفصلة وهي ماذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيأ فشيأ المستتبعة للمنافع الجليلة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير (لعلكم) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بملاقاته للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شيء قدير وان لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لا بد من وصولها وقد بينت على ألسنة الانبياء عليهم السلام ان ذلك ابتلاء

المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فاذن لا بد من الايقان بالجزاء * وقال تعالى فى سورة ابراهيم (أفى الله شك) بادخال همزة الانكار على الظرف للايذان بان مدار الانكار ليس فى الشك انما هو في ان وجود الله تعالي لا يحتمل الشك أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله في شك مريب ولما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار فقال (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما وما فيهما من المصنوعات علي نظام أنيق شاهد بتحقيق ما أنتم منه فى شك واعلم ان من العلماء من ذهب الي انه قبل الوقوف علي الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ويدل على ان الفطرة الاولية شاهدة بذلك وجوه. الاول ان من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الفاعل المختار لان الصبي العاقل اذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول من الذي ضربني وما ذاك الا أن شهادة فطرته تدل على ان اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لاجل فاعل فعلها ولاجل مختار ادخلها فى الوجود فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته الي الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم الى الفاعل كان أولى الوجه الثانى ان الفطرة شاهدة بان حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل الا عند وجود نقاش عالم وبان حكيم ومعلوم ان آثار الحكمة فى العالم العلوى والسفلى أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار النقش الى النقاش والبناء الي البانى فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم كان أولي. الوجه الثالث ان الانسان اذا وقع فى محنة

شديدة وبلية قوية لايبقي فى ظنه رجاء المعاونة من أحد فكأنه بأصل خلقته ومقتضي جبلته يتضرع الي من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وماذاك الاشهادة الفطرة بالافتقار الي الصانع المدبر واعلم أن للسلف طرقا لطيفة فى هذا الباب * أحدها يروي أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله عنه فقال جعفر هل ركبت البحر قال نعم قال هل رأيت أهواله قال بلى هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن وغرقت الملاحين فتعلقت انا ببعض الواحها ثم ذهب عني ذلك اللوح فاذا أنا مدفوع في تلاطم الامواج حتى دفعت الى الساحل فقال جعفر قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك فلما ذهبت هذه الاشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد قال بل رجوت السلامة قال ممن كنت ترجوها فسكت الرجل فقال جعفر ان الصانع هو الذى كنت ترجوه في ذلك الوقت وهو الذى انجاك من الغرق فاسلم الرجل على يده . وثانيها جاء فى كتاب ديانات العرب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمران بن حصين كم لك من اله قال عشرة قال فمن لغمك وكربك ودفع الامر العظيم اذا نزل بك من جملتهم قال الله قال عليه السلام مالك من اله الا الله • وثالثها كان ابو حنيفة رحمه الله سيفا على الدهرية وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه فبينا هو يوما في مسجده قاعد اذهجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم أجيبونى عن مسئلة ثم افعلوا ماشئتم فقالوا له هات فقال ماتقولون فى رجل يقول لكم انى رأيت سفينة مشحونة بالاحمال مملوءة من الاثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك في العقل قالوا لاهذا شيء لايقبله العقل فقال أبو

حنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجري فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا وقالوا صدقت وأغمدوا سيوفهم وتابوا • ورابعها سالوا الشافعى رضي الله عنه ماالدليل على وجود الصانع فقال ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل والشاة فيخرج منها البعر ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الاشياء كذلك مع أن الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر • وخامسها سئل أبو حنيفة رضي الله عنه مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس فدل على الصانع * وسادسها تمسك أحمد بن حنبل رضي الله عنه بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ * وسابعها سأل هرون الرشيد مالكا عن ذلك فاستدل باختلاف الاصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات وثامنها سئل أبو نواس عنه فقال

تأمل فى نبات الارض وانظر * الى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات * بأحداق كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

وتاسعها سئل أعرابى عن الدليل فقال البعرة تدل على البعير والروث على الحمير وآثار الاقدام على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير * وعاشرها قيل لطبيب بم

عرفت ربك قال باهليلج مجفف أطلق ولعاب ملين أمسك وقال آخر عرفته
بنحلة بأحد طرفيها تعسل وبالآخر تلسع والعسل مقلوب اللسع • وحادى
عشرها حكم البديهة فى قوله ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فلما رأوا بأسنا
قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * وقال تعالى فى سورة
ابراهيم أيضا (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) يدأبان في سيرهما وانارتهما
اصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات أما الشمس
فتفكر في طلوعها وغروبها فلولا ذلك لبطل أمر العالم كله فكيف كان الناس
يسعون في معايشهم ثم المنفعة فى طلوع الشمس ظاهرة ولكن تأمل النفع
فى غروبها فلولا غروبها لم يكن للناس هدء ولا قرار مع احتياجهم الى الهدء
والقرار لتحصيل الراحة وانبعاث القوة الهاضمة وتنفيذ الغذاء الي الاعضاء
على ماقال تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا وأيضا
فلولا الغروب لكان الحرص يحملهم على المداومة على العمل على ماقال وجعلنا
الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وأيضا فلولا الغروب لكانت الارض تحمى
بشروق الشمس عليها حتى يحترق كل من عليها من حيوان ويهلك ماعليها من
نبات على ماقال الم تر الي ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا فصارت
الشمس بحكمة الحق سبحانه وتعالي تطلع فى وقت وتغيب فى وقت بمنزلة
سراج يدفع لاهل بيت بمقدار حاجتهم ثم يرفع عنهم ليستقروا ويستريحوا
فصار النور والظلمة علي تضادهما متعاونين متظاهرين على مافيه صلاح العالم
أما ارتفاع الشمس وانحطاطها فقد جعله الله تعالي سببا لاقامة الفصول الاربعة
ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيه مواد الثمار ويلطف
الهواء ويكثر السحاب والمطر ويقوي أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة
الغريزية فى البواطن وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء

فيطلع النبات وينور الشجر ويهيج الحيوان للسفاد وفى الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتحل فضول الابدان ويجف وجه الارض ويتهيأ للبناء والعمارة وفى الخريف يظهر اليبس والبرد فتنتقل الابدان قليلا قليلا الى الشتاء فانه ان وقع الانتقال دفعة واحدة هلكت الابدان وفسدت وأما حركة الشمس فتأمل فى منافعها فانها لو كانت واقفة في موضع واحد لاشتدت السخونة فى ذلك الموضع واشتد البرد فى سائر المواضع لكنها تطلع فى أول النهار من المشرق فتقع على مايحاذيها من وجه المغرب ثم لاتزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى الى الغروب فتشرق على الجوانب الشرقية فلا يبقي موضع مكشوف الا ويأخذ حظا من شعاع الشمس وأيضا كأن الله تعالى يقول لو وقفت فى جانب الشرق والغنى قد رفع بناءه على كوة الفقير فكان لايصل النور الى الفقير لكنه تعالي يقول ان كان الغنى منعه نور الشمس فأنا أدير الفلك وأديرها عليه حتي يأخذ الفقير نصيبه وأما منافع ميلها فى حركتها عن خط الاستواء فنقول لولم تكن للكواكب حركة فى الميل لكان النفع مخصوصا ببقعة واحده فكان سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة بسببه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات وأحالتها كلها الي النارية ولم تكون المتولدات فيكون الموضع المحاذي لمر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه علي كيفية أخري وخط المتوسط بينهما على كيفية متوسطة فيكون في موضع شتاء دائم يكون فيه الهواء و العجاجة وفى موضع اخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع اخر ربيع اوخريف لايتم فيه النضج ولو لم يكن عودات متتاليه وكانت الكواكب تتحرك بطيئا لكان الميل قليل المنفعة وكانت الحرارة شديدة الافراط ولو كانت الكواكب

أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت فأما اذا كان هناك ميل يحفظ
الحركة في جهة مدة ثم تنتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة وتبقى في كل جهة
برهة من الدهر تمت بذلك المنفعة فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة
والقدرة الغير متناهية قال صاحب الفلسفة الحقة ووجود الشمس ضروري
لاعطائنا نورا نمشي به فى مناكب الارض فلولاه لكانت الحياة كعدمها
ولا يكفي أن نعتبر الشمس فقط منبعا للاضواء التي تسمح لنا بالبحث عن
غذائنا ورؤية بعضنا بعضا فليس الامر قاصرا على ذلك فان لها من الحكم
والافعال مايحتاج الانسان لدرس بعضه الي جملة سنوات وربما لم يكفه
فى ذلك طول حياته لاجرم أن الشمس منبع الحياة على سطح هذه الكرة
الارضية وسبب من أسباب البقاء فيها ولننوه هنا عن خردلة من حكمة
وجودها فنقول لايخفى أنه يوجد فى جسم الانسان حرارة قدرها (٣٧) درجة
وأن هذه الحرارة ضرورية لحياته جدا فلا تقل ولا تزيد الا بعوارض
مرضية ولو لم توجد الشمس لما أمكن عادة بقاء الانسان على هذه الدرجة
من الحرارة الغريزية ومن هنا يظهر أن الشمس ضرورية الوجود لاجل أن
يسخن الجو بأشعتها حتى لاتفقد الحرارة من جسم الانسان ودليل ذلك أن
الرجل لايمكنه المعيشة بجهات القطبين الا اذا أخذ الاحتياطات الضرورية
من ايقاد النيران ولبس الفراء التى خاصيتها أن ترد لاجسم الحرارة الخارجة
منه كما يرى ذلك في سكان سيبريا وغيرها من البلاد ذات الحرارة المنحطة
حتي أنك لتجد حيوانات تلك الجهات مكتسية بوبر طويل لولاه لهلكوا
من الزمهرير واذا أخذنا شاة من بلادنا الى جهات القطب الشمالى لا يمكنها
ان تستمر على حالة الحياة بالنسبة لعدم استعداد فروتها الا لتحمل درجة
حرا [illegible] ات فسبحان الحكيم الخبير وسكان

جهة خط الاستواء درجة حرارتهم تصل الي (٣٨) لشدة الحرارة عندهم والحرارة الشمسية ضرورية أيضاً للنباتات ولو منع النبات من درجة الحرارة الضرورية له بزرع الصيفي منه شتاء أو لو زيدت درجة الحرارة بزرع الشتائى منه صيفاً لمات ولم ينبت اذن لولا وجود الشمس لما عاش على سطح الارض لا حيوان ولا نبات ثم ان النور هو أحد الاسباب المهمة لابادة الميكروبات اذن لولاه لكثرت الميكروبات جدا وتكثر تبعا له الامراض والاوصاب أما حكمة غروب الشمس فعظيمة جدا فبدونه كانت تستمر ترشق الارض بسهام أشعتها فتسخن هذه الي درجة لا تطاق فيهلك الانسان والحيوان والنبات بل والجماد أيضاً وبالتأمل تري انها موضوعة على أس من الحكمة ركين جدا لانه بعد غروبها تبتدئ الارض في ارسال الحرارة المكتسبة منها بطريقة مستمرة حتى لا يكون الجو باردا جدا بعد ذهاب الشمس كيلا يكون الانسان كالمستجير من الرمضاء بالنار ولا تزال ترسل تلك الاشعة الحرارية المعتمة بطريقة محكمة فلا تبذر تبذيراً ولا تقتر تقتيرا الي ان تشرق الشمس فى اليوم التالي فتحصل النتيجة السابقة * أما القمر وهو المسمى بآية الليل فاعلم انه سبحانه وتعالي جعل طلوعه وغيبته مصلحة وجعل طلوعه في وقت مصلحة وغروبه فى وقت آخر مصلحة أما غروبه ففيه نفع لمن هرب من عدوه فيستره الليل ويخفيه فلا يلحقه طالب ولولا الظلام لادركه العدو قال المتنبي

وكم لظلام الليل عندي من يد * تخبر ان المانوية تكذب

وأما طلوعه ففيه نفع لمن ضل عنه شيء أخفاه الظلام وأظهره القمر ومن الحكايات ان اعرابيا نام عن جمله ليلا ففقده فلما طلع القمر وجده فنظر الى القمر وقال ان الله صورك ونورك وعلى البروج دورك فاذا شاء [illegible] شاء

كورك فلا أعلم مزيدا أسأله لك ولئن أهديت الي سرورا لقد أهدى الله اليك نورا ثم أنشأ يقول

ماذا أقول وقولى فيك ذو قصر * وقد كفيتني التفصيل والجملا
ان قلت لا زلت مرفوعا فأنت كذا * أوقلت زانك ربى فهو قد فعلا

قال الامام حجة الاسلام انظر كيف سخر الله الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الي البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الي رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الاشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتي ان الشجرة الصغيرة تفسد اذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضاً ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثاً وباطلاً ولم يصح قوله تعالي ربنا ماخلقت هذا باطلا وقوله عز وجل وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وكما أنه ليس فى أعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس فى أعضاء بدن العالم عضوا الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالاعضاء له وهى متعاونة تعاون أعضاء بدنك فى جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن ان الايمان

بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه فى أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهى عنه في النجوم أمران * أحدهما ان تصدق بانها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر * والثانى تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التى لا يشترك كافة الخلق فى دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق الا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بتخليق الله تعالى فى الارض وفى النبات وفى الحيوان ليس قادحاً فى الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين ولذلك اذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك اخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس واذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار الا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذن الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرأ قوله تعالي ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء

الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منـه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الامر فى عجائب صنع الله تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تضيف المصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه * وقال تعالى في سوره الحجر (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) قصورا ينزلها السيارات وهي البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيآت والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع مااتفق عليه جمهور الفلاسفة من بساطة السماء قال الامام فخر الدين ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار هو ان طبائع هذه البروج مختلفة على ماهو متفق عليه بين أرباب الاحكام واذا كان الامر كذلك فالفلك مركب من هـذه الاجزاء المختلفة فى الماهية والابعاض المختلفة فى الحقيقه وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الاجزاء والابعاض بحسب الاختيار والحكمة فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب (وزيناها) أي السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهرا وللمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة * وقال تعالى فى سورة النحل (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) يدأبان فى سيرهما لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصريفها كيف شاؤا كما فى قوله تعالى

سبحان الذي سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب
عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب
ارادتهم (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر أى سائر النجوم
في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالي أي
مذللات له خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بايجاده وتقديره على
مقتضي ارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم في الظهور
بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم بأداة الاختصاص
بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالي من غير دلالة على شيء
آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعليه الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة
للدوام والاستمرار قال بعضهم أخبر الله تعالى أن هذه النجوم مسخرات
في أنفسها مذللات بادارته ومشيئته يصرفها كيف يشاء ويختار وأنها ليس
لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها وذلك لانه لا بد لحركاتها واتصالاتها
من سبب وذلك السبب اما أن يكون موجبا بالذات أو فاعلا مختارا والاول
باطل لان نسبة ذلك الموجب بالذات الى جميع الاجسام على السوية فلم يكن
بعض الاجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض ولما بطل هذا
ثبت أن محرك الافلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر وذلك هو
الله تعالى وذكر العلامة أبو السعود أن هذا ليس مما ينازع فيه الخصم
ولا يتلعثم في قبوله لقوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والاض وسخر
الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون قال وانما ذلك أدلة التوحيد من
حيث ان من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شيء فى شيء فضلا عن أن
يشاركه الجماد فى الالوهية (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التسخير (لآيات)
باهرة متكاثرة (لقوم يعقلون) وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة

ودلالة

ودلالة ما فيها على عظيم القدرة والعلم والحكمة والوحدانية أظهر جميع الآيات علقت بمجرد العقل من غير حاجة الي التأمل والفكر قال العلامة أبو السعود ويجوز ان يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدي لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب في ان احتياجها الي التفكر اكثر * وقال تعالي فى سورة النحل أيضاً (وبالنجم هم يهتدون) بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي وذلك لانها تعلم بها الجهات ليلا لانها دائرة حول القطب الشمالي فهى لا تغيب والقطب فى وسط بنات نعش الصغرى والجدي هو النجم المفرد الذي فى طرفها والفرقدان هما النجمان اللذان في الطرف الآخر وهما من النعش والجدى من البنات ويقرب من بنات نعش الصغري بنات نعش الكبري وهى سبعة أيضاً أربعة نعش وثلاث بنات وبازاء الاوسط من البنات السهى وهو كوكب خفي صغير كانت الصحابة رضي الله عنهم تمتحن فيه أبصارهم كذا فى التكملة لابن عساكر قال العلامة أبو السعود ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيري التردد للجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في اسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم والحام الضمير للتخصيص كانه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه الزم لهم وأوجب عليهم اه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا من النجوم ماتهتدون به فى طرقكم وقبلتكم ثم كفوا وتعلموا من الانساب ما تصلون به ارحامكم قيل أول من نظر في النجوم والحساب ادريس النبي عليه السلام قال بعض السلف العلوم أربعة الفقه للاديان والطب للابدان والنجوم للازمان والنحو للسان قال فى روح البيان وأما قوله عليه السلام

من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر أى تعلم قطعة منه فقد قال الحافظ المنهي عنه من علم النجوم هو ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث لآتية من مستقبل الزمان كمجيء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الاسعار ونحو ذلك ويزعمون انهم يدركون هذا بسير الكواكب واقترانها واقتراقها وظهورها فى بعض الازمان دون بعض وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره كما حكى انه لما وقع قران الكواكب السبعة فى دقيقة من الدرجة الثالثة من الميزان سنة احدى وثمانين وخمسمائة حكم المنجمون بخراب الربع المسكون من الرياح وكان وقت البيدر ولم يتحرك ريح ولم يقدر الدهاقين على رفع الحبوب فاما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى وكم بقى فانه غير داخل في النهي انتهي كلام الحافظ مع زيادة قال صاحب روح البيان يقول الفقير أصحاب النظر والاستدلال محتاجون الى معرفة شيء من علم النجوم والحكمة والهيئة والهندسة ونحوها مما يساعده ظاهر الشرع الشريف اذ هو داخل فى التفكر وقد قال تعالي ويتفكرون في خلق السموات والارض ولا يمكن صرف التفكر الي المجهول المطلق فلا بد من معلومية الامر ولو بوجه ما وهذا القدر خارج عن الطعن والجرح كما قال السيد الشريف النظر في النجوم ليستدل بها على توحيد الله تعالى وكمال قدرته من أعظم الطاعات اه وقال الامام فخر الدين وربما جاء بعض الجهال والحمقي وقال انك اكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك على خلاف المعتاد فيقال لهذا المسكين انك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته وتقريره من وجوه . الاول ان الله تعالي ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة باحوال السموات والارض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال

الشمس والقمر والنجوم وذكر هذه الامور في اكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى فلو لم يكن البحث عنها والتأمل فى أحوالها جائزا لما ملأ الله كتابه منها . والثاني انه تعالي قال أو لم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج فهو تعالي حث على التأمل في انه كيف بناها ولا معني لعلم الهيئة الا التأمل فى انه كيف بناها وكيف خلق كل واحد منها * والثالث انه تعالي قال لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون فبين أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة فى اجرام السموات اكثر واعظم واكمل مما فى ابدان الناس ثم انه تعالي رغب فى التامل في ابدان الناس بقوله وفي انفسكم افلا تبصرون فما كان أعلى شأنا وأعظم برهانا منها أولى بان يجب التأمل فى أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب. والرابع انه تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والارض فقال ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا ولو كان ذلك ممنوعا منه لما فعل * والخامس أن من صنف كتابا شريفا مشتملا على دقائق العلوم العقلية والنقلية بحيث لا يساوية كتاب فى تلك الدقائق فالمعتقدون فى شرفه وفضيلته فريقان منهم من يعتقد كونه كذلك على سبيل الجملة من غير أن يقف على مافيه من الدقائق واللطائف على سبيل التفصيل والتعيين ومنهم من وقف على تلك الدقائق على سبيل التفصيل والتعيين واعتقاد الطائفة الاولى وان بلغ أقصي الدرجات فى القوة والكمال الا أن اعتقاد الطائفة الثانية يكون أكمل وأقوى وأوفى وأيضا فكل من كان وقوفه على دقائق ذلك الكتاب ولطائفه أكثر كان اعتقاده في عظمة ذلك المصنف وجلالته أكمل اذا ثبت هذا فنقول من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل محدث فله محدث فحصل له بهذا الطريق اثبات الصانع تعالى وصار من زمرة المستدلين ومنهم

من ضم الي تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل فيظهر له فى كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة واسرار عجيبة فيصير ذلك جاريا مجري البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان الى برهان آخر ومن دليل الي دليل آخر فلكثرة الدلائل وتواليها نفع عظيم فى تقوية اليقين وازلة الشبهات فاذا كان الامر كذلك ظهر انه تعالي انما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والاسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة ونسأل الله العون والعصمة * وقال تعالي فى سورة النحل أيضاً (أو لم يروا) استفهام توبيخ والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (الي ما خلق الله من شيء) أى من كل شيء وقيل الاستفهام للانكار والمعني قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته تعالي وقهره فيخافوا منه وهذه الرؤية لما كانت بمعني النظر وصلت بالي لان المراد الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتي يكون معها نظر الي الشيء ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به (يتفيأ ظلاله) أي يرجع شيأ فشيأ من جانب الي جانب وتدور من موضع الى موضع حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالي فان التفيأ مطاوع الافاءة (عن اليمين والشمائل) أي ألم يروا الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها أى جانبي كل واحد منها وفى الخازن قال العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الي القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا ارتفعت الشمس واستوت فى وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال قتادة والضحاك أما اليمين فاول النهار وأما الشمال فآخره قال العلامة أبوا السعود وقيل المراد باليمين والشمال يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لان الكواكب منه

تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربي من الارض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها اه قال الامام فخر الدين في المراد باليمين والشمائل قولان * الاول أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب والسبب فى تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين أن أقوى جانبي الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الي المغرب لاجرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله * القول الثانى أن البلدة التى يكون عرضها أقل من مقدار الميل فان فى الصيف تحصل الشمس على يسارها وحينئذ يقع الاظلال على يمينهم فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الي الشمائل وبالعكس (سجداً لله) حال من الظلال والمراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد لقرد السوء فى زمانه أي اخضع له قال الشاعر

* ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * أي متواضعة فالمراد بسجود الظلال تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له أو المراد أن هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالي عليها هذا اللفظ (وهم داخرون) حال من الظلال أيضاً وقيل حال من الضمير المستتر فى سجدا فهي حال متداخلة ومعني داخرون صاغرون اذلاء والداخر الصاغر الذى يفعل ما تأمره به شاء أم أبي وذلك لان جميع الاشياء منقادة لقدرة الله تعالي وتدبيره قال العلامة أبو السعود قوله تعالى وهم داخرون أي صاغرون منقادون حال من الضمير في ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد

الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها فى كل يوم من ايام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال ان أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالي ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما اه قال الامام فخر الدين انه تعالي دبر النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية بحيث يقع أضواؤها على هـذا العالم السفلى على وجوه مخصوصة ثم انا نشاهد ان تلك الاضواء وتلك الظلال لا تقع في هذا العالم الاعلى وفق تدبير الله تعالي وتقديره فنشاهد ان الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة اظلال ممتدة في الجانب الغربي من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتقاصا الي الجانب الشرقي الي أن تصل الشمس الي الفلك فاذا انحدرت الي الجانب الغربي ابتدأت الاظلال بالوقوع فى الجانب الشرقي وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمدداً وتزايداً فى الجانب الشرقى وكما أنا نشاهد هذه الحالة فى اليوم الواحد فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة فى التيامن والتياسر في طول السنة بسبب اختلاف أحوال الشمس فى الحركة من الجنوب الي الشمال وبالعكس فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الارض وغربها وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة فى يمين الفلك ويساره ورأينا انها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين علمنا انها منقادة لقدرة

الله خاضعة لتقديره وتدبيره وأيضاً قد دللنا على أن الاجسام متماثلة في تمام الماهية فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لا بد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم فكان هذا أيضاً دليلاً على أن اختلاف أحوال الاظلال لم يقع الا بتدبير الله تعالى وتخليقه فثبت ان المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع * وقال تعالى فى سورة النحل أيضاً (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) أشياء تستظلون بها من حر الشمس كالغمام والشجر والجبال وغيرها (وجعل لكم من الجبال أكنانا) مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب واعلم أن العرب كانوا أصحاب جبال وبلادهم شديدة الحر وحاجتهم الي الظل ودفع الحر شديدة فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعاني فى معرض النعمة العظيمة وأيضاً البلاد المعتدلة والاوقات المعتدلة نادرة جدا والغالب اما غلبة الحر أو غلبة البرد وعلى كل التقديرات فلا بد للانسان من مسكن يأوي اليه وكل مسكن فلا يتم الا بما يحصل من الجبال من الحجارة والحديد ونحو ذلك فكان الانعام بتحصيل المسكن عظيما ولما ذكر تعالي أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل ما يلبس أى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لان وقايته هى الاهم عندهم لما مر آنفا (وسرابيل) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم) أي البأس الذي يصل الي بعضكم من بعض فى الحروب من الضرب والطعن (كذلك) أى مثل ذلك الاتمام البالغ (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أي ارادة ان تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والانفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ماكنتم به تشركون وتنقادوا لامره

(فان تولوا) أي فان أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ما القي اليهم من البينات والعبر (فانما عليك البلاغ المبين) أي فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه (يعرفون نعمت الله) استئناف لبيان ان توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها ويعترفون انها من الله تعالى (ثم ينكرونها) بافعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بسبب كذا ولولا كذا لكان أو لما كان كذا أولا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار (واكثرهم الكافرون) أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر * وقال تعالي في سورة الاسرى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر كما ذكره بعض المفسرين (فمحونا آية الليل) وهي القمر ومحوه خلقه مطموس النور في نفسه أو المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان فى النور فيبد وفى أول الامر في صورة الهلال ثم لا يزال يتزايد نوره حتي يصير بدرا كاملا ثم يأخذ فى الانتقاص قليلا قليلا وذلك هو المحو الي أن يعود الى المحاق أو المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه (وجعلنا آية النهار) وهى الشمس (مبصرة) أي أبدعناها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة (لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) متعلق بقوله تعالي وجعلنا آية النهار وذكر الامام فخر الدين انه متعلق بما هو مذكور قبل وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وبنى على ذلك أن حمل محو القمر على الزيادة والنقصان في نوره أولي لان محو آية الليل انما يؤثر في ابتغاء فضل الله اذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه لان سبب حصول هذه

الحالة يختلف باحوال نور القمر قال وأهل التجارب بينوا ان اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له نفع عظيم فى مصالح هذا العالم وأحواله مثل أحوال التجربات على ما تذكره الاطباء ومثل أحوال البحار فى المد والجزر وأيضاً بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الاهلة كما قال ولعتلموا عدد السنين والحساب ثم ذكر الامام انا لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر فهو أيضاً برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين ان مدبر العالم فاعل مختار لا علة موجبة لان جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة فوجب ان يكون متشابه الصفات لحصول الاحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على انه ليس بسبب الطبيعة بل لاجل ان الفاعل المختار خصص بعض اجزائه بالنور القوي وبعض اجزائه بالنور الضعيف وذلك يدل على ان مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات قال وأحسن ماذكره الفلاسفة فى الاعتذار عنه انه ارتكز في وجه القمر اجسام قليلة الضوء مثل ارتكاز الكواكب في اجرام الافلاك فلما كانت تلك الاجرام أقل ضوأ من جرم القمر لاجرم شوهدت تلك الاجرام في وجه القمر كالكلف فى وجه الانسان قال وهذا لا يفيد مقصود الخصم لان جرم القمر لما كان متشابه الاجزاء فلم ارتكزت تلك الاجرام الظلمانية فى بعض اجزاء القمر دون سائر الاجزاء قال وبمثل هذا الطريق يتمسك فى أحوال الكواكب وذلك لان الفلك جرم بسيط متشابه الاجزاء فلم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله فى سائر الجوانب وذلك يدل على ان اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لاجل تخصيص الفاعل المختار وكل هذه الدلائل انما يراد من تقريرها وايرادها التنبيه على ان المؤثر فى العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات ه وقال

تعالي فى سورة الانبياء (وجعلنا السماء سقفاً) للارض كالسقف للبيت (محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا (وهم عن آياتها) أي الآيات الكائنة فيها الدالة على وجود الصانع ووحدته وتناهى قدرته وكمال علمه وحكمته مثل الشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة (معرضون) لا يتدبرون فيها فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال * وقال تعالى في سورة الفرقان (ألم تر الى ربك) الخطاب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعريض لعنوان الربوبية مع الاضافة الي ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللايذان بان ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته أي الم تنظر الي بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) اى كيف أنشأ ظل أى مظل كان من جبل أو بناء أوشجر ممتد أو لعل توجيه الرؤية اليه سبحانه وتعالي مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على مايطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤن الصانع المجيد (ولو شاء لجعله ساكنا) أى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا أي لايتحرك حركة انقباض ولاانبساط وهذه جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الامر على أنه لامدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل فيحكمه أي جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور

العاري عن التأثير من مزيد الدلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبيء عن السببية وسياق النظم الكريم ينطق صريحاً ببيان كمال قدرته تعالى القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة التأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات (ثم قبضناه الينا) عطف على مد داخل في حكمه وثم للتراخي الزماني لما ان في بيان كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز ان تكون للتراخي الرتبي أي أزلناه بعد ما انشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير ان يكون له تأثير فى ذلك أصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالي الينا للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما ان حدوثه منه عز وجل (قبضا يسيرا) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها قال الامام فخر الدين الناس اكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الي وجهين. الاول ان الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخاصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذ أثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة ثم ان الناظر الي الجسم الملون وقت الظل

كانه لا يشاهد شيأ سوى الجسم وسوي اللون ونقول الظل ليس أمراً ثالثا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوءها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا أو ماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكانه سبحانه وتعالي لما اطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول ان الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الي معرفة وجوده بان اطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان نبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التأويلين. التأيل الثانى وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه جعل الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما ان المهتدى يهتدى بالهادي والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كانها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها وأما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيراً فاما أن يكون المراد منه انهاء الاظلال يسيرا يسيرا الي غاية نقصانها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهى الاجرام التى تلق الاظلال رقوله

يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل المخلص ووجه الاستدلال بالظل على وجود الصانع المحسن ان حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء واما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل أما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لايتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له في وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وماذاك الامن يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالي وأيضا قد اجمع المتقدمون والمتأخرون من الفلاسفة على أن جرم الشمس يفوق جرم الارض بأضعاف مضاعفة ونرى أن ضوء الشمس عظيم باهر فكان مقتضي ذلك أن لايظهر للاجرام ظل أصلا متي ظهرت الشمس وان قيل ان الشمس اذا كانت في جهة المشرق فان ضوءها يقع على الارض منحدرا فيحول الجرم المنتصب على الارض دونه فيظهر الظل ومثل ذلك يحصل اذا مالت الشمس الي جهة المغرب قلنا اذا نصبت جرما في وسط ماء منحدر فانه لايأخذ من الماء الا مقدار جرمه فقط ثم ينطبق الماء حوله من سائر الجوانب فلم لم يكن هنا كذلك بأن ينطبق الضوء حول الجرم المنتصب حتي لايظهر الظل أصلا فعلمنا ان حصول الظل انما هو بقدرة الله تعالي وحسن تدبيره واحسانه وظهر صحة قوله تعالي الم تر الي ربك كيف مد الظل الآية فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء فكيف استدل بالامر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو أضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى * وقال تعالي

فى سورة الفرقان أيضا (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هي البروج الاثنا عشر وهى منازل السيارات المشهورة سميب بالبروج وهي القصور العالية لانها للكواكب السيارات كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل * وقال تعالى في سورة العنكبوت (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر) لاصلاح الاقوات ومعرفة الاوقات وغير ذلك من المنافع (ليقولن الله) اذلا سبيل لهم الي انكاره ولاالى التردد فيه (فاني يؤفكون) انكار واستبعاد من جهته تعالي لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالي فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير وانما ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير لان الحكمة ليست فى مجرد خلق الشمس والقمر فقط بل الحكمة فى ايجادهما وتحريكهما وتسخيرهما ليحصل الليل والنهار والصيف والشتاء وليس مجرد الحركة كافية لان الشمس لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين فالحكمة في تسخيرهما وتحركهما فى قدر مايتنفس الانسان آلافا من الفراسخ * وقال تعالي في سورة الروم (ومن آياته) الدالة على تمام القدرة والحكمة (أن تقوم السماء والارض) أى تبقي وتثبت (بأمره) أى بارادته تعالي لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة علي كمال القدرة والغني عن المبادى والاسباب واعلم أن الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها والسماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل ان الاجرام الفلكية تتحرك في مكانها كالرحي ولكن اتفق العقلاء على انها فى مكانها لاتخرج عن مركزها الذى تتحرك حواليه وهذه

آية ظاهرة لان كونهما في الموضع الذى هما فيه وعلى الوضع الذى هما عليه من الامور الممكنة وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لايكون الا بفاعل مختار * وقال تعالى فى سورة لقمان (ألم تروا) تعلموا علما هو فى ظهوره كالمشاهدة (أن الله سخر لكم) أي لاجلكم والتسخير سياقة الشيء الى الغرض المختص به قهرا (مافى السموات) من الكواكب السيارة مثل الشمس والقمر وغيرها بأن جعلها أسبابا لحصول منافعكم ومراداتكم فتسخير الكواكب بأن الله تعالى سيرها فى البروج على الافلاك التى دبر لكل واحد منها فلكا وقدرلها القرنات والاتصالات وجعل تدبير العالم السفلى من الزمانى مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والانسان وظهور الاحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الانسان ومنافعه منها (وما فى الارض) من الجبال والصحارى والبحار والانهار والحيوانات والنباتات والمادن بأن مكنكم من الانتفاع بها بوسط وبغير وسط (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة * وقال تعالي فى سورة فاطر (ان الله يمسك السموات والارض) أى يحفظهما بقدرته (أن تزولا) أي كراهة زوالهما عن أماكنهما أو يمنعهما أن تزولا لان الامساك منع أى يمنع زوالهما لان ثباتهما على ماهما عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عظمته (ولئن زالتا) أى والله لئن زالت السموات والارض عن مقرهما ومركزهما بتخليتهما كما يكون يوم القيامة (ان أمسكهما) أي ماأمسكهما (من أحد من بعده) من بعد أمساكه تعالى أو من بعد الزوال (انه كان حليما غفورا) غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث امكسهما وكانتا جديرتين بأن تهد اهدا حسبما قال

تعالى تكاد السموات يتفطرن من فوقهن * وقال تعالى فى سورة يس
(والشمس تجرى لمستقر لها) لحد معين ينتهي اليه دورها فشبه بمستقر
المسافر اذا قطع مسيره أو لكبد السماء فان حركتها فيه توجد أبطأ بحيث
يظن أن لها هنالك وقفة أو لمنتهي مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب
فان لها فى دورها ثلاثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع
وتغرب من مغرب ثم لاتعود اليهما الي العام القابل أو لمنقطع جريها عند
خراب العالم وقيل اللام لام العاقبة والمستقر مصدر ميمي أي تجرى
لاستقرار لها أى بحيث يترتب على جريها استقرارها في كل برج من البروج
الاثني عشر على نهج مخصوص بأن تستقر في كل برج شهرا ويأخذ الليل من
النهار فى نصف الحول والنهار من الليل في النصف الآخر منه وتبلغ نهاية
ارتفاعها فى الصيف ونهاية انحطاطها فى الشتاء ويترتب عليه اختلاف الفصول
الاربعة وتهيئة أسباب معاش الارضيات وترتيبها (ذلك) اشارة الى جريها
وما فيه من معني البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد
منزلته أي ذلك الجري البديع المنطوي على الحكم الرائعة التي تحار في فهمها
العقول المشتمل علي التقدير والحساب الذى يكل النظر عن استخراجه وتحير
الافهام في استنباطه (تقدير العزيز) الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم)
المحيط علمه بكل معلوم الذي يدبر الامر فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع
لايعتريه وهن ولايلحقه يوما نوع خلل قال الامام فخرالدين قوله ذلك يحتمل
أن يكون اشارة الي جري الشمس أي ذلك الجري تقدير الله ويحتمل أن
يكون اشارة الى المستقر أي المستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز
الغالب وهو بكمال القدرة يغلب والعليم كامل العلم أي الذي قدر علي اجرائها على
الوجه الانفع وعلم الانفع فاجراها على ذلك وبيانه من وجوه . الاول هو

ان

أن الشمس فى ستة اشهر كل يوم تمر على مسامتة يوم لم تمر من امسها على تلك المسامتة ولو قدر الله مرورها علي مسامتة واحدة لاحترقت الارض التي هي مسامتة لمرها وبقى المجموع مستوليا على الاماكن الاخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات فى باطن الارض والاشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدرج ليخرج النبات والثمار من الارض والشجر وينضج ويجفف ثم تبعد لئلا يحترق وجه الارض وأغصان الاشجار . الثاني هو أن الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفي كل ليلة غروبا لئلا تكل القوى والابصار بالسهر والتعب ولايخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة . الثالث جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لانها كاملة النور فلوكانت بطيئة السير لدامت زمنا كثيرا فى مسامتة شيء واحد فتحرقه ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ماينضج الثمار فى بقعة واحدة (والقمر قدرناه)أي قدرنا له (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية وعشرون ينزل كل ليلة في واحد منها لايتخطاها ولايتقاصر عنها ويستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين يوما وليلة ان كان الشهر تسعة وعشرين يوما فاذا كان في آخر منازله وهو الذى يكون قبيل اجتماعه بالشمس دق واستقوس(حتى عاد كالعرجون) أى كعود الشماريخ المعوج (القديم) العتيق فانه اذا قدم وعتق دق وتقوس واصفر شبه به القمر فى آخر الشهر في هذه الوجوه الثلاثة (لاالشمس ينبغي) أي يصح ويتسهل (لها أن تدرك القمر) في سرعة سيره فانه أسرع سيرا حيث يقطع فلكه ويدور في منازله الثماني والعشرين فى شهر واحد بخلاف الشمس فانها أبطأ منه حيث لاتقطع فلكها ولاتدور فى تلك المنازل المقسومة على الاثني عشر برجا الا فى سنة فيكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما فهي لاتدرك القمر في سرعة الحركة والا

لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فيختل بذلك أحكام الفصول وتكون النبات وتعيش الحيوان أو المعني أنها لاتدرك القمر فى المكان بأن تنزل فى منزله أو فى سلطانه فتطمس نوره (ولا الليل سابق النهار) أى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر الي سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره (وكل) التنوين عوض عن الاضافة ومعناه كل واحد (فى فلك يسبحون) يسيرون بانبساط وسهولة قال الامام فخر الدين اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون قال نقول الجواب عنه من وجوه . أحدها ما بينا ان قوله كل للعموم فكانه أخبر عن كل كوكب فى السماء سيار . ثانيها ان لفظ كل يجوز ان يوحد نظرا الي كونه لفظا موحداً غير مثنى ولا مجموع ويجوز ان يجمع لكون معناه جمعاً واما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلي هذا يحسن ان يقول القائل زيد وعمرو كل جاء وكل جاؤا ولا يقول كل جاآ بالتثنية . وثالثها لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد مافى الليل من الكواكب قال يسبحون اه ونظيره قوله تعالى قالتا أتينا طائعين فانه لما قال ثم استوي الي السماء وهي دخان فقال لها وللارض والمراد السماء وما فيها من الكواكب وما فى الارض من الجبال وغيرها قال طائعين وقال العلامة أبو السعود فى قوله تعالي يسبحون الجمع باعتبار التكاثر العارض للشمس والقمر بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعددا ما فى الذات * وقال تعالي فى سورة الصافات (انا زينا السماء الدنيا) أي القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على ان المراد بها الاسم أي ما يزان به لا المصدر فان الكواكب بانفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة قال الامام فخر الدين وفى بيان كيفية كون الكواكب

زينة

زينة للسماء وجوه . الاول ان النور والضوء أحسن الصفات واكملها ولو لم تحصل هذه الكواكب فى السماء لكانت شديدة الظلمة عند غروب الشمس أما لما حصلت هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك لا جرم بقى الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب . الوجه الثانى يجوز ان يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها الوجه الثالث يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها.الوجه الرابع ان الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأي هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألأة على ذلك السطح الازرق فلا شك انها أحسن الاشياء واكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة * وقال تعالى فى سورة حم السجدة (ثم استوى الي السماء) أي قصد نحوها قصداً سويا لا يلوى على غيره والمراد تعلق ارادته ومشيئته من غير ارادة خلق شيء آخر يضاهى خلقها (وهى دخان) أى أمر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن الاجزاء المتصغرة التي ركبت هى منها أو دخان مرتفع من الماء ذكر صاحب الاثر انه كان عرش الله تعالى على الماء قبل خلق السموات والارض فاحدث الله فى ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان أما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة و أحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات قال الامام فخر الدين واعلم ان هذه القصة غير موجودة فى القرآن فان دل عليه دليل صحيح قبل والا فلا قال وهذه القصة مذكورة فى أول الكتاب الذي يزعم اليهود انه التوراة وفيه انه تعالى خلق السماء من اجزاء مظلمة قال وهذا هو المعقول لان الظلمة عبارة عن عدم النور فالله سبحانه وتعالي لما خلق الاجزاء التي لا تتجزأ فقبل ان خلق

بها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ثم لماركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة فثبت ان تلك الاجزاء حين قصد الله تعالي ان يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة فصح تسميتها بالدخان لانه لا معنى للدخان الا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور (فقال لها) أسيء للسماء (وللارض) التى قدر وجودها ووجود مافيها (ائتيا طوعا أو كرها) أي كونا واحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق ارادته تعالى وقدرته بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير ان يكون هناك أمر ومأمور كما في قوله تعالي كن بان شبه تأثير قدرته فيهما وتأثرهما عنها بامر آمر نافذ الحكم يتوجه نحو المأمور المطيع فيمتثل أمره فعبر عن الحالة المشبهة بما يعبر به عن الحالة المشبه بها وقوله تعالى طوعا أو كرها تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالي فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا اثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين (قالتا أتينا طائعين) أي منقادين وهو تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرنا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريا على مقتضي الحكمة البالغة فان الطوع منبيء عن ذلك والكره موهم لخلافه وانما قيل طائعين على وزن جمع العقلاء لانه جعلهما في معرض الخطاب والجواب ووصفهما بالطوع والكره وهو من أوصاف العقلاء (فقضاهن سبع سموات) تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالامر وجوابه لا انه فعل مرتب على تكوينها أى خلقهن من جهة أو حال كونهن سبع سموات خلقا ابداعيا أي على طريق الاختراع لا على مثال أو أتقن أمرهن بان لا يكون فيهن خلل ونقصان حسبما تقتضيه الحكمة (في يومين) في وقت مقدر بيومين (وأوحى) أي ألقى بطريق

خفي

خفي وحكم بثبوت قوى (فى كل سماء أمرها) أي الامر الذي دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل وزمام مبرم لا ينحل (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب فانها كلها ترى متلألأة عليها والالتفات الى نون العظمة لابراز مزيد العناية بالامر (وحفظا) أى وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا أو المعنى وخلقنا المصابيح زينة وحفظا (ذلك) الذي ذكر بتفاصيله (تقدير العزيز العليم) المبالغ فى القدرة والعلم *وقال تعالى فى سورة ق (أفلم ينظروا) اي أغفلوا أو عموا فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بمقولهم (الي السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها كل وقت (كيف بنيناها) اى رفعناها بغير عمد (وزيناها) بما فيها من الكواكب الكبار والصغار السيارة والثابتة المرتبة على نظام بديع (وما لها من فروج) من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل قال الامام فخر الدين فى بعض المواضع من تفسيره انظر فى لون السماء وما فيه من صواب التدبير فان هذا اللون أشد الالوان موافقة للبصر وتقوية له حتى ان الاطباء يأمرون من اصابه وجع العين بالنظر الي الزرقة فانظر كيف جعل الله اديم السماء ملونا بهذا اللون الازرق لتنتفع به الابصار الناظرة اليها فهو سبحانه وتعالى جعل لونها انفع الالوان وهو المستنير وشكلها افضل الاشكال وهو المستدير ولهذا قال تعالي افلم ينظروا الى السماء *وقال تعالى فى سورة الذاريات (والسماء ذات الحبك) أي ذات الخلق المستوي أو ذات الزينة أو المتقنة البنيان او ذات الطرائق والمراد اما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار وتوصل بها الي المعارف أو النجوم فان لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى قال الامام فخر الدين ويحتمل أن يكون المراد ما فى السماء من الاشكال بسبب النجوم فان فى سمت كواكبها طرق التنين والعقرب والنسر

ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ومثله قوله تعالي والسماء ذات البروج * وقال تعالي فى سورة الذاريات أيضا (والسماء بنيناها بأيد) أي بقوة (وانا لموسعون) لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الانفاق أو من السعة أى أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الي السماء وسعتها كحلقة في فلاة قال الامام فخر الدين والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لايقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الي اقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها الى أن يتصل بعضها ببعض * وقال تعالي فى سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) أي يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والاوقات وتعلم السنون والحساب قال الامام فخر الدين ذكر تعالي من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولو لا الشمس لما زالت الظلمة ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الامر على الفصول ثم قال وانما اختار الشمس والقمر للذكر لان حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ولو اجتمع من فى العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطئوا ان يثبتوا حركتهما على المعر المعين على الصوب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده الى ان يرجع الي الحق ويقول حركهما الله تعالي كما أراد * وقال تعالى فى سورة الواقعة (فلا أقسم) أي فاقسم ولا مزيدة للتأكيد وتقوية الكلام أو

فلانا

فلانا أقسم فحذف المبتدا وأشبع فتحة لام الابتداء أو فلا رد لكلام يخالف المقسم عليه (بمواقع النجوم) أى بمساقطها وهى مغاربها وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير أو بمنازلها ومجاريها فان له تعالى فى ذلك من الدليل على عظم قدرته وكمال حكمته مالا يحيط به البيان قال الامام فخر الدين ذكر تعالى الدليل السماوى في معرض القسم وقال مواقع النجوم فانها أيضاً دليل الاختيار لان كون كل واحد من النجوم فى موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع فى الحقيقة دليل فاعل مختار اه وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وهذا المعنى هو الذي أردناه في خطبة الكتاب (وانه) أى القسم بمواقع النجوم (لقسم لو تعلمون عظيم) لما فى المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة وقوله لو تعلمون اعتراض بين الصفة والموصوف لتأكيد تعظيم المحلوف به وجواب لو محذوف والفعل منزل منزلة اللازم أي لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم وجواب القسم قوله تعالى (انه لقرآن كريم) أي كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد وقيل الكريم الذى من شأنه أن يعطي الكثير وسمى القرآن كريما لانه يفيد الدلائل التى تؤدى الي الحق فى الدين وقيل الكريم اسم جامع لما يحمد والقرآن كريم لما يحمد فيه من الهدى والنور والبيان والعلم والحكم فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد منه ويحتج به والاديب يستفيد منه ويتقوى به فكل عالم يطلب أصل علمه منه * وقال تعالي فى سورة الملك (الذى خلق سبع سموات طباقا) أى مطابقة بعضها فوق بعض بحيث يكون كل جزء منها مطابقا لجزء من الاخري من غير مماسة وكل سماء بالنسبة الى ما فوقها كحلقة في فلاة فسبحان

اللطيف الخبير ولا شك ان من تفكر فى هذه العظمة مع مالطف بنا فيما هيأ فيها لنا من المنافع آثره سبحانه بالحب وافرده عن كل ضد فانقطع باللجاء اليه ولم يعول الا عليه في كل دفع ونفع وسارع فى مرضاته ومحابه فى كل خفض ورفع ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) تباين وعدم تناسب بل هى مستقيمة مستوية ووضع مكان الضمير قوله خلق الرحمن تعظيما لخلقهن وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت وهو انه خلق الرحمن وانه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب رحمة وتفضلا واشعارا بان في ابداعها نعما جليلة او المراد ماتري في خلق الرحمن لهن ولغيرهن من تفاوت فان المخلوقات باسرها ليس فيها تناقض أو زيادة غير محتاج اليها أو نقصان محتاج اليه بل الكل مستقيمة مستوية دالة على ان خالقها عالم قال القفال ويحتمل ان يكون المعنى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وانه لم يخلقها عبثا قال الامام فخر الدين اعلم ان وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالي هو ان الحس دل على ان هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الاحكام والاتقان وكل فاعل كان فعله محكما متقنا فانه لابد وان يكون عالما فدلت هذه الدلالة على كونه تعالي عالما بالمعلومات فقوله ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة (فارجع البصر) أي قد نظرت اليها مرارا فانظر اليها مرة أخرى متأملا فيها لتعاين ما أخبرت به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها (هل ترى من فطور) جمع فطر وهو الشق أى من فروج وصدوع قال الامام فخر الدين انه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة وقال فارجع البصر هل ترى من فطور والمعنى انه لما قال ماتري في خلق الرحمن من تفاوت كانه قال بعده

ولعلك لا تحكم بمقتضي ذلك بالبصر الواحد ولا تعتمد عليه بسبب انه قد يقع الغلط فى النظرة الواحدة ولكن ارجع البصر واردد النظر مرة أخرى حتي تتيقن انه ليس فى خلق الرحمن من تفاوت ألبتة (ثم ارجع البصر كرتين) أي رجعتين أخريين وأعد النظر مرة بعد مرة فى طلب الخلل والعيب والمراد بالتثنية التكرير والتكثير أى بعد رجعة وان كثرت (ينقلب) يرجع (اليك البصر خاسئا) أى بعيداً محروماً من اصابة ما التمسه من العيب والخلل كانه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والذلة قال الامام فخر الدين أمره بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيبا أو خللا يعني انك اذا كررت نظرك لم يرجع اليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب بل يرجع اليك خاسئا أى مبعدا (وهو حسير) أي كليل لطول المعاودة وكثرة المراجعة (ولقد زينا السماء الدنيا) بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء اثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتصدير الجملة بالقسم لابراز كمال الاعتناء بمضمونها أي وبالله لقد زينا أقرب السموات الى الارض (بمصابيح) أي بكواكب متقدة عظيمة جدا تفوق الحصر ظاهرة زاهرة مضيئة بالليل اضاءة السرج من السيارات والثوابت ذكر العلامة أبو السعود انها تتراءى كان كلها مركوزة فى سماء الدنيا مع ان بعضها في سائر السموات قال وما ذاك الا لان كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق تحار فى فهمه الافكار وطراز فائق تهيم فى دركه الانظار قال الامام فخر الدين اعلم ان هذا دليل على كونه تعالى قادراً عالما وذلك لان هذه الكواكب نظرا الى انها محدثة ومختصة بمقدار خاص وموضع معين وسير معين تدل على ان صانعها قادر ونظرا الى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لاهل الدنيا وسببا لانتفاعهم بها تدل علي ان صانعها

عالم ونظيره هذه الآية فى سورة والصافات انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب
ثم قال واعلم ان الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فقيل ولقد زينا
سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح أى بمصابيح لا توازيها مصابيحكم اضاءة ثم
قال اعلم ان ظاهر هذه الآية لا يدل على ان هذه الكواكب مركوزة فى
السماء الدنيا وذلك لان السموات اذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في
السماء الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها فهى لا بد وان تظهر فى السماء الدنيا
وتلوح منها فعلي التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح قال واعلم ان
أصحاب الهيئة اتفقوا على ان هذه الثوابت مركوزة فى الفلك الثامن الذى هو
فوق اكر السيارات واحتجوا عليه بان بعض هذه الثوابت فى الفلك الثامن فيجب
ان تكون كلها هناك وانما قلنا ان بعضها في الفلك الثامن وذلك لان الثوابت
التى تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات فوجب أن تكون
الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة وانما قلنا ان هذه الثوابت
لما كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك لانها بأسرها متحركة
حركة واحدة بطيئة فى كل مائة سنة درجة واحدة فلا بد وأن تكون مركوزة
فى كرة واحدة قال واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف فانه لا يلزم من كون
بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك لانه لا يبعد وجود كرة
تحت كرة القمر وتكون فى البطء مساوية لكرة الثوابت وتكون الكواكب
المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة فى هذه الكرة السفلية اذ لا يبعد
وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة وعلى
هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة فى السماء الدنيا * وقال
تعالى فى سورة نوح (الم تروا) تتفكروا وتعتبروا وتنظروا (كيف خلق الله
سبع سموات) هن فى غاية العلو والسعة والاحكام والزينة (طباقا) أي

متطابقة

متطابقة بعضها فوق بعض (وجعل القمر فيهن نورا) أي منورا لوجه الارض
في ظلمة الليل قال العلامة أبو السعود ونسبته الى الكل مع أنه فى السماء الدنيا
لما أنها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون فى الكل أو لان كل واحدة منها شفافة
لا تحجب ماوراءها فيري الكل كأنها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك أن يكون
مافى واحدة منها كأنه فى الكل وقال الامام فخر الدين هذا كما يقال السلطان
فى العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة فى جميع أحياز العراق بل أن ذاته فى حيز
من جملة أحياز العراق فكذا ههنا اه قال بعض المفسرين وبدأ بالقمر لقربه
وسرعة حركته وقطعه جميع البروج فى كل شهر وغيبوبته فى بعض الليالى ثم
ظهوره وذلك أعجب فى القدرة (وجعل الشمس سراجا) يبصر أهل الدنيا فى
ضوءها وجه الارض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج
ما يحتاجون الى ابصاره وليس القمر بهذه المثابة انما هو نور فى الجملة وأيضاً
فالسراج له ضوء والضوء أقوي من النور فجعل الاضعف للقمر والاقوي
للشمس ومنه قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً * وقال
تعالى فى سورة النبأ (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) أي سبع سموات قوية
الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور والتعبير عن خلقها
بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق وقال الامام فخر الدين
البناء يكون أبعد عن الآفة والانحلال من السقف فذكر قوله وبنينا اشارة
الي أنه وان كان سقفاً لكنه في البعد عن الانحلال كالبناء فالغرض من اختيار
هذا اللفظ هذه الدقيقة (وجعلنا) أي أنشأنا وأبدعنا (سراجاً) هو الشمس
(وهاجاً) أى وقاداً متلألئاً * وقال تعالي (والنازعات) المراد به النجوم كما
ذكره بعض المفسرين أي والنجوم التي تنزع من المشرق الى المغرب من
قولهم نزعت الخيل اذا جرت فمعنى والنازعات أى والجاريات على السير المقدر

والحد المعين (غرقاً) فى النزع بأن تقطع الفلك حتي تحط فى أقصى الغرب أو معنى غرقها غيبوبتها فى أنق الغرب (والناشطات نشطاً) أي تنشط من برج الى برج أى تخرج من نشط الثور اذا خرج من بلد الي بلد ويرجع حاصل هذا الكلام كما قاله الامام فخر الدين الى أن قوله والنازعات غرقا اشارة الى حركتها اليومية والناشطات نشطاً اشارة الي انتقالها من برج الى برج وهو حركتها المخصوصة بها فى أفلاكها الخاصة قال والعجب أن حركتها اليومية قسرية وحركتها من برج الى برج ليست قسرية بل ملائمة لذواتها فلا جرم عبر عن الاول بالنزع وعن الثانى بالنشط قال فتأمل أيها المسكين فى هذه الاسرار (والسابحات سبحاً) أي تسبح في افلاك لان مرورها في الجو كالسبح (فالسابقات سبقاً) أى يسبق بعضها بعضا فى السير بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض أو بسبب رجوعها أو استقامتها (فالمدبرات أمراً) أى تدبر أمراً نيط بها فان بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الاوقات عن بعض فتظهر أوقات العبادات وتختلف الفصول الاربعة ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس فى المعاش فلا جرم أضيفت اليها هذه التدبيرات وهنا وجه آخر ذكره الامام فخر الدين وهو انه لما ثبت بالدليل أن كل جسم محدث ثبت ان الكواكب محدثة مفتقرة الى موجد يوجدها والى صانع يخلقها ثم بعد هذا نقول ان الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سبباً لحدوث حادث مخصوص فى هذا العالم كما جعل الاكل سبباً للشبع والشرب سبباً للرى ومماسة النار سبباً للاحتراق قال فالقول بهذا المذهب لا يضر الاسلام ألبتة بوجه من الوجوه والله أعلم بحقيقة الحال * وقال تعالى فى سورة النازعات أيضاً (أءنتم أشد خلقاً أم السماء) أى أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التى تحار العقول عن ملاحظة أدناها

(بناها) بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله أم السماء (رفع سمكها) بيان للبناء أي جعل مقدار ارتفاعها من الارض وذهابها الي سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام (فسوّاها) أى فعدلها مستوية ملساء ليس فيها ارتفاع ولا انخفاض أو فتممها بما علم أنها تتم به من الكواكب والتداوير وغيرها مما لا يعلمه الا الخلاق العليم من قولهم سوى أمر فلان اذا أصلحه (وأغطش ليلها) أي أظلمه أي جعله مظلماً (وأخرج ضحاها) أى أبرز نهارها عبر عنه بالضحي لانه أشرف أوقاته وأطيبها فكان أحق بالذكر فى مقام الامتنان وهو السر فى تأخير ذكره عن ذكر الليل وفي التعبير عن احداثه بالاخراج فان اضافة النور بعد الظلمة أتم في الانعام وأكمل فى الاحسان * وقال تعالي فى سورة التكوير (فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس) هى ماعدا النيرين من النجوم السيارة تخنس بضم النون اي ترجع فى مجراها ووراءها بينا تري النجم فى آخر البرج اذ كرّ راجعاً الي أوله وتكنس بكسر النون تدخل في كناسها أي تغيب فى المواضع التي تغيب فيها من كنس الوحش اذا دخل كناسه وهو بيته الذى يتخذه من أغصان الشجر قال الامام فخر الدين اختلفوا فى خنوس النجوم وكنوسها على ثلاثة أوجه فالقول الاظهر ان ذلك اشارة الي رجوع الكواكب السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ولاشك ان هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عظيمة باهرة . القول الثانى ماروي عن على عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة أنها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر فى النهار وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر فى الليل أي تظهر في أماكنها كالوحش فى كنسها والقول الثالث أن السيارة تختلف مطالعها ومغاربها علي ما قال تعالي رب المشارق والمغارب ولا شك أن فيها

مطلعاً واحد ومغربا واحداهما أقرب المطالع والمغارب الى سمت رؤسنا ثم
انها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع الي سائر المطالع طول السنة ثم ترجع اليه
فخنوسها عبارة عن تباعدها عن ذلك المطلع وكنوسها عبارة عن عودها اليه
فكل من هذه الثلاثة محتمل والله أعلم بمراده * وقال تعالى (والسماء ذات
البروج) يعني البروج الاثنى عشر ذات المنازل والمحال والطرق التى تسيرفيها
الكواكب سميت بروجا لظهورها وأصل التركيب للظهور يعني ان أصل
معنى البرج الامر الظاهر من التبرج ثم صار حقيقة فى العرف للقصر العالى
لظهوره ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضا شبهت بروج السماء
بالقصور التي تنزل فيها الاكابر والاشراف لانها منازل السيارات ويكون
فيها الثوابت وانما حسن القسم بها لما فيها من عجيب حكمة الباري جل جلاله
وهو سير الشمس والقمر والكواكب فيها على قدر معلوم لا يختلف قال
الامام فخر الدين اعلم ان في البروج ثلاثة أقوال . احدها انها هى البروج
وهى مشهورة وانما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة وذلك لان
سير الشمس فيها ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس فيدل ذلك
على أن لها صانعاً حكيما (وثانيها) أن البروج هي منازل القمر وانما حسن
القسم بها لما فى سير القمر وحركته من الآثار العجيبة (وثالثها) أن البروج
عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها * وقال تعالى (والسماء والطارق)
الطارق فى الاصل اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا اذاجاء ليلا والمراد هنا
الكوكب البادي بالليل اما على انه اسم جنس أوكوكب معهود وقيل الطارق
النجم الذي يقال له كوكب الصبح (وما أدراك ما الطارق) تنويه بشأنه اثر
تفخيمه بالاقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها ادراك الخلق فلا
بد من تلقيها من الخلاق العليم أي وأي شيء أعلمك ما الطارق (النجم

الثاقب)

الثاقب) استئناف وقع جوابا عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ماهو فقيل النجم المضيء فى الغاية كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه قال الامام فخر الدين اعلم أنه تعالى اكثر فى كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لان أحوالها فى اشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة وأما الطارق فهو كل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا أو غيره فلما قال تعالى والطارق كان هذا مما لايستغنى سامعه عن معرفة المراد منه فقال وما أدراك ماالطارق النجم الثاقب أي هو طارق عظيم الشأن رفيع القدر وهو النجم الذي يهتدي به فى ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الامطار وانما وصف النجم بكونه ثاقبا لوجوه . أحدها أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه . وثانيها أنه يطلع من المشرق نافذا فى الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء . وثالثها قال الفراء النجم الثاقب هو النجم المرتفع على النجوم والعرب تقول للطائر اذا لحق ببطن السماء ارتفاعا قد ثقب. ورابعها أنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والمراد به على هذا زحل اه ببعض تصرف واختصار قال العلامة ابو السعود وفى ايراده عند الاقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الاشارة الى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لاتبلغه أفكار الخلائق ثم فى تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه واجلال محله مالايخفي * وقال تعالي فى سورة الغاشية (أفلا ينظرون الي الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت) رفعا بعيد المدى بلا عماد ولا امساك بحيث لا يناله الفهم والادراك على مالها من السعة والكبر والثقل والاحكام وما فيها من الكواكب والغرائب والعجائب وقال تعالي (والشمس وضحاها) أي ضوئها اذا أشرقت وارتفعت وقام سلطانها (والقمر اذا تلاها) أى تبعها قال الامام فخر الدين واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائما بأن يذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان

الذي يقسم الله تعالي به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي الى تأمله أقوى
ثم قال واعلم انه تعالى انما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من
المصالح فان أهل العالم كانوا كالاموات في الليل فلما ظهر أثر الصبح في المشرق
صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة فصارت الاموات احياء ولا تزال
تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل ويكون غاية كمالها وقت الضحوة
فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ووقت الضحي يشبه استقرار أهل الجنة فيها
وفى كون القمر تاليا وجوه . أحدها بقاء القمر طالعا عند غروب الشمس
وذلك انما يكون في النصف الاول من الشهر اذا غربت الشمس فان القمر
يتبعها فى الاضاءة . وثانيها ان الشمس اذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال فى
الغروب . وثالثها ان القمر ياخذ الضوء من الشمس يقال فلان يتبع فلانا فى
كذا أي يأخذ منه . ورابعها ان القمر حين استدار وكمل فكانه يتلو الشمس
فى الضياء والنور يعنى اذا كمل ضوءه فصار كالقائمقام الشمس فى الانارة وذلك
فى الليالي البيض . وخامسها انه يتلوها فى كبر الجرم بحسب الحس وفى
ارتباط مصالح هذا العالم بحركته ولقد ظهر فى علم النجوم ان بينهما من
المناسبة ماليس بين الشمس وبين غيرها (والنهار اذا جلاها) أى جلا الشمس
واظهرها وكشفها فانها تجلى الى انبساط النهار تمام الانجلاء (والليل اذا
يغشاها) أي الشمس فيغطي ضوءها فتغيب وتظلم الآفاق قال القفال وهذه
الاقسام الاربعة ليست الا بالشمس في الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة
أولها الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار وذلك هو الوقت الذى يكمل
فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش ومنها تلو القمر لها وأخذه
الضوء عنها ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار ومنها وجود خلاف ذلك
بمجيء الليل ومن تأمل قليلا في عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية

والخلوقية من المقدار المتناهي والتركب من الاجزاء انتقل منه الي عظمة خالقها فسبحانه ما أعظم شأنه (والسماء وما بناها) أي ومن بناها على غاية العظم ونهاية العلو وايثار ما على من لارادة الوصفية تفخيما كانه قيل والقادر العظيم الشأن الذي بناها (والارض وما طحاها) أى بسطها من كل جانب (ونفس وما سواها) تقدم معناهقال الامام فخر الدين ان أعظم المحسوسات هو الشمس فذكرها سبحانه مع أوصافها الاربعة الدالة على عظمها ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهي تدبيره سبحانه السماء والارض والمركبات ونبه على المركبات بذكر أشرفها وهي النفس والغرض من هذا الترتيب هو ان يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس بل بجميع السماويات والارضيات والمركبات على اثبات مبدئ لها فحينئذ يحظى العقل هاهنا بادراك جلال الله وعظمته على ما يليق به والحس لا ينازعه فيه فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الي يفاع عالم الربوبية وبيداء كبرياء الصمدية فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته

المطلب الرابع في كيفية النظر والتفكر في الليل والنهار للاستدلال على الصانع المختار الحكيم

قال الله تعالي في سورة الانعام (فالق الاصباح) أي هو فالق الاصباح والاصباح مصدر سمى به الصبح وفي معنى فالق الاصباح وجوه . الاول ان يكون المراد فالق ظلمة الاصباح وذلك لان الافق من الجانب الشمالي والغربي والجنوبي مملوء من الظلمة والنور انما ظهر في الجانب الشرقي فكان الافق كان بحرا مملوأ من الظلمة ثم انه تعالي شق ذلك البحر المظلم بان أجرى

جدولا من النور فيه والحاصل ان المراد فالق ظلمة الاصباح بنور الاصباح ولما كان المراد معلوما حسن الحذف . والثاني انه تعالي كما يشق بحر الظلمة عن نور الصبح فكذلك يشق نور الصبح عن بياض النهار فقوله فالق الاصباح أي فالق الاصباح ببياض النهار . والثالث ان ظهور النور فى الصباح انما كان لاجل ان الله تعالي فلق تلك الظلمة فقوله فالق الاصباح أي مظهر الأصباح الا انه لما كان المقتضى لذلك الاظهار هو ذلك الفلق لا جرم ذكر اسم السبب والمراد منه المسبب . الرابع قال بعضهم الفالق هو الخالق فكان المعنى خالق الاصباح قال الامام فخر الدين وتقرير الحجة من وجوه . الاول ان نقول الصبح صبحان . فالصبح الاول هو الصبح المستطيل كذنب السرحان ثم تعقبه ظلمة خالصة ثم يطلع بعده الصبح المستطير فى جميع الافق فنقول أما الصبح الاول وهو المستطيل الذي يحصل عقبية ظلمة خالصة فهو من اقوي الدلائل على قدرة الله وحكمته وذلك لانا نقول ان ذلك النور اما ان يقال انه حصل من تأثير قرص الشمس أو ليس الامر كذلك والاول باطل وذلك لان مركز الشمس اذا وصل الي دائرة نصف الليل فاهل الموضع الذي تكون تلك الدائرة أفقالهم قد طلعت الشمس من مشرقهم وفى ذلك الموضع أيضا نصف كرة الارض وذلك يقتضى انه حصل الضوء فى الربع الشرقى من بلدتنا وذلك الضوء يكون منتشرا مستطيرا في جميع اجزاء الجو ويجب ان يكون ذلك الضوء في كل ساعة الي القوة والزيادة والكمال والصبح الاول لو كان أثر قرص الشمس لامتنع كونه خطا مستطيلا بل يجب ان يكون مستطيرا فى جميع الافق منتشرا فيه بالكلية وان يكون متزايدا متكاملا بحسب كل حين ولحظة ولما لم يكن الامر كذلك بل علمنا أن الصبح الاول يبدو كالخيط الابيض الصاعد حتي تشبهه العرب بذنب السرحان ثم انه يحصل عقيبه ظلمة خالصة ثم

يحصل

يحصل الصبح المستطير ليس من تأثير قرص الشمس ولا من جنس نوره فوجب أن يكون ذلك حاصلا بتخليق الله تعالي ابتداء تنبيها على أن الانوار ليس لها وجود الا بتخليقه وأن الظلمات لا ثبات لها الا بتقديره كما قال في أول هذه السورة وجعل الظلمات والنور (والوجه الثانى) فى تقرير هذا الدليل انا لما بحثنا وتأملنا علمنا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا تقع أضواؤها الا على الجرم المقابل لها فأما الذي لا يكون مقابلا لها فيمتنع وقوع أضوائها عليه وهذه مقدمة متفق عليها بين الفلاسفة وبين الرياضيين الباحثين عن أحوال الضوء المضيء * اذا عرفت هذا نقول الشمس عند طلوع الصبح غير مرتفعة من الافق فلا يكون جرم الشمس مقابلا لجزء من أجزاء وجه الارض فيمتنع وقوع ضوء الشمس على وجه الارض واذا كان كذلك امتنع أن يكون ضوء الصبح من تأثير قرص الشمس فوجب أن يكون ذلك بتخليق الفاعل المختار فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حين كونها تحت الارض توجب اضاءة ذلك الهواء المقابل له ثم ذلك الهواء مقابل لهواء الواقف فوق الارض فيصير ضوء الهواء الواقف تحت سببا لضوء الهواء الواقف فوق ثم لا يزال يسري ذلك الضوء من هواء الي هواء آخر ملاصق له حتى يصل الي الهواء المحيط بنا والجواب أن هذا باطل من وجهين (الاول) أن الهواء لا يقبل النور واللون في ذاته وجوهره وهذا متفق عليه بين الفلاسفة فيمتنع أن ينعكس النور منه الي غيره واذا كان كذلك امتنع أن يصير ضوءه سببا لضوء هواء آخر مقابل له * فان قيل لم لا يجوز أن يقال انه حصل فى الافق أجزاء كثيفة من الأبخرة والادخنة وهي لكثافتها تقبل النور عن قرص الشمس ثم ان بحصول الضوء فيها يصير سببا لحصول الضوء فى الهواء المقابل لها فنقول لو كان السبب ما ذكرتم لكان كلما كانت الابخرة والادخنة في الافق أكثر وجب أن يكون ضوء الصباح أقوي لكنه ليس

الامر كذلك بل على العكس منه فبطل هذا العذر (الوجه الثانى) ان الدائرة التي هي دائرة الافق لنا فهي بعينها دائرة نصف النهار لقوم آخرين فاذا كان كذلك فالدائرة التي هي نصف النهار فى بلدنا وجب كونها دائرة الافق لأولئك الاقوام * اذا ثبت هذا فنقول اذا وصل مركز الشمس الى دائرة نصف الليل وتجاوز عنها فالشمس قد طلعت على أولئك الاقوام واستنار نصف العالم هناك والربع من الفلك الذى هو ربع شرقى لاهل بلدنا فهو بعينه ربع غربى بالنسبة الي تلك البلدة واذا كان كذلك فالشمس اذا تجاوز مركزها عن دائرة نصف الليل قد صار جرمها محاذيا لهواء الربع الشرقى لاهل بلدنا فلو كان الهواء يقبل كيفية النور من الشمس لوجب أن يحصل الضوء والنور فى هواء الربع الشرقى من بلدنا بعد نصف الليل وأن يصير هواء الربع الشرقى فى غاية الاضاءة والانارة بعد نصف الليل وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن الهواء لا يقبل كيفية النور فى ذاته واذا بطل هذا بطل العذر الذي ذكر قبل فقد ذكرنا برهانين دقيقين عقليين محضين على أن خالق الضوء والظلمة هو الله تعالى لا قرص الشمس (والوجه الثالث) هب أن نور الصباح الحاصل فى العالم انما كان بسبب الشمس الا أنا قد دللنا على أن حصول خاصية الضوء لقرص الشمس يجب أن يكون بتخليق الفاعل المختار * واذا ثبت هذا كان فالق الاصباح فى الحقيقة هو الله تعالي (الوجه الرابع) فى تقرير هذا المطلوب أن الظلمة شبيهة بالعدم والنور محض الوجود فاذا أظلم الليل حصل الخوف والفزع فى قلب الكل فاستولي النوم عليهم وصاروا كالاموات وسكنت المتحركات ورفعت التأثيرات والتفعيلات فاذا وصل نور الصباح الي هذا العالم فكأنه نفخ فى الصور مادة الحياة وقوة الادراك فضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة

في

في الحيوان أكمل ومعلوم أن أعظم نعم الله على الخلق هو قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور سبباً لحصول هذه الاحوال كان تأثير قدرة الله تعالي في تخليق النور من أعظم أقسام النعم وأجل أنواع الفضل والكرم اذا عرفت هذا فكونه سبحانه فالقا للاصباح في كونه دليلا على كمال قدرة الله تعالى أجل أقسام الدلائل وفي كونه فضلا ورحمة واحساناً من الله تعالى على الخلق أجل الاقسام وأشرف الانواع ولنختم هذه الدلائل بخاتمة شريفة فنقول انه تعالي فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والايجاد وفالق ظلمة الجمادية بصباح الحياة والعقل والرشاد وفالق ظلمة الجهالة بصباح العقل والادراك وفالق ظلمات العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية الي صبحة عالم الافلاك وفالق ظلمات الاشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات (وجعل الليل سكنا) أي يسكن فيه الخلق راحة لهم اذ كل ذي روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه في النهار فيحتاج الي زمان يستريح فيه ويسكن فيه عن الحركة وذلك هو الليل * وقال تعالى في سورة الاعراف (يغشى الليل النهار) أي يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لان اللفظ يحتملها بجعل الليل مفعولا أولا والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس وعبارة الخطيب يغشي أي يغطى الليل بظلمته النهار أي والنهار الليل بضوءه فيعتدل فعلهما على ماقدره الله تعالى لهما في السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة في الدين والدنيا الظاهرة لكل ذي عقل أنها تدبيره تعالى بفعله واختياره وقهره واقتداره (يطلبه حثيثا) أي يعقبه سريعا من غير أن يفصل بينهما بشيء فصار كأنه يطلبه على منهاج واحد * وقال تعالي في سورة ابراهيم وسورة النحل (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وجعلها خلفة لمنامكم ومعاشكم وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار

ليبتغوا من فضله * وقال تعالى فى سورة الاسرى (وجعلنا الليل والنهار آيتين)
أى جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر على وتيرة عجيبة
يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما قال الامام
فخر الدين والمعني أنه تعالي جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا أما
فى الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على
الدوام من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما بل لابد لهما من فاعل
يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لاتتم الا
بالليل والنهار فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل
الكسب والتصرف فى وجوه المعاش (فمحونا آية الليل) الاضافة بيانيه كما
فى اضافة العدد الي المعدود أي محونا الآية التي هى الليل وفائدتها تحقيق
مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لابمعنى أن
لم يكن كذلك بل ابداعها علي ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر
الفيل أي انشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه
ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل
ومتمماته (وجعلنا آية النهار) أي الآية التي هي النهار على نحو مامر (مبصرة)
أي مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها (لتبتغوا) متعلق بقوله
تعالى وجعلنا آية النهار أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار
(فضلا من ربكم) أى رزقا لا يتسني ذلك في الليل وفي التعبير عن الرزق
بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ
الي الكمال شيأ فشيأ دلالة على ان ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى
الطلب وانما الاعطاء الي الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا
بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية

النهار

النهار مبصرة لا باحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أي لتعلموا بتفاوت الجديدين (عـدد السـنين) التى يتعلق بها غرض علمي لاقامة مصالحـكم الدينية والدنيوية (٢ ا الحساب) أي الحساب المتعلق بما في ضمنهما من الاوقات أي الاشهر والليالي والايام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ولو لا ذلك لما علم أحـد حساب الاوقات ولعطلت أمور كثيرة * وقال تعالى فى سورة المؤمنون (وله اختلاف الليل والنهار) أي هو المؤثر فى تعاقبهما فى الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب احدهما جاء الآخر خلفه أي بعـده أو له التصرف فيهـما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان أى انه تارة يزداد طول النهار على طول الليـل وبالعكس وبمقدار ما يزداد فى النهار الصيفي يزداد فى الليل الشتوي قال ابن الخطيب وعندى فيه وجه ثالث وهو ان الليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر فى الازمنة فهما يختلفان فى الامكنة فان من يقول ان الارض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الارض صبح وفى موضع آخر ظهر وفى آخر عصر وفي آخر مغرب وفى آخر عشاء وهلم جرا هذا اذا اعتبرنا البـلاد المختلفة في الطول أما البلاد المختلفة فى العرض فكل بلد يكون عرضه للشمال اكثر كانت أيامه الصيفية أقصر وايامه الشتوية بالضد. من ذلك فهذه الاحوال المختلفـة فى الايام والليالى بحسب اختلاف أطوال البـلاد وعروضـها أمر عجيب اه وقال الامام فخر الدين ان اختلاف أحوال الليل والنهار يدل على الصانع المختار من وجوه . الاول ان اختلاف احوال الليـل والنهار مرتبط بحركات الشمس وهى من الآيات العظام. الثاني ما يحصل بسبب طول الايام تارة وطول الليالى أخرى من اختـلاف الفصول وهى الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الآيات العظام . الثالث ان انتظام احوال العباد

بسبب طلب الكسب والمعيشة في الايام وطلب النوم والراحة فى الليالى
من الآيات العظام . الرابع ان كون الليل والنهار متعاونين على تحصيل
مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافي من الآيات العظام فان مقتضي
التضاد بين الشيئين ان يتفاسدا لا أن يتعاونا على تحصيل المصالح . الخامس ان
اقبال الخلق في اول الليل على النوم يشبه موت الخلائق أولا عند النفخة الاولى
فى الصور ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة اليهم عند النفخة
الثانية وهذا أيضا من الآيات العظام المنبهة على الآيات العظام السادس ان
انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل فيه من الآيات العظام كانه جدول ماء
صاف يسيل فى بحر كدر بحيث لا يتكدر الصافي بالكدر ولا الكدر بالصافى
وهو المراد بقوله تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا . السابع ان تقدير
الليل والنهار بالمقدار المعتدل الموافق للمصالح من الآيات العظام فان فى الموضع
الذى يكون القطب على سمت الراس تكون السنة ستة أشهر فيها نهارا وستة
اشهر ليلا وهناك لا يتم النضج ولا يصلح لمسكن الحيوان ولا يتهيأ فيه شيء من
أسباب المعيشة (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل
صنعه تعالى فتعتبرون وتعلمون ان الكل منا وان قدرتنا تعم جميع الممكنات
* وقال تعالي فى سورة النور (يقلب الله الليل والنهار) بالمعاقبة بينهما وبنقص
أحدهما وزيادة الآخر وبتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من
الامور كالنمو والتنويع واليبس وغير ذلك مما يبهر العقول (ان فى ذلك لعبرة)
أى لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته واحاطة
علمه بجميع الاشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي (لاولي
الابصار) لكل من له بصر أو لاصحاب العقول والبصائر * وقال تعالى فى
سورة الفرقان (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً) أى هو الذى جعل لكم

الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتا) أى وجعل النوم الذي يقع فى الليل غالباً قطعا عن الافاعيل المختصة بحال اليقظة راحة للابدان وعبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذي يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها وهذا مع دلالته على قدرة الخالق فيه اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية (وجعل النهار نشورا) اما من الانتشار أى وجعل النهار ذا نشور أى انتشار ينتشر فيه الناس لطلب المعاش وابتغاء الرزق كما قال لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو من نشر الميت اذا عاد حياً أي وجعل النهار زمان بعث من ذلك السبات والنوم كبعث الموتي على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه اشارة الي أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يابني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * وقال تعالي في سورة الفرقان أيضاً (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) من الخلاف أي جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه فجعل هذا اسود وهذا أبيض أو ذوى خلفة يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان أو يخلف كل منهما الآخر بان يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه (لمن أراد ان يذكر) أي يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر في بدائع صنعه فيعلم انه لا بد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد وقال الامام فخر الدين المعني لينظر الناظر فى اختلافهما فيعلم انه لا بد فى انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير (أو أراد شكورا) أي شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائما لفات مصالح الآخر ولحصلت

السآمة والملل منه والتوانى في الامور المقـدرة بالاوقات وفتر العزم الذى انما يثيره لتـداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التي أحكمها العلي الـكبير * وقال تعالى فى سورة القصص (قل أرأيتم) أى أخـبروني (ان جعل الله عليكم الليل) أى الذي به اعتـدال حر النهار (سرمدا) دائما لانهاية معه (الى يوم القيامة) فتكونون فى ظلمة دائمة (من اله غير الله) صفة لاله (يأتيكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والالزام (أفلا تسمعون) هـذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبـه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار) أي الذى توازن حرارته رطوبة الليل فيتم بهـا صلاح النبات وغـير ذلك من جميع المقدورات (سرمـدا الى يوم القيامة) بحيث تكون السمش مقابلة لوجه الارض دائما (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التى لاتخفي على من له بصر قال الامام فخر الدين اعلم أنه تعـالى لما بين من قبـل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله * وهو الله لااله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحـكم واليه ترجعون فصل عقيب ذلك بعض مايجب أن يحمد عليه مما لايقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الي يوم القيامة فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا وفي حال التكليف مدفوع الي أن يتعب لتحصيل مايحتاج اليه ولايتم له ذلك لولاضوء النهار ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لايتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه فبين تعـالي أنه لاقادر علي ذلك الا الله تعالى وانما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا

منزلة

منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله أفلا تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ماأنتم عليه من الخطأ والضلال اه قال في روح البيان اعلم أن فلك الشمس يدور في بعض المواضع رحويا لا غروب للشمس فيه فنهاره سرمدي فلا يعيش الحيوان فيه ولا ينبت النبات فيه من قوة حرارة الشمس فيه وكذلك يدور فلك الشمس فى بعض المواضع بعكس هذا تحت الارض ليس للشمس فيه طلوع فليله سرمدى فلايعيش الحيوان أيضا فيه ولا ينبت النبات ثمة فلهذا المعني قال تعالي (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار) أي يتعاقبان بالظلمة والضياء (لتسكنوا فيه) أي فى الليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) أي وليكون حالكم حال من يرجي منه الشكر لما تجدد لكم من تقلبهما من النعم المتوالية التي لا يحصرها الا خالقها قال امام الحرمين وغيره من الفضلاء لا خلاف أن الشمس تغرب عند قوم وتطلع عند قوم آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وعند خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويا أبدا وذكروا أن بلغار مدينة الصقالبة ضاربة فى الشمال شديدة البرد والفجر يطلع في تلك الديار قبل غيبوبة الشفق فى أقصر ليالي السنة * وقال تعالى فى سورة لقمان (ألم تر) أي الم تعلم علما قويا جاريا مجري الرؤية (أن الله) بقدرته وحكمته (يولج) أى يدخل (الليل في النهار) فيغيب فيه بحيث لا يري شيء منه فاذا النهار قد عم الارض كلها أسرع من اللمح (ويولج النهار) أي يدخله كذلك (في الليل) فيخفى حتي لا يبقى له أثر فاذا الليل قد طبق الآفاق مشارقها ومغاربها فى مثل الطرف فيميز سبحانه كلا منهما من الآخر بعد اضمحلاله أو المعني انه يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا قال الامام فخر الدين ايلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما)

ان يقال المراد ايلاج الليل في زمان النهار أي يجعل فى الزمان الذي كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا أثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا في زمان كان فيه النهار * وثانيهما ان يقال المراد ايلاج زمان الليل في النهار اى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا أثنتى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا في النهار (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما فى الصيغة لما ان ايلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين وأما تسخير النيرين فامر لا تعدد فيه ولا تجدد وانما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشار الي ذلك حيث قال (كل يجري) أي بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الايام جريا مستمرا (الى أجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة (وان الله بما تعلمون خبير) عطف على ان الله يولج داخل معه في حيز الرؤية فان من شاهد مثل الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها قال بعضهم ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار فيصير الظلام ضياء ولما كان هذا الفعل فى غاية الاعجاب وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفا فنغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة ذكره الله تعالى بقوله يولج الليل فى النهار ثم نبه عليه باعادة الفعل فقال تعالي ويولج النهار فى الليل فيصير ما كان ضياء ظلاما وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا فدل كل ذلك على انه تعالى فاعل بالاختيار* وقال تعالي في سورة يس (وآية لهم) على القدرة العظيمة (الليل) المظلم كانه قيل كيف كان آية فقال (نسلخ منه النهار) المضيء أي نزيل النهار ونكشفه عن مكان الليل بحيث لا يبقى معه شيء من ضوءه فى الهواء مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال (فاذاهم مظلمون)

أي داخلون في الظلام واذا للمفاجأة أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم
من الدخول فيه واعلم ان الليل وان كان فى نفسه آية الا ان الشيء تتبين
بضده منافعه ومحاسنه ولهذا لم يجعل الليل وحده آية فى موضع من المواضع
الا وذكر آية النهار معها * وقال تعالي فى سورة الزمر (يكور الليل على
النهار ويكور النهار على الليل) أى يغشي كل واحد منهما الاخر أو يدخله عليه
فيزيد فكانه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ويغيبه فيه كما يغيب الملفوف
باللفافة أو يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع اكوار العمامة قال الراغب كور
الشيء ادارته وضم بعضه الى بعض ككور العمامة وقوله يكور الليل على
النهار ويكور النهار على الليل اشارة الي جريان الشمس في مطالعها وانتقاص
الليل والنهار وازديادهما اه ومنتهي الزيادة اربع عشرة ساعة ومنتهي النقصان
عشر ساعات قال الامام فخر الدين ان الدلائل التي ذكرها الله تعالى في اثبات
الهيئه أما ان تكون فلكية او عنصرية اما الفلكية فاقسام احدها خلق
السموات والارض والثانى اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا
من قوله يكور الليل على انهار ويكور النهار على الليل وذلك لان النور والظلمة
عسكران مهيبان عظيمان وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة وذاك هذا أخري
وذلك يدل على ان كل واحد منهما مغلوب مقهور ولا بد من غالب قاهر لهما
يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى * وقال تعالى في سورة غافر
(الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى ليزول عنكم التعب والكلال
فيه بما تقاسون فى نهاركم من تعب التردد في المعاش ولتستريحوا فان الليل لكونه
باردا رطبا تضعف فيه القوي التى تصدر عنها الحركة ولكونه مظلما يؤدى الي
سكون الحواس فتستريح النفس والقوي والحواس بقلة أشغالها وأعمالها كما
قال ابن هيصم جعل الليل مناسبا للسكون من الحركة لان الحركة على وجهين

حركة طبع من الحرارة وحركة اختيار من الخواطر المتتابعة بسبب الحواس فخلق الليل مظلما لتنسد الحواس وباردا لتسكن الحركة ولذا قيل للبرد القر لاجل أن البرد يقتضى السكون والحر الحركة (والنهار مبصرا) أى مضيأ تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة وفى الكلام احتباك أي شبه حيث حذف من كل ما أثبته أو مقابله في الآخر فالتقدير الله الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لتحصيل معاشكم فحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه وهذا أفصح كلام قال الامام فخر الدين واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته اما فلكية واما عنصرية أما الفلكيات فأقسام كثيرة . أحدها تعاقب الليل والنهار وكان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله تعالى في هذا المقام وبين أن الحكمة في خلق الليل والنهار حصول الراحة بسبب النوم والسكون والحكمة في خلق النهار ابصار الاشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الانفع أما ان السكون فى وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين . الاول ان الحركات توجب الاعياء من حيث ان الحركة توجب السخونة والجفاف وذلك يوجب التألم والثانى ان الاحساس بالاشياء انما يمكن بايصال الارواح الجسمانية الي ظاهر الحس ثم ان تلك الارواح تحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والاحساسات واذا نام الانسان عادت الارواح الحساسة فى باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الاعياء وأيضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل فى النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات فهذه هى المنافع المعلومة من قوله تعالي الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وأما قوله والنهار مبصرا فاعلم ان الانسان مدني

بالطبع ومعناه أنه مالم يحصل مدنية تامة لم تنتظم مهمات الانسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه وتلك المهمات لاتحصل الا باعمال كثيرة وتلك الاعمال تصرفات فى امور وهذه التصرفات لاتكمل الا بالضوء والنور حتى يميز الانسان بسبب ذلك النور بين مايوافقه وبين مالا يوافقه فهذا هو الحكمة فى قوله والنهار مبصرا (ان الله لذو فضل) عظيم (على الناس) لايوازيه فضل ولا يدانيه بخلق الليل والنهار ومايحتويان عليه من المنافع (ولكن أكثر الناس لايشكرون) لجهلهم بالمنعم واغفالهم مواضع النعم قال الامام فخر الدين واعلم أنه تعالى لما ذكر مافى الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جدا ولكنهم لايشكرونه واعلم أن ترك الشكر لوجوه . احدها أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالي مثل أن يعتقد أن هذه الافلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها فحينئذ هذا الرجل لايعتقد أن هذه النعم من الله تعالي . وثانيها أن الرجل وان اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه الا أن هذه النعم العظيمة أعنى نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الانسان فاذا ابتلى الانسان بفقدان شيء منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبس في آبار عميقة مظلمة مدة مديدة فحينئذ يعرف ذلك الانسان قدر نعمة الهواء الصافى وقدر نعمة الضوء . وثالثها أن الرجل وان كان عارفا بمواقع هذه النعم الا أنه يكون حريصاً على الدنيا محبا للمال والجاه فاذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع فى كفران هذه النعم العظيمة ولما كان أكثر الخلق هالكين فى أحد هذه الاودية الثلاثة التي ذكرناها لا جرم قال تعالى ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون

ونظيره قوله تعالي وقليل من عبادي الشكور وقول ابليس ولا تجد أكثرهم شاكرين * وقال تعالي فى سورة النبأ (وجعلنا الليل لباساً) يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ووجه النعمة في ذلك هو أن ظلمة الليل تستر الانسان عن العيون اذا أراد هربا من عدو أو اخفاء مالا يحب الانسان اطلاع غيره عليه قال المتنبي

وكم لظلام الليل عندي من يد * تخبر أن المانوية تكذب

وأيضا فكما أن الانسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذي الحر والبرد فكذا الباس الليل بسبب مايحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الانسان وفى طراوة أعضائه وفى تكامل قواه الحسية والحركية ويندفع عنه أذي التعب الجسمانى وأذي الافكار الموحشة النفسانية فان المريض اذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة (وجعلنا النهار معاشا) أي وقت حياة تبعثون فيه من نومكم وتتقلبون فيه في حوائجكم ومكاسبكم لتحصيل ما تعيشون به * وقال تعالي (والليل اذا يغشى) بظلمته كل ما بين السماء والارض (والنهار اذا تجلي) ظهر بزوال ظلمة الليل قال الامام فخر الدين واعلم أنه تعالي أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان الي مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ثم أقسم بالنهار اذا تجلي لان النهار اذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة لكن المصلحة كانت فى تعاقبهما على ما قال وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة وسخر لكم الليل والنهار

﴿ المبحث السادس فى النظر في الرياح * وفيه مطلبان ﴾

« المطلب الاوّل في كيفية النظر فى الرياح »
(للاستدلال على الصانع المختار الحكيم)

اعلم أن الريح هو الهواء المتحرك وكون هذا الهواء متحركا ليس لذاته ولا للوازم ذاته والا لدامت الحركة بدوام ذاته فلا بد وأن يكون لتحريك الفاعل المختار وهو الله جل جلاله قال المتقدمون من الفلاسفة ههنا سبب آخر وهو أنه يرتفع من الارض أجزاء أرضية دخانية لطيفة تسخنها الشمس تسخينا قويا شديدا فبسبب تلك السخونة الشديدة ترتفع وتتصاعد فاذا وصلت الي القرب من الفلك كان الهواء الملتصق بمقعر الفلك متحركا على استدارة الفلك بالحركة المستديرة التي حصلت للطبقة الموجودة هناك وهي كرة النار فيمنع هذه الادخنة من الصعود بل يردها عن سمت حركتها فحينئذ ترجع تلك الادخنة وتتفرق فى الجوانب وبسبب ذلك التفرق تحصل الرياح ثم كلما كانت تلك الادخنة أكثر وكان صعودها أقوى كان رجوعها أيضا أشد حركة فكانت الرياح أقوى وأشد هذا حاصل ما ذكروه ويدل على بطلانه وجوه. الاول ان صعود الاجزاء الارضية انما يكون لاجل شدة تسخينها ولا شك ان ذلك التسخن عرض لان الارض باردة يابسة بالطبع فاذا كانت تلك الاجزاء الارضية متصعدة جدا كانت سريعة الانفعال فاذا تصاعدت ووصلت الى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد جدا واذا بردت امتنع بلوغها في الصعود الي الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك فبطل ماذكروه * الوجه الثانى هب ان تلك الاجزاء الدخانية صعدت الى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك لكنها لما رجعت وجب ان تنزل

على الاستقامة لانها اجزاء أرضية والارض جسم ثقيل والثقيل انما يتحرك بالاستقامة والرياح ليست كذلك فانها تتحرك يمنة ويسرة * الوجه الثالث هو ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية واذا لم تكن أقوى فلاأقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمي الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عندما تحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة الى السفل وجب ان تهدم السقف ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن ان يهدمه فيعلم من ذلك ان حركة الاجزاء الارضية النازلة لا تكون حركة قاهرة فثبت فساد ما ذكروه * الوجه الرابع انه لو كان الامر على ماقالوه من ان الرياح من أجزاء أرضية دخانية لكانت الرياح كلما كانت أشدوجب أن يكون حصول جزاء الدخانية الغبارية الارضية اكثر لكنه ليس الامر كذلك لان الرياح قد يعظم عصوفها وهبوبها في وجه البحر مع أن الحس يشهد أنه ليس فى ذلك الهواء المتحرك العاصف شيء من التغير والكدرة فبطل ما قالوه وبطل بهذا الوجه العلة التي ذكروها فى حركة الرياح قال المنجمون ان قوي الكواكب هى التى تحرك الرياح وتوجب هبوبها وذلك أيضاً بعيد لان الموجب لهبوب الرياح ان كان طبيعة الكوكب وجب دوام الرياح بدوام تلك الطبيعة وان كان الموجب هو طبيعة الكوكب بشرط حصوله فى البرج المعين والدرجة المعينة وجب أن يتحرك هواء كل العالم وليس كذلك فبطل ما قالوه قال المتأخرون من الفلاسفة ان الكون مكون من طبقات رقيقة موضوعة فوق بعضها تتناقص كثافتها كلما بعدت عن سطح البحر وكلما كانت الموازنة بينهما اكمل كان الجو أسكن وأهدأ فاذا انقطعت الموازنة باي سبب كان كتغير درجة

الحرارة ومدّ البحر وجزره والتيارات المائية القوية والقذفات البركانية
ورطوبة الهواء وكهربائيته وحركة دوران الارض اضطربت تلك الكتلة
وتحركت وابتدأ الاستشعار بالريح وهذا أيضاً بعيد لان بعض تلك الاسباب
خاصة ببعض المواضع فكيف توجب تحرك الهواء فى موضع آخر وبعضها
أمور ملازمة فكان يجب دوام حصول الرياح بدوامها وأيضاً انا نشاهد فى
اختلاف الرياح ما يتعذر تعليله بما ذكره المتقدمون منهم والمتأخرون وذلك
الاختلاف من وجوه (الاول) ان هذه الرياح تارة تسكن وتارة تتحرك ثم
ان حركات الرياح تارة تكون جامعة لاجزاء السحاب موجبة لانضمام بعضها
الي البعض حتي ينعقد السحاب الغليظ وتارة تكون مفرقة لاجزاء السحاب
مبطلة لها (الثانى) أن هذه الرياح تارة تكون مقوية للزروع والاشجار
مكملة لما فيها من النشو والنماء وهي الرياح اللواقح وتارة تكون مبطلة لها
كما فى الخريف (الثالث) أن هذه الرياح تارة تكون طيبة لذيذة موافقة
للابدان حتي تصح بها القوي وتصفو البشرة وتذكو الحواس وتهيج الشهوة
وتارة تكون مهلكة اما بسبب ما فيها من الحر الشديد كما فى السموم أو بسبب
ما فيها من البرد الشديد كما فى الرياح المهلكة جداً (الرابع) أن هذه الرياح
تارة تكون شرقية وتارة تكون غربية وشمالية وجنوبية وهذا ضبط ذكره
بعض الناس والا فالرياح تهب من كل جانب من جوانب العالم ولا ضبط لها
ولا اختصاص لجانب من جوانب العالم [illegible]
والحار والبارد (السادس) أن هذه الرياح تارة تكون ضعيفة وتارة تكون
قوية شديدة حتى يصير الهواء اللطيف الذى يشقه البعوض بحيث يقلع الشجر
وهو ليس بذاته كذلك (السابع) أنها تارة تكون بطيئة فى سيرها وتارة تكون
سريعة فيه من سبعة أميال [illegible]

الساعة مائة وعشرين ميلا أو اكثر لكنه نادر (الثامن) أن منها الاعصار والزوبعة وهي الريح التى تدور على نفسها شبه منارة أوشبه تنين يدور في الجو وربما صادفت سفينة فترفعها وتدورها وتغرقها (التاسع) أن هذه الرياح تارة تصعد من قعر الارض فان من ركب البحر يشاهد أن البحر يحصل غليان شديد فيه بسبب تولد الرياح من قعر البحر الي ما فوق البحر وحينئذ يعظم هبوب الرياح فى وجه البحر وتارة ينزل الريح من جهة فوق وهذا أيضاً عجيب (العاشر) أن منها رياح الرحمة وريح العذاب روي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من ريح الجنة وعن كعب لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لا نتن أكثر الارض وعن ابن عمر رضي الله عنهما الرياح ثمان أربع منها عذاب وهو القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربعة منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وسيأتي ذكر هذه الرياح أما العواصف فهي رياح تحصل بجأة وربما تتابعت عواصف كثيرة يتلو بعضها بعضاً ورياحها تكون منحرفة وتخرج على هيئة زوابع سريعة الزوال والقواصف لا تختلف عن العواصف الا فى شدتها وعنفوانها وتصحبها غالباً عواصف تنقذف من السماء جهة الارض ومن الارض جهة السماء وكل ذلك بانضمامه لتلك الريح الشديدة يساعد علي اتلاف ما يجده فى ممره فيسقط الابنية المتينة ويقلع الاشجار الكبيرة من أصولها ويتلف جواهر الحصاد ويشتت بقاياها الى محال بعيدة وتتسلط تلك الريح على اتلاف جزائر أنتيلة وجزائر فرانسا وبورون وسيام والصين واليابونيا وغيرها من بلاد تلك الجهات والاتلاف الذى يحصل من هذا الحادث فى البحر والمراسي والموارد مهول أيضاً وبالجملة فالظاهر أن مالا تتلفه المياه والنيران والجنود العديدة من الاقاليم الا في مرات عديدة تتلفه هذه القواصف

المهولة

المهولة في اجتيازها عليها بعض ساعات قليلة (الحادي عشر) أن منها الرياح
الدائمة أعني التي فعلها دائم واتجاهها يكاد أن لا يختلف أصلا ومنها الرياح
التي ليس لها اتجاه مخصوص ولا مدة معينة بل كثيرا ماتشاهد منها
جملة مجتمعة مع بعضها فى آن واحد ومنها الرياح الدورية أى التى تبقى ستة
أشهر وهى التى تهب من مهب واحد فى السماء جملة شهور متتابعة من السنة
ثم فى الأشهر الباقية تهب من محل مقابل للاول وهذه الرياح تسميها
البحريون رياح الموسم وتتسلطن فى البحر الهندى وأجوانه وتبتديء من
رأس بون اسبرنس الي سواحل الصين واليابونيا ففي الاشهر الاربعة أو
الخمسة الاول من السنة تهب هذه الرياح باتجاه دائم لا يتغير وفى الاسابيع
الستة التالية أو الشهرين التاليين لذلك تتغير وتختلط بأزمنة سكون وعواصف
وقواصف وفى الشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر تتجه اتجاها دائما
ومنتظما غير أنه مقابل للاول وفى الحادي عشر والثانى عشر يحصل فى جو
المناطق المعتدلة تقلبات غير قارة ولا تجاوز الدرجة العاشرة أو الثانية عشر
من العرض الجنوبى أما وراء ذلك فتتسلطن الرياح المنتظمة والرياح المختلفة
فى تلك البحور الواسعة بدون أن يعوقها فى طريقها عائق والجو في شتاء
البلاد التي توجد فيها تلك الرياح الموسمية يتحرك ويضطرب بالرياح الشمالية
الشرقية فى شمال خط الاستواء وبالرياح الشمالية الغربية في جنوبه بخلاف مدة
الصيف فانما يستشعر فيها بالرياح الجنوبية الغربية فقط اذا عرفت هذا فنقول
اختلاف الرياح فى الصفات المذكورة مع ان طبيعة الهواء واحدة وتأثيرات
الطبائع والانجم والافلاك واحدة يدل على ان هذه الاحوال لم تحصل الا
بتدبير الفاعل المختار سبحانه وتعالى قال الامام حجة الاسلام ومن آياته
الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض لا يدرك بحس

اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة سباحة فيه باجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وامواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فان شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه وارسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهواء الي الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وان شاء جعله عذا باعلى العصاة من خليقته كما قال تعالى فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ثم انظر الى لطاف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته اه قال صاحب الفلسفة الحقة جرب علماء الفلاسفة لمعرفة مقدار قوة الهواء تجارب عديدة أهمها انهم صنعوا كرة مجوفة مقسومة الى قسمين يمكن انطباقهما على بعضهما بشرط ان نقط الانطباق لا تسمح للهواء بالنفوذ ثم فرغوا الهواء من هذه الكرة بواسطة حنفية فى احدها فوجدوا انه من الصعب جدا فصل نصفيها من بعضهما فهذا يدل دلالة واضحة على قوة الضغط الجوى الذى انتهز فرصة فراغها فضغط عليها من الخارج بدون معارض له من الداخل فارانا عزيمته ومن الغريب ان هذا الهواء ضغطه مجعول بطريقة مناسبة جدا لانه يحصل فيه التنفس بالراحة التامة ولو اختلت صفة من الصفات التي وضعه الله تعالى عليها لاعوج النظام بدليل انه لو صعد الانسان بالبالون الي حيث تخف كتلة الهواء ويقل ضغطها يرى ان التنفس يحصل بمجهود عظيم أو غير عظيم بنسبة الارتفاع الذى يكون فيه وليست هذه فقط فائدة الضغط الجوي بل له فوائد

كثيرة منها حفظ السوائل الموجودة في الاجسام الحية من ان تندفق وتنفرزا الى الخارج بدليل ان بعض علماء الفلاسفة صعد بالبالون الى نقطة عالية جدا قل فيها الضغط الجوي فشاهد هو والذين معه ان الدم سال من جميع مسام أجسامهم وصعب عليهم التنفس حتى كادوا ان يموتوا لو لا اسراعهم بالهبوط الي الارض ومن هنا يعلم أن وجود الضغط بالكيفية التي هو عليها الآن بلا أدني تغير ضروري لحفظ الحياة ولولا الضغط الجوي لما بقي على سطح الكرة الارضية ولاقطرة ماء وما كان يجد الانسان منها الارواسبها المختلفة وبيان ذلك ان جل السائلات على سطح الكرة الارضية قابلة للتطاير أعنى للاستحالة الى بخار على كل درجات الحرارة المختلفة وقد رأى علماء الفلاسفة ان تبخر السائلات ببطء على الدرجة المعتادة سببه الوحيد الضغط الجوى فلو لم يكن هذا لتصاعد الماء وكل السوائل في الحال الى بخار مع أن تلك السوائل متباينة فى هذه الخاصية ويمكن مشاهدة هذه الحالة بالتجارب البسيطة فلو وضعنا في اناء صغير قليلا من السائل المسمى بالاتير نجد أنه يتطاير بعد زمن قليل ويحصل ذلك لو أبدلناه بالكؤل انما يكون تطايره أبطأ من السائل السابق وتنتج النتيجة عينها لو أبدلنا هذين السائلين بالماء غير أن تطايره يستلزم زمنا أكثر مما لزم لكل منهما فلو ملأنا زيرا ووضعناه معرضا للهواء فلا يمضى عليه زمن كبير حتى نراه فارغا وموجودا في قاعه جملة رواسب مختلفة هي المواد التي كانت ذائبة في مائه وذلك لان الماء بتبخره يترك جميع رواسبه ثم انا لو صعدنا الي جبل عال يقل فيه الضغط الجوي لشاهدنا أن الماء بدل أن يغلى كعادته على درجة مائة يغلى على درجة أقل من ذلك بكثير ولو وضعنا قليلا من الماء فى اناء ووضعنا هذا بشموله داخل ناقوس فوق الآلة المفرغة وأحدثنا فى هذا الناقوس الفراغ الممكن لشاهدنا أن الماء تبخر كله فى الدرجة المعتادة ومن هنا يظهر أنه لولا

الضغط الجوي الضاغط على أسطحة البحار المتسعة لما بقى فيها ولا قطرة ماء ولما أمكنت الحياة . أليس هذا بغريب لمن أراد أن يتدبر . وليس التدبر ببعيد اليس الارتباط بين الضغط الجوي وبين تلك الامور المنسوبة له هو مجرد اتبار عادى لايمكن للعقل أن يعلم كيفيته ولاان يدرك حقيقة هذا الضغط ولا أن يكابر فى أن السبب الحقيق لجميع ماذكر هو قدرة الله تعالى وارادته التي اقتضت ربط الاسباب بمسبباتها ظاهرا فقط

﴿ المطلب الثانى فى كيفية التفكر في الرياح ﴾
﴿ على مقتضى ماتدل عليه الآيات القرآنية ﴾

قال الله تعالى في سورة الفرقان (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) أي مبشرات وقريء نشرا بضم النون والشين أى منشرة أي مفرقة من كل جانب وقال الفراء النشر من الرياح الطيبة اللينة التي تنشر السحاب وأصله من النشر وهو الرائحة الطيبة وقريء نشرا بفتح النون واسكان الشين وهو مصدر نشرت الثوب ضد طويته ويراد بالمصدر ههنا المفعول والتقدير ارسل الرياح منشرات فكأنها كانت مطوية فارسلها الله تعالى منشورة بعد انطوائها قال الامام فخر الدين ان قوله نشرا أي منشرة متفرقة فجزء من أجزاء الريح يذهب يمنة وجزء آخر يذهب يسرة وكذا القول فى سائر الاجزاء فان كل واحد منها يذهب الى جانب آخر فنقول لاشك أن طبيعة الهواء طبيعة واحدة ونسبة الافلاك والأنجم والطبائع الى كل واحد من الاجزاء التي لاتتجزأ من تلك الريح نسبة واحدة فاختصاص بعض أجزاء الريح بالذهاب يمنة والجزء الآخر بالذهاب يسرة وجب أن لايكون الا بتخصيص الفاعل المختار وقوله تعالى بين يدي رحمته استعارة بديعة أي قدام رحمته التي هى المطر * وقال تعالى فى سورة الروم

(ومن آياته أن يرسل الرياح) أي الشمال التى من شمال الكعبة والصبا التي من تجاهها والجنوب التي من جهة يمينها فانها رياح الرحمة وأما الدبور التي من وراء الكعبة فريح العذاب (مبشرات) أي بالمطر وقيل مبشرات بصلاح الاحوال فان الرياح لو لم تهب لانتنت الدنيا وظهر الوباء والفساد (وليذيقكم من رحمته) اي من نعمته وهى المنافع التابعة لها من المياه العذبة والاشجار الرطبة وصحة الابدان والروح الذي هو مع هبوبها والخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها وما يتبع ذلك من أمور لايحصيها الا خالقها والجملة معطوفة على مبشرات على المعني كانه قيل ليبشركم بها وليذيقكم (ولتجرى الفلك) السفن بسوقها (بأمره) بارادته (ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون)ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة * وقال تعالي فى سورة الجاثية (وتصريف الرياح) أي وفى تحويل الرياح من جهة الي أخري وتقليبها في مهابها قبولا ودبورا وشمالا وجنوبا واختلافها فى كيفيتها الى حارة وباردة ونافعة وضارة وفى أحوالها الي عاصفة ولينة وفي نتائجها الي عقم ولواقح وقيل فى اتيانها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب (آيات لقوم يعقلون) الدليل فيؤمنون به قال الامام فخر الدين وجه الاستدلال بالرياح أنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف وهو الرقة واللطافة ثم انه سبحانه يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم فى الانسان والحيوان والنبات وذلك من وجوه . أحدها أنها مادة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات وقيل فيه ان كل ما كانت الحاجة اليه أشد كان وجد انه أسهل ولما كان احتياج الانسان الى الهواء أعظم الحاجات حتي لو انقطع عنه لحظة لمات لاجرم كان وجد انه أسهل من وجدان كل شيء وبعد الهواء الماء فان الحاجة الى الماء أيضا شديدة دون الحاجة الي الهواء فلاجرم سهل أيضا وجدان الماء ولكن وجد ان الهواء أسهل لان الماء

لا بد فيه من تكلف الاغتراف بخلاف الهواء فان الآلات المهيئة لجذبه حاضرة أبدا ثم بعد الماء الحاجة الي الطعام شديدة ولكن دون الحاجة الي الماء فلا جرم كان تحصيل الطعام أصعب من تحصيل الماء وبعد الطعام الحاجة الي تحصيل الادوية النادرة قليلة فلا جرم عزت هذه الاشياء وبعد الادوية الحاجة الى أنواع الجواهر من اليواقيت والزبرجد نادرة جدا فلا جرم كانت فى نهاية العزة فثبت أن كل ماكان الاحتياج اليه أقل كان وجد انه أصعب وما ذاك الا رحمة منه تعالي علي العباد ولما كانت الحاجة الى رحمة الله تعالى أعظم الحاجات فنرجو أن يكون وجد انها أسهل من وجد ان كل شيء وعبر الشاعر عن هذا المعني فقال

سبحان من خص العزيز بعزة * والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس النسيم وكل ذى * نفس لمحتاج الي أنفاسه

وثانيها لولا تحرك الرياح لما جرت الفلك وذلك مما لا يقدر عليه أحد الا الله فلو أراد كل من في العالم أن يقلب الريح من الشمال الى الجنوب واذا كان الهواء ساكنا أن يحركه لتعذر قال صاحب الفلسفة الحقة لا يخفى أن الارض محاطة بطبقة من الهواء يبلغ ثخنها أكثر من عشرة آلاف متر وهو مركب من عنصرين متبايني الخواص أحدهما الاوكسجين وثانيهما الايدروجين مخلط بهذين العنصرين قليل من حمض الكربون بنسبة ستة اجزاء فى كل عشرة آلاف جزء وقليل من بخار الماء أيضا اما الاوكسجين فهو غاز لا لون ولا رائحة ولا طعم له أثقل من الهواء وهو الجزء الضروري لحفظ حياة جميع الكائنات الارضية الحية فهو الذي ينفع لتنفس الانسان والحيوان والنبات وهو سبب الاحتراق ولولاه لما امكن ايقاد النيران لأن الاحتراق لا يحصل الا عند اتحاد عناصر الجسم مع أوكسجين الهواء والجزء الثاني هو الازوت وهو غاز لا لون ولا رائحة

ولا طعم له أخف من الهواء لايصلح للتنفس ويوجد في الهواء من الاول واحد وعشرون جزأ ومن الثاني تسعة وسبعون جزأ في المائة وهذه النسبة لاتختلف في أي بقعة من بقاع الارض وحكمة وجود الازوت في الهواء مهمة جدا ولولاه لاحترق الانسان في حال التنفس لانه يلطف فعل الاوكسجين ووجوده ضروري أيضاً لتغذية النباتات كما سيجيء ورب قائل يقول كيف لا تتغير هذه النسبة في الهواء وقد مضى على الانسان الي الآن وهو يتنفس من الاوكسجين ويحرق بواسطته مايحتاج اليه آلاف من السنين ويعطي الهواء حمض الكربون بواسطة الزفير والاحتراق فكان يجب ان ينتهي الاوكسجين ويحل محله حمض الكربون فنقول ان الحكمة التي بنى الله تعالى عليها هذا الكون عجيبة الشأن جدا تحار فيها الاذهان. نعم لا تتغير تلك النسبة لسبب يلتذ الانسان من معرفته وهو انه قد مر عليك في هذا الكتاب ان النباتات تغتذى من حمض الكربون المنتشر في الهواء بواسطة أوراقها وجميع أجزائها الخضراء فتأخذ كربونه لتكوين انسجتها ثم تخرج منها على حالة الزفير الاوكسجين ليستنشقه الانسان والحيوان والنبات أيضا أما الانسان والحيوان فتأخذ الاوكسجين على حالة تنفس وتحيله الى حمض الكربون وتخرجه منها على هذه الحالة فينتشر في الهواء ويغذي النباتات وهكذا تدور الحركة على هذا المحور المستقيم بدون أي اختلال أليست هذه حكمة تقف دونها الفحول وتسرح في خمائلها العقول فهذه الحكمة من أنواع تصريف الله تعالي للرياح أيضا * وقال تعالي (والذاريات ذورا) أي الرياح التى تذروالتراب وغيره أي تطيره (فالحاملات وقرا) أى أي ثقلا وهي الرياح الحاملة للسحب (فالجاريات يسرا) أى بسهولة أوجريا ذا يسر وهي الرياح الجارية في مهابها أوالسحب الجارية في الجو بسوق الرياح (فالمقسمات أمرا) يجوز ان يكون مفعولا به وان يكون حالا أي مأمورة

وهى الرياح التى تقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار قال الامام فخر الدين الاقرب ان هذه صفات أربع للرياح فالذاريات هي الرياح التى تنشيء السحاب أولا والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التى اذا سحت جرت السيول العظيمة وهي أوقار أثقل من جبال والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها والمقسمات هى الرياح التي تفرق الامطار على الاقطار اه وانما أضاف تعالي هذه الافعال الي الرياح لانها أسباب لظهورها كقوله تعالي خبرا عن جبريل لأهب لك غلاما زكيا وانما الله هو الواهب الغلام لكن لما كان جبريل سبب ظهوره اضاف الهبة اليه واقسم بالرياح لشرف ذواتها ولما فيها من الدلالة علي عجيب صنعه وقدرته قال الامام فخر الدين ان الايمان التي حلف الله تعالي بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الايمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمتك الكثيرة انى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الاشياء كلها دليل علي قدرة الله تعالي فان قيل فلم أخرجها مخرج الايمان نقول لان المتكلم اذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع انه يريد ان يتكلم بكلام عظيم فيصغي اليه اكثر من ان يصغي اليه حيث يعلم ان الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وادرج الدليل فى صورة اليمين حتى أقبل القوم علي سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين فى صورة اليمين * وقال تعالي (والمرسلات عرفا) أى الرياح متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضه بعضا ونصبه علي الحال من الضمير المستكن فى المرسلات والمعني علي التشبيه أى حال كونها عرفا أي شبيهة بعرف الفرس من حيث تتابعها وتلاحقها كما انه كذلك (فالعاصفات عصفا) أي الرياح الشديدة الهبوب (والناشرات نشراً) أي الرياح تنشر المطر أي تفرقه حيث شاء الله قال الامام فخر الدين أقسم الله برياح عذاب أرسلها عرفا أي متتابعة

كشعر

كشعر العرف كما قال يرسل الرياح وأرسلنا الرياح ثم انها تشتد حتي تصير عواصف ورياح رحمة نشرت السحاب في الجو كما قال وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته وقال الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء ويجوز أيضا أن يقال الرياح تعين النبات والزرع والشجر علي النشور والانبات وذلك لانها تلقح فيبرز النبات بذلك على ما قال تعالى وأرسلنا الرياح لواقح فبهذا الطريق تكون الرياح ناشرة للنبات (فالفارقات فرقا) أى الرياح تفرق السحاب وتبدده وقال الامام فخر الدين فى كون الرياح فارقة وجوه (أحدها) أن الرياح تفرق بعض أجزاء السحاب عن بعض . وثانيها أن الله تعالي خرب بعض القرى بتسليط الرياح عليها كما قال وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر وذلك سبب لظهور الفرق بين أولياء الله وأعداء الله (وثالثها) ان عند حدوث الرياح المختلفة وترتب الآثار العجيبة عليها من تموج السحاب والبحار وتخريب الديار تصير الخلق مضطرين الي الرجوع الى الله والتضرع على باب رحمته فيحصل الفرق بين المقر والمنكر والموحد والملحد ولهذا قال تعالى (فالملقيات ذكراً) أى تسبين له فان العاقل اذا شاهد هبوب الرياح التي تقلع القلاع وتهدم الصخور والجبال وترفع الامواج وتثير الآثار تمسك بذكر الله والتجأ الي اعانة الله وتذكر كمال قدرته فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والعبودية والايمان والمعرفة في القلب (عذراً أونذراً) أى عذراً للمعتذرين الى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم ونذراً للذين يكفرون بالله وقال بعضهم الاعذار محو الاساءة والانذار التخويف أي لاجل الاعذار للمحقين ولأجل الانذار للمبطلين

المبحث السابع فى النظر فى السحاب والمطر وما يتبع ذلك وفيه مطلبان

« المطلب الاول في كيفية النظر فى السحاب والمطر وما يتبع ذلك »
{ من الرعدوالبرق والصواعق }

اعلم أنا لما دللنا على حدوث الاجسام وتوسلنا بذلك الى كونه تعالى قادراً مختاراً يمكنه ايجاد الاجسام كيف شاءصح لنا أن نقول انه سبحانه قادر على أن يخلق أجزاء السحاب والمطر كيف شاء سواء كان ذلك من مادة معينة أو غيرها وقادر على أن يخلق أجزاء السحاب دفعة قالت الفلاسفة إن تكون السحاب والمطر من البخار وذلك أن البخارات الكثيرة تجتمع فى باطن الارض ثم إن الشمس تصعدها الى الهواء ثم اذا لم يكن البرد قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من أمثال هذه الغيوم وأما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما أن يصل البرد الي الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برداً هذا كلامهم وعلى ماقالوه من أن السحاب يتكوّن من البخار حتى يكون جسما متجمع الاجزاء فاذا كانت طبيعة الجوّ قد اقتضت تكونه كذلك فكيف اقتضت تكون المطر الذي هو جسم لطيف متخلخل الاجزاء قال المتأخرون من الفلاسفة السحاب كناية عن أبخرة أو تصعدات مائية متكاثفة بسبب البرد أو هو مؤلف من أكرماء صغيرة شبيهة بالحواصل معلقة فى الجو لم يقدر الهواء على مسكها وبالانضمام تصير قطرات مصمتة سائلة ثم قالوا ان الاسباب الفاعلة لذلك تكاد أن تكون مجهولة أما اذا استولى البرد عليها وقهرها فانها تمسك فى الجو وتتبلور على شكل أبر أو صفائح منتظمة وتنضم ببعضها حتى تكون على هيئة نجوم صغيرة ذات أشعة من ستة الي اثني عشر وتسمي هذه البلورات المبيضة المضيئة بالثلج وقد

نسب بعضهم تكون الثلج الى الماء الشبيه بالحواصل الذي يتجمد في الطبقات المرتفعة من الجو بانخفاض درجة الحرارة فجأة ولم يذكروا سبب ذلك الانخفاض ونقول ان الطبقة العالية من الهواء باردة جداً عندكم فاذا كان اليوم يوماً بارداً شديدا البرد فى صميم الشتاء فتلك الطبقه باردة جداً والهواء المحيط بالارض أيضاً بارد جدا فوجب أن يشتد البرد ويحدث الثلج والبرد وان لا يحدث المطر فى الشتاء ألبتة وحيث شاهدنا انه قد يحدث وان حدوث الثلج والبرد فى الشتاء اندر منه فى الصيف علمنا ان الموجد للسحاب والمطر هو القادر القاهر المختار المستولي على الطبيعيات والروحانيات * وأيضا لو كان المطر يتولد بالطبيعة من صعود البخارات فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار فوجب ان يدوم هناك نزول المطر وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان الموجد للسحاب هو القادر المختار فهو يوجده بقدرته ويصرفه كيف شاء واراد . وأيضاهب ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذاتها فلا بدلها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بدله من مخصص فثبت انه لا بد ان يكون حدوث السحاب والمطر من دلائل القدرة والحكمة والاختيار يدل على ذلك أيضا من وجوه . الاول أن الامطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانا طويلا وتارة قليلا فاختلاف الامطار فى هذه الصفات مع ان طبيعة الارض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وان يكون بتخصيص الفاعل المختار . الثانى ان السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الاودية العظام تبقى معلقة فى جو السماء وذلك من الآيات العظام فانظر فى انه كيف حدث

الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة وكيف يبقى معلقا فى جو السماء مع غاية ثقله وتأمل في أسبابه القريبة والبعيدة حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته فى تدبير خلقه هذا العالم . الثالث أن نزول المطر عند احتياج الخلق اليه مقدر بمقدار النفع من الآيات العظام . الرابع ان تلك الاجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة واللطافة والعذوبة لا يقدر أحد على خلقها الا الله تعالى قال سبحانه قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين . الخامس انه تعالى جعله سببا لحياة الانسان ولاكثر منافعه قال تعالي أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون وقال وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . السادس انه تعالى كما جعله سببا لحياة الانسان جعله سببا لرزقه قال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون . السابع ما قال تعالى فسقناه الي بلد ميت وقال وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج * وأما البرق والرعد فقالت الفلاسفة فيهما ان السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة الي الهواء والماء فالهواء الطف منه والماء اكثف فاذا هبت ريح قوية واحتقنت فى داخل جرم السحاب واستولي البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه فان ذلك الريح يخرق السحاب ويمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة هى الرعد والحركة العنيفة موجبة للحرارة فيخرج منه النار وهي البرق كمساس جسم جسما بعنف هذا ما قاله المتقدمون منهم وقال المتأخرون ان الحركة تحول الي قوة كهربائية والقوة الكهربائية تحول الي حرارة والحرارة تحول الى نور وسنذكر في المبحث الاول من المقصد الرابع وفى المطلب الثالث من المبحث الثاني من ذلك المقصد بيان ان تلك التحولات ليس لها علة عقلية تقتضيها وان حدوث ذلك انما هو بقدرة الله تعالي وارادته

ونقول

ونقول هنا ان حدوث البرق والرعد دليل عجيب على وجود الاله القادر القاهر المختار وبيانه من وجوه. الاول ان السحاب عند الفلاسفة جسم مركب من أجزاء رطبة مائية ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك ان الغالب عليه الاجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد فظهر ان حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالي . الثاني انه لو كان الامر كما ذكر والوجب ان يقال أينما يحصل البرق فلا بد وان يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم انه ليس الامر كذلك فانه كثيراً ما يحدث البرق من غير حدوث الرعد فعلمنا ان حدوثهما من الآيات الدالة على القدرة والاختيار . الثالث ان الحرارة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا العارض القوى كيف تحدث النارية بل نقول النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن ان يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية فلما رأينا حدوث ذلك علمنا انه انما حدث بقدرة قادر قاهر مختار . الرابع من مذهب الفلاسفة ان النار الصرفة لا لون لها ألبتة فهب انه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة باجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الاحمر فثبت ان حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصا لا يمكن الا بقدرة القادر الحكيم . الخامس ان البرق والرعد امران حادثان لا بد لهما من محدث وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهي الي واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك * وأما الصاعقة فهي نار لطيفة قوية لا تمر بشيء الا أتت عليه الا انها مع قوتها سريعة الخمود

وامرها عجيب جـدا وذلك لانها نار تتولد من السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر والفلاسـفة بالغوا فى وصف قوتها ووجه الاستدلال بها ان النار حارة يابسـة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب فوجب ان تكون طبيعتها فى الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عنـدنا على العادة لـكنه ليس الامر كذلك فانها أقوي نيران هذا العالم فثبت ان اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وان يكون بسبب تخصيص القادر المختار قال الامام حجة الاسلام انظر الي عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والامطار والثلوج والشهب والصواعق فهي من عجائب ما بين السماء والارض وقد أشار القـرآن الي جمـلة ذلك فى قوله تعالي وما خلقنا السماء والارض وما بينهـما لاعبـين وهـذا هو الذي بينهـما وأشار الي تفصيله في مواضع شـتي حيث قال تعالى والسحاب المسخر بين السماء والارض وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا أن ترى المطر بعينيك وتسمع الرعـد بأذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم الي عالم المـلأ الاعلى فقـد فتحت عينيك فادركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لتري عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع فى استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى اذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء الي أن يأذن الله فى ارسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالي وعلى الشكل الذي شاءه فتري السحـاب يرش الماء على الارض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخري

بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذي رسم لها لاتعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولايتأخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الاولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ماينزل في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذى أوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مقدرة تلك القطرة بحسب التقدير الالهي أنها رزق الدودة الفلانية التى في ناحية الجبل الفلاني تصل اليها عند عطشها فى الوقت الفلاني هذا مع ما فى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لاتحصي كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالاحد من الخلق فيه شرك ولامدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لانه ثقيل بطبعه وانما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامعني الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقي الماء المصبوب فى أسافل الشجر الي أعالي الاغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوي الي أسفل ثم ارتفع الي فوق فى داخل تجاويف الاشجار شيأ شيأ بحيث لايرى ولايشاهد حتي ينتشر فى جميع أطراف الاوراق فيغذي كل جزء من كل ورقة ويجري اليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج

عن ادراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة فيصل الماء فى أجوافها
الى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك
الى سائر أجزاء الفواكه فان كان الماء يتحرك بطبعه الى أسفل فكيف تحرك الى
فوق فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وان كان
ينتهي بالآخرة الي خالق السموات و الارض وجبار الملك والملكوت فلم لايحال
عليه من اول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل

﴿ المطلب الثانى فى كيفية التفكر في السحاب والمطر ﴾
﴿ والرعد والبرق والصواعق على مقتضى ﴾
﴿ ماتدل عليه الآيات القرآنية ﴾

قال الله تعالي فى سورة البقرة (والسحاب المسخر بين السماء والارض) معطوف
على المجرور قبله فى قوله تعالي ان فى خلق السموات والارض الخ والمراد
بالسحاب المسخر الغيم المذلل المنقاد الجاري على ما اجراه الله تعالى سمى
سحابا لانه ينسحب فى الجو أى يسير بسرعة كانه يسحب أى يجر بين السماء
والارض بلا علاقة لا ينزل الي الارض ولا ينكشف مع ان طبع السحاب
يقتضى أحد هذين النزول والانكشاف لانه لو كان خفيفا لطيفا ينبغي ان
يصعد ولو كثيفا يقتضي ان ينزل وانما سماه مسخرا لوجوه . أحدها ان طبع
الماء ثقيل يقتضي النزول فكان بقاؤه فى جو الهواء على خلاف الطبع فلابد
من قاسر قاهر يقهره على ذلك فلذلك سماه بالمسخر . الثانى ان هذا السحاب
لو دام لعظم ضرره من حيث انه يستر ضوء الشمس ويكثر الامطار والابتلال
ولو انقطع لعظم ضرره لانه يقتضى القحط وعدم العشب والزراعة فكان
تقديره بالمقدار المعلوم هو المصلحة فهو مسخر لله سبحانه يأتى به فى وقت

الحاجة

الحاجة ويرده عند زوال الحاجة . الثالث ان السحاب لا يقف فى موضع معين بل يسوقه الله تعالي بواسطة تحريك الرياح الى حيث شاء واراد فذلك هو التسخير (لآيات) اسم ان دخلته اللام لتأخيره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيف أى في كل واحد مما ذكر في الآية آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الالوهية به سبحانه (لقوم يعقلون) أى ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم فيعلمون ان للاشياء خالقا ومدبراً مختارا وصانعا قادراً على ما يريد * وقال تعالي فى سورة الرعد (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) أى ذا خوف وذا طمع أو خائفين وطامعين أو ارادة خوف وطمع أو اخافة واطماعا وفى كون البرق خوفا وطمعا وجوه . الاول ان عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث . الثانى انه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن فى جرينه التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له فى نزول المطر نفع كالزارع ونحوه . الثالث ان المطر يخاف منه اذا كان في غير مكانه وزمانه ويطمع فيه اذا كان فى مكانه وزمانه (وينشيء) يخلق (السحاب الثقال) بالماء وهي جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونه اسم جنس فى معنى الجمع والواحدة سحابة (ويسبح الرعد) أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بحمده) أي يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده قال الامام فخر الدين ان الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فان الرعد يسبح الله سبحانه لان التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس الا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى فلما كان حدوث هذا الصوت

دليلا على وجود موجود متعال عن النقص والامكان كان ذلك فى الحقيقة
تسبيحا وهو معنى قوله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده (والملائكة)
أى يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير
للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) أى
الكفرة المخاطبون في قوله تعالى هو الذى يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة
إيذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديداً لجناياتهم لدي كل
من يستحق الخطاب كانه قيل هو الذي يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة
من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال
علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين والملائكة ويعملون بموجب
ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالي وهم أي الكفرة الذين
حكيت هناتهم مع حقارة شأنهم (يجادلون في الله) يعنى يخاصمون في شأنه
تعالي (وهو شديد المحال) أي والحال انه شديد القوة والكيد لاعدائه
فيستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملي لهم ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون
* وقال تعالى فى سورة الحجر (وأرسلنا الرياح لواقح) أي حوامل بالسحاب لانها
تحمله فى جوفها كانها لاقحة به من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم (فانزلنا
من السماء) بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فاسقيناكموه)
أي جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل
الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما انتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته
لجنابه بقوله وان من شيء الا عندنا خزائنه كانه قيل نحن القادرون على ايجاده
وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين
له بعد ما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا
لكم مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور واعلم أن ظاهر قوله تعالي فانزلنا من

السماء

السماء ماء يقتضي نزول المطر من السماء الي السحاب ومن السحاب الي
الارض لان ظاهر النص يقتضى نزول المطر من السماء والعدول عن
الظاهر الي التأويل انما يحتاج اليه عند قيام الدليل على أن اجراء اللفظ على
ظاهره غير ممكن وفى هـذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من
السماء فوجب اجراء اللفظ على ظاهره من أن الماء ينزل من السماء على
الحقيقة كما ذكره الله تعالى وهو الصادق فى خبره واذا كان قادرا على امساك
الماء في السحاب فاى بعد فيأن يمسكه فى السماء فاما قول من يقول من
الفلاسفة انه من بخار الارض فقد تقدم أن طبيعة الجو لا يمكن أن تقتضى
انقلاب البخار مطرا مدرارا بعد انعقاده سحابا كثيفا فى الجو واذا قيل كما ذكره
المتأخرون من الفلاسفة ان المطر من تصعدات مائية أو أكر ماء صغيرة فقد
تقدم أن الاسباب الموجبة لانضمامها حتي تصير قطرات مصمتة تسير فى الجو
ثم تسيل هي مجهولة وأيضا حينئذ فالمقبول عند العقل هو أن الله تعالي يخلق
السحاب كيف شاء واذا قيل ان مادته البخار فلا ضرر من جهة الشرع
فى ذلك ثم ان الله تعالى ينزل الماء من السماء على السحاب ثم ينزله متى
شاء بسبب عصر الرياح له مطرا مدرارا ولهذا قال تعالى وأنزلنا من المعصرات
ماء ثجاجا وقد ذكر المتأخرون من الفلاسفة أنهم يشاهدون بالمكرسكوب
فى الكواكب الجبال والبحار وحينئذ فأي مانع يمنع من أن الماء ينزل من
السماء على السحاب ومنه على الارض * وقال تعالى فيسورة الحج (الم تر
أن الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة) بالنبات وهـذا تنبيه على
عظيم قدرته وواسع رحمته وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بتجدد هـذا الاثر
المترتب على الانزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار (ان الله لطيف)
يصل لطفه أو علمه الي كل ماجل ودق (خبير) بما يليق من التدابير الحسنة

ظاهرا وباطنا وقال مقاتل لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه وقال الامام فخر الدين أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به لان الارض اذا أصبحت مخضرة والسماء اذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع ومعنى خبير أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان * وقال تعالى فى سورة المؤمنون (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم أو بمقدار ماعلمنا من حاجاتهم ومصالحهم وعبارة الخطيب ماء بقدر أي بقدر مايكفيهم لمعاشهم فى الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك لاغرق الاقطار ولو كان دون ذلك لادي الى جفاف النبات والاشجار (فأسكناه) أي فجعلناه ثابتا مستقرا (في الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الارض وعبارة الخازن فاسكناه فى الارض يعنى مايبقي فى الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس فى الصيف عند انقطاع المطر (وانا على ذهاب به) أي ازالته (لقادرون) كما قدرنا على ايجاده واختراعه وانزاله وفى تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه كالافساد والتصعيد والتغوير بحيث يتعذر استنباطه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لايتعايا عليه شيء اذا أراده *وقال تعالى في سورة النور (الم تر أن الله يزجى سحابا) يسوقه برفق وسهولة الي حيث يشاء من أرضه وبلاده والمزجى الشيء القليل ومنه البضاعة المزجاة ففيه ايماء الي أن السحاب بالنسبة الى قدرته تعالي مما لايعتد به (ثم يؤلف بينه) أي بين أجزائه بضم بعضها الى بعض فيجعله شيأ واحدا بعد أن كان قطعا فى جهات مختلفة (ثم يجعله ركاما) أى متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أى المطر اثر تراكمه وتكاثفه (يخرج من خلاله) أي مخارج السحاب وفرجه واعلم أنه تعالى قال في سورة الاعراف وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين

يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء
فذكر هنا وفى هذه الآية جملة وجوه يستدل بها على قدرته تعالي واختياره
منها حمل الرياح للسحاب الثقال * ومنها سوق السحاب الي حيث ينتفع
بمائه فى الشرب وفى اخراج الثمرات * ومنها التأليف بين أجزاء السحاب بعد
أن كان قطعا في جهات مختلفة * ومنها جعله ركاما وذلك بتركب بعضها على
البعض وهذا مما لابد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا
كان بهذه الصفة فكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره (وينزل
من السماء من جبال) كائنة (فيها) أى في السماء (من برد) مفعول ينزل على
أن من تبعيضية والاوليان لابتداء الغاية على أن الثانية بدل اشتمال من الاولي
باعادة الجار أي ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها بعض برد وظاهره أن
فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالي كذلك كما خلق فى الارض جبالا
من حجر وليس فى العقل قاطع يمنعه وقيل المراد من السماء جانبها وجهتها أو
الغمام فان كل ماعلاك سماء والمراد بالجبال قطع عظام تشبه الجبال في العظم
والقول الاول أولي لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب
بطريقة الاشتقاق مجاز وكما يصح أن يجعل الله الماء فى السحاب ثم ينزله بردا
فقد يصح أن يكون فى السماء جبال من برد واذا صح فى القدرة كلا الامرين
فلا وجه لترك الظاهر وقد تقدم أن المتأخرين من الفلاسفة يشاهدون
بواسطة المكرسكوب فى الكواكب الجبال والبحار ونقل صاحب الفلسفة
الحقة عن بعض متأخري الفلاسفة وهو كميل فلا مريون مايأتي انا نري
علي المريخ ثلوجا قطبية متسعة جدا في أواخر كل شتاء ولكن هل هذه
الثلوج مكونة من مياه تشبه في تركيبها الكيماوي مياه كرتنا الارضية هذا
محتمل بل ومرجح ونرى أن الثلوج علي سطح المريخ محدودة المسافات وأن

هذه الحدود تتغير بتغير الطقس واذا اعتبرنا نصف كرة المريخ في مدة الصيف نجد أن الثلوج فى قطبها أقل منها فى قطبنا الارضي ومن الضرورى تصور كون ماء المريخ مشابها للماء الارضى لان ثلوجه مشابهة جدا لثلوجنا ولم نر على سطح المريخ نهرا يبتديء في أرض صلبة اذلم يشاهد الامجار ذاهبة من بحر الي بحر فكل نهر يبتديء وينتهي اما فى بحر أو بحيرة أو في نهر آخر أو في نقطة اجتماع جملة مجار اه ملخصا فما بلغه لنا النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى من وجود جبال فى السماء ينزل الله منها البرد حين أن لم يكن ثم حكيم يختلج هذا بفكره بل هو اخبار على طريق الغيب أثبته المتأخرون من الفلاسفة بطريق الحس والمشاهدة وان كانوا يخلطون به كثيرا من التخيلات والاوهام كما يظهر للبصير عند اطلاعه علي كلامهم فهل بعد هذا يرتاب فى نبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وفيما اخبر به عن ربه من أنه تعالى ينزل من السماء من جبال فيها من برد (فيصيب به) أي بما ينزل من البرد (من يشاء) أن يصيبه به فيناله مايناله من ضرر فى نفسه وماله (ويصرفه عمن يشاء) أن يصرفه عنه فينجو من غائلته (يكاد سنا برقه) أي ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الازجاء والتأليف وغيرهما (يذهب بالابصار) أي يخطفها من فرط الاضاءة وسرعة ورودها قال الامام فخر الدين وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار أن البرق الذي يكون صفته ذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لايمكن الا بقدرة قادر حكيم فسبحان من يخرج الماء والنار والنور والظلمة من شي واحد *وقال تعالى فى سورة الفرقان (وانزلنا من السماء ماء طهورا) بليغا فى الطهارة وماقيل انه مايكون طاهرا فى نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح لبلاغته في الطهارة ووصف الماء به اشعار بتمام النعمة فيه وتميم

للنعمة فيما بعده فان الماء الطهور اهنأ وأنفع مما خالطه مايزيل طهوريته (لنحيي به) أى بما انزلنا من الماء الطهور (بلدة ميتا) لااشجار فيها ولاأثمار ولا مرعي واحياؤها بانبات النبات وتذكير ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) أي ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية واجتماعه فى الحياض والمناقع أو الآبار (مما خلقنا انعاما واناسيّ كثيرا) الاناسي جمع انسان أو جمع انسى وانما خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء لان الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم ونكر الانعام والاناسي ووصفهما بالكثرة لان اكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الاودية والانهار فهم فى غنية فى شرب الماء عن المطر وكثير منهم ينزل فى البوادي فلا يجد المياه للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيي به بلدة يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل أن قوله كثيرا يرجع الى قوله ونسقيه لان الحى يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال مادام حيا (ولقد صرفناه) أى الماء ومعنى صرفناه انا اجريناه في الانهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وانواع المعاش به وقيل معناه انه سبحانه ينزله فى مكان دون مكان وفي عام دون عام ثم فى العام الثانى يقع بخلاف ما وقع في العام الاول قال ابن عباس ماعام با كثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه فى الارض ثم قرأ هذه الآية أو تصريفه جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رهمة وقيل المعنى وبالله لقد كررنا هذا القول الذي هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر لما مر من الغايات الجميلة فى القرآن وغيره من

الكتب السماوية (بينهم) أي بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) أي لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو الا جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله ورحمته قال العلامة أبو السعود ومن لا يرى الامطار الا من الانواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى والانواء أمارات لجعله تعالى * وقال تعالى في سورة الروم (ومن آياته يريكم البرق) أى أن يريكم فالفعل مقدر بأن أو هو على حاله صفة لمحذوف أى آية يريكم بها البرق أو من آياته شيء أو سحاب يريكم البرق (خوفاً) من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم (وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها قال الامام فخر الدين قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة وأما اللوازم فيه فغريبة وأما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بيانا فنقول الانسان يتغير بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره وهو يتغير فى الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لا يتغيران ثم يرى في بعض الاحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل ويزيل أمرا مع ثبات المحل ثم قال كما أن فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر

منفعة

منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذى لايكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعدله والذي له صهريج أو مصنع يحتاج الي الماء أو زرع يسوى مجارى الماء وأيضا العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قدر أوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم ان فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق علي تنزل الماء من السماء نعمة وآية وأماكونه آية فظاهر فان في السحاب ليس الاماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال في غاية البعدفلابد له من خالق هوالله (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانهامن الظهور بحيث يكفى فى ادراكها مجرد العقل عند استعماله في استنباط اسبابها وكيفية تكونها قال الامام فخر الدين قال ههنا لقوم يعقلون لما كان حدوث الولدمن الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية ان ذلك بالطبيعة لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا بل هو مختلف اذيقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل ان لم يتفكر تفكرا تاما * وقال تعالي فى سورة الروم أيضا (الله الذي يرسل الرياح) مضطربة هائجة بعد أن كانت ساكنة (فتثير سحابا) أى تزعجه وتخرجه من أماكنه (فيبسطه) تارة أى ينشره كمال الانتشار متصلا بعضه ببعض (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) فى أى ناحية شاء من الجنوب أو الشمال أو الدبور أو الصبا سائرا أو واقفا مطبقا وغير مطبق تارة يسير قليلا كسير ساعة وأخري كثيرا كسير أيام على حسب ارادته تعالي واختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها (ويجعله كسفا) تارة أخرى أي قطعا (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين قال الامام فخر الدين ذكر أنواع السحب فنه

ما يكون متصلا ومنه ما يكون مقطما ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة ومايفضي اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة (فاذا أصاب به من يشاء من عباده) أي بلادهم واراضيهم (اذاهم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب (وان كانوا) أى وان الشأن كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أي المطر (من قبله لمبلسين) أى آيسين وقوله من قبله تكرير للتأكيد قال ابن عطية وفائدة هذا التأكيد الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الابلاس الي الا ستبشار وذلك ان قوله من قبل أن ينزل عليهم يحتمل الفسحة فى الزمان أى من قبل أن ينزل بكثير كالايام فجاء قوله من قبله بمعنى أن ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد وقال الزمخشري فائدة التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد فاستحكم يأسهم وتمادى ابلاسهم فكان استبشارهم على قدر اغتمامهم بذلك (فانظر الي آثار رحمت الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وانواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه (كيف يحيي) أي الله تعالي (الأرض بعد موتها) أي فانظر الي احيائه البديع للارض بعد موتها والمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته * وقال تعالى فى سورة فاطر (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا) عبر بصيغة المستقبل لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة (فسقناه الى بلد ميت) أي لانبات فيها والموت يقال بازاء القوة النامية الموجودة فى النبات ومقتضى الظاهر فساقه أى ساق الله ذلك السحاب واجراه الى الارض التي تحتاج الى الماء وقال فسقناه الى بلد التفاتا من الغيبة الي التكلم دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى وان الكل منه والوسائط أسباب (فاحيينا به الارض) أي صيرناها خضراء بالنبات والكلا بالمطر النازل

من السحاب المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازماً فى الذهن كما في الخارج
أو بالسحاب فانه سبب السبب (بعد موتها) أي يبسها قال الامام فخر الدين
قال ارسل إسنادا للفعل الي الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم
وكذلك فى قوله فأحيينا وذلك لانه فى الاول عرف نفسه بفعل من الافعال
وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتني سقت السحاب وأحييت
الارض ففى الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وفى الثاني كان تذكيرا بالنعمة
فان كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء * وقال تعالى فى سورة الزمر
(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) وهو المطر وقيل كل ماء فى الارض فمن
السماء نزل ثم انه تعالي ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه (نسلكه) أي أدخله
ونظمه (ينابيع فى الارض) أى مجاري ومسالك كالعروق في الاجساد ينبع منها
واعلم ان استمساك الماء فى جهة السماء دليل على قدرة باهرة تقهر الماء على ذلك
ثم ان نزوله بحيث يكون ينابيع قريبة من وجه الارض ولم يكن في أسفلها
جدا بحيث لايستخرج منها كل ذلك من آثار قدرته تعالى وأحكام حكمته
ورحمته * وقال تعالي فى سورة شورى (وهو الذى ينزل الغيث) أى المطر
الذي يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه (من بعد ماقنطوا)
يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكر كمال النعمة
(وينشر رحمته) أي بركات الغيث ومنافعه فى كل شيء من السهل والجبل
والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما اوليا أو المعني
يبسط مطره وان كان الاصل ينشره لانه بين أنه غيث فقال رحمته بيانا
وتعميما فينزل من السحاب من الماء مالو اجتمع عليه الخلائق ماأطاقوا عمله
فتصبح الارض مابين غدران وأنهار ونبات نجم وأشجار وزهر وحب وثمار
وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار فلله ماأعلى هذه القدرة الباهرة والاية

الظاهرة (وهو الولى) الذى يتولي عباده بالاحسان ونشر الرحمة (الحميد) المستحق للحمد على ذلك وغيره لاغيره * وقال تعالي فى سورة الزخرف (والذي نزل من السماء ماء بقدر) أى بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية علي الحكم والمصالح أو بقدر حاجتكم اليه لزرعكم وثماركم وشرابكم بأنفسكم وانعامكم أو بحسب التدريج ولولا قدرته تعالي الباهرة لكان دفعة واحدة أو قريبا منها (فانشرنا به) أى أحيينا بذلك الماء (بلدة ميتا) خاليا عن النماء والنبات بالكلية وتذكيره لان البلدة فى معنى البلد والمكان والالتفات الي نون العظمة لاظهار كمال العناية بأمر الاحياء والاشعار بعظم خطره * وقال تعالي فى سورة الواقعة (أفرأيتم الماء الذي تشربون) عذبا فراتا فتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لان الشرب أهم المقاصد المنوطة به (أأنتم أنزلتموه من المزن) أى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الابيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون) له بقدرتنا (لو نشاء جعلناه أجاجا) أي ملحا مرا فلا يبرد عطشا ولا ينبت نباتا ينتفع به (فلولا) أي فهلا (تشكرون) يعني نعمة الله عليكم قال بعضهم وفي الآية اشارة الى أن بعض بلاد العرب ليس لها آبار ولا أنهار جارية فلا يشرب اهلها الامن المطر فى المصانع فمنها القدس الشريف وينبع وجدة المحروسة ونحوها وللماء العذب مزيد فضل فى هذه البلاد ولذا امتن الله به على العباد * وقال تعالي في سورة الملك (قل أرأيتم) أي أخبروني (ان أصبح ماؤكم غورا) أى غائرا ذاهبا في الارض بالكلية وقيل بحيث لاتناله الدلاء (فمن يأتيكم) على ضعفكم حينئذ والخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم (بماء معين) جار أو ظاهر سهل المأخذ أي لا يأتي به الا الله تعالى

﴿ المبحث الثامن فى النظر في الارض ومافيها ﴾
﴿ من الجبال والأنهار ومايتبع دلك وفيه مطلبان ﴾
﴿ المطلب الاول في كيفية النظر في الارض ومافيها من الجبال والأنهار ﴾
﴿ وما يتبع ذلك ﴾

اعلم أن الذى انحط عليه رأى الناظرين فى طبقات الارض من الفلاسفة فى الحالة الراهنة هو أنه لايمكن الوقوف على حقيقة الارض ولا على كيفية تكوينها بوجه يمكن تطبيقه على جميع كتلتها وأما الجبال فقال المتقدمون من الفلاسفة فى كيفية تكونها انما تولدت هذه الجبال لان البحار كانت فى هذا الجانب من العالم وكانت تتولد في البحر طينا لزجا وبواسطة قوة حرارة الشمس تنقلب حجرا ثم ان الماء كان يفور ويقل فيتحجر البقية فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا وانما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان أوج الشمس وحضيضها متحركان ففي الدهر الاقدم كان حضيض الشمس فى جانب الشمال والشمس متى كانت فى حضيضها كانت أقرب الي الارض فكان التسخين أقوى وشدة السخونه توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار فى جانب الشمال والآن لما انتقل الاوج الي جانب الشمال والحضيض الي جانب الجنوب انتقلت البحار الي جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال فى جانب الشمال هذا حاصل كلامهم في هذا الباب وقد ذكر الامام فخر الدين في رده وجوها * الاول ان حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها امر عام فلم حصل هذا الجبل فى بعض الجوانب دون البعض والثاني أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذى انتقل أوج الشمس الى الجانب الشمالي مضي قريب من تسعة آلاف

سنة وبهذا التقدير يجب أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت
فوجب أن لا يبقى من الاحجار شيء لكن ليس الامر كذلك فعلمنا ان السبب
الذي ذكروه لا يعول عليه * الثالث هو انا نشاهد في بعض الجبال كان تلك
الاحجار موضوعة سافا فسافا فكان البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها علي بعض
ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه وأقول انه يبعد أيضا
حصول هذه الاحجار والصخور من طين البحار اذا كانت الشمس هي المؤثرة
فيها ولهذا قال المتأخرون من الفلاسفة الظاهر أن هذه الصخور الموجودة
في تلك الكرة تبلورت من قديم في سائل لم يوجد الآن في الكون ما يدل عليه
ولا ما يوقفنا علي حقيقته واذا كان الاصل الذي تكونت منه الجبال مباينا لجميع
الارض بطبعه وحقيقته لم تكن الجبال متولدة بمقتضى الطبيعة بل لا بد لتكونها
من صانع قادر مختار ويدل علي ذلك ايضا انها اما أن تكون علي سطح الارض
مجتمعة أو مسلسلة أو منعزلة فالمجتمعة تظهر على هيئة كتل عظيمة مكردسة على
بعضها وينبعث في الغالب من تلك الكتل أطراف حادة مرتفعة جدا ومن
قاعدتها سلاسل جبال على هيئة أشعة تمتد الى مسافات مختلفة وهذه السلاسل
الثانوية تقارب غالبا في العلو الرؤس التي تنسب هي لها وأما الجبال التي تكون
على أثر بعضها بحيث تكون منها سلاسل طويلة جدا فهي اكثر ما يوجد على
سطح الارض ويندر كونها منعزلة وانما الغالب ان تكون مصاحبة لسلاسل
متوازية أو متباعدة مطيعة للكتلة الاصلية التي تغلب وتتسلط على غيرها وقد
يظهر كأن السلاسل تتقاطع تقاطعا صليبيا وتختلط جملا او عقودا تذهب
سلاسل جبال جديدة تتجه لجميع الجهات بدون انتظام معين وبعضها يهبط الي
أسفل ويفنى شيأ فشيأ في السهول ومنها ما يربط مجامع الجبال ببعضها
وللمتأخرين من الفلاسفة في تكون سلاسل الجبال واتجاهها واقترانها ببعضها

آراء كثيرة ولم يختر احد من المشتغلين بالكائنات الطبيعية الذين درسوا الجبال على رؤس جبال الالب والبرنات والانده شيأ منها وعللوا ذلك بان الوقوف على أصول الجبال عسر جدا كالوقوف على معرفة تكوين الكرة الارضية والامور التى يستند عليها في ذاك قليلة فتكون النتائج المأخوذة منها لتوضيح ذلك غير مفيدة بل ربما لم تفد الا زيادة التشكيك ومما يبطل نسبة تكون الجبال الي علة أوطبيعة مايرى من الاختلاف بينها وبين بعضها في التكوين والشكل والمنظر ومن أشكالها المختلفة كثيرا مايكون كبرج النواقيس وكالقصور والالواح والمحاريب والثقوب والمدرجات الواسعة وغير ذلك ومنها مايبدى حوادث غريبة كالجبال البزلتيه المكونة من عواميد منشورية مكردسة على بعضها وكالجبال المثقبة بفتحات كثيرة ومن الجبال مايأخذ فى الارتفاع تدريجا حتى تقرب لان تكون كتلا عظيمة تخفى في أقطار السحاب من الجو ومن جبال الاسيا اسنان مرتفعة جدا من هيماليا (بتيت) فالرابع عشر تعلو عن مساواة المحيط (٧٨٢١) مترا وذكر كثير من الجغرافيين أنه ينوف عن (٨٥٠٠) مترا ولم يزل المسافرون والجائبون المجتهدون في الارتفاع على رؤس الجبال يندهشون من ارتفاعها وعلوها وطول طرقها والتعسرات التي يصادفونها وكل من الطبيعى والجغرافى يستغرب هذه البقايا القديمة ويبحث فيها مع غاية الانتباه ويقيس ارتفاعها عن سطح البحر المحيط ولذلك أثبتوا ان الجبل الابيض الذى هو اعظم جبال الاوربا يتكون منه على سطح الارض نتو يقرب علوه لان يساوى ارتفاع خط علي كرة قطرها مائتا قدم وهو بالنسبة أصغر جدا من الخشونة اللطيفة التي تنبذر على سطح ليمونة أو برتقالة وأما الفلكى فانه لماقابل كتلة هذه الاجرام السماوية وحجمها بالتى للارض ظهر له من ذلك مايدهشه من صغر المسافة التي تشغلها الارض من الفراغ ومما يبدو لعينيه

من ارتفاع تلك الجبال فى الجو آلافا كثيرة من الامتار وأن الكائنات التى تحييها بوجودها والممالك التي تكون تلك الجبال حدودالها انما هى بالنسبة لماذكر منظومة فى سلك العدم قال بعضهم وكيف مع ذلك يستولي على الناس طمعهم وحمقهم فى تلك الاشياء الواهية التى هى بالنسبة لغيرها من الكائنات كلا شيء ومن الجبال البراكين أي جبال النار وهي جبال تقذف دخانا وماء ووحلا ومواد ذائبة فيبدو منها اذ ذاك مجموع حوادث مخصوصة تظهر النار فيها ملاعبها الغريبة وحركاتها العجيبة وقد اعترفوا بان أسباب تلك الحوادث غير معروفة وثورة البركان هى ملعب مخيف مهول بشع المنظر غريب الاعتبار لا يناظر بغيره وقد اجتهد مشاهير الطبيعيين فى جميع الازمنة فى شرح هذه الثورة شرحا تعقليا ثم اعترفوا بان ذلك لم يصادف محلا ومنها مالا يقذف الامياها ووحلا ومنها ما يعطي هواء فقط أو غازات نقية ومنها ماله فوهات تعلو عن سطح البحر بستة آلاف متر ومنها ما يلتهب فى جوف المياه فى أعماق لا تدركها المجسات ثم من البراكين ماهو ثائر على الدوام ومنها ما يبقى أحيانا أجيالا كثيرة بدون ان تظهر فيه علامة النار الارضية الباطنية ومنها ما يكون ثورانه دوريا فيتجدد كل يوم أو كل شهر أو كل فصل أو كل سنة غير ان الغالب ان الطفحات لا تتبع انتظاما معينا ومدة بقاء الحرارة فى المادة البركانية تختلف باختلاف شدتها فقد شوهد من تلك المواد ما برد بعد خروجه من البركان ببعض أسابيع وبعضها ببعض أشهر ومنها ما بقيت حرارتها محرقة بعد خروجها بعشر سنين واعترفوا بان أسباب هذه الحرارة مجهولة قالوا والى الآن لم نصل لتوضيح وبيان حقيقة هذه الحوادث الكثيرة التى تحصل منها ثم ان البراكين تتصل غالبا بل دائما بالبحر بدون واسطة أو بواسطة وأيدوا ذلك الاتصال باوضاع البراكين أي محالها مطفية كانت أو ثائرة

وبكثرة طفحات المياه والوحل وبغاز الحمض الادروكلوري الذي ينقذف من
الاراضي البركانية ومن المواد البركانيـة الذي يتسلطن هوفيها ويحلل تركيبها
وبالمقدار العظيم من ادر وكلورات الصودا الذي يرسب على هيئـة بلورات
مضيئة وبكثرة المياه التى تخرج من فوهة البركان فى مـدة الثورة على هيئة
بخار وبحركات البحر فى مدة الثورة أيضاً وبالاسماك والاصـداف البحرية
التي توجد غالبا في المياه المقذوفة ويندر ان تكون هذه المياه المقذوفة صافية
رائقة وانما الغالب كونها نتنة ذات وحل وتحتوى أحيانا على اسماك حية اذا
كان مرورها من بورتها الي خروجها سريعا وقد تكون تلك المياه حارة
فى درجة الغلي وسيولة الوحل وحرارته يختلفان قلة وكثرة والمادة الفخارية
تتسلطن فيه ولا يتأتى حسبان قوة اندفاع الثورة البركانية بل تارة يرتفع عمود
محمر ويتكون منه فوق المخروط هيئة فطر كبير جدا ملتهب مشقق بالصاعقة
وأرجل هذا الفطر مغموسة في فوهة الجبل ويبقى الغطاء الذي من الاعلى
معلقا فوق السحاب وتارة تكون قوة القذف ضعيفة فتندحرج تلك الكتلة
على جوانب البركان وتغطي السهول بضباب سميك لا تخلله الشمس ولا ينفذ
منه ضوءها والغالب ان الصخور والاجزاء الصلبة من المادة البركانية والتوبال
ونحوها تنقذف الي علو زائد فيكون منها أعلا الفتحة حزمة نارية تكون
أقوى شدة وضوءا مما يصنع فى الملاعب النيرانية الصناعية قال بعض علماء
الفلاسفة ان أسباب البـراكين وأصل المواد البركانية فما عند الطبيعيين فيها
الا آراء فرضية غير مؤسسة على أصول قوية مع انها تظهر للحس نيرة مقبولة
لكن اذا قوبلت بالمشاهدات والامور الواقعية ذهبت ساقطة متروكة والذي
نجزم به ان سبب البراكين وأصل مستنتجاتها من الامور الغامضة عنا اه *
وقد ذكروا في كيفية الاستدلال بالارض على وجود الاله القادر المختار وجوها

منها انا نشاهد تغير الارض في جميع صفاتها أعنى حصولها في احيازها وألوانها وطعومها ونشاهد ان كل واحد من أجزاء الجبال والصخور الصم يمكن كسرها وازالتها عن مواضعها وجعل العالي سافلا والسافل عاليا واذا كان الامر كذلك ثبت ان اختصاص كل واحد من أجزاء الارض بما هو عليه من المكان والحيز والمماسة والقرب من بعض الاجسام والبعد من بعضها ممكن التغير والتبدل واذا ثبت ان اتصاف تلك الاجرام بصفاتها أمر جائز وجب افتقارها في ذلك الاختصاص الى مدبر قديم عليم سبحانه وتعالى عن قول الظالمين وأيضا ان كون الارض أزيد مقدارا مما هو الآن معقول وكونها أنقص منه أيضاً معقول واذا كان كذلك كان اختصاصها بذلك المقدار المعين مع جواز حصول الازيد والانقص اختصاصا بامر جائز وذلك يجب ان يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهو الله سبحانه فانظر كيف خلق الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال ثم وسع اكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وان طالت أعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون وقد اكثر في كتابه العزيز من ذكر الارض ليتفكر فى عجائبها فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا انزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وانبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون واسال الانهار تجرى على وجهها واخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حي فاخرج به كل شيء حى فاخرج به فنون الاشجار والنبات فانظر فى الاودية وهى منبت أحسن الاشجار ومجنى الازهار والاثمار ومنشأ السرور وانشراح الصدور

ومع

ومع ان منها مايعد جنة نعيم لاترى فيه الاظلاظليلا وماء سلسبيلا ولاتسمع الاصفير بلبل وهديل حمام وبغام ظباء وسجع يمام حول تلك الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة من كل مايجلب المسرة ويهدى للعين قرة فمنها ماهو كدار الجحيم ليس فيه الا الموت الزؤام وباليات العظام وذلك كوادى الموت الذي هو قرب جاوا فهو واد بطنه رمضاء محرقة وقفر بلقع لانبات فيه ولا حيوان فلا يحله طائر ولا تدب فيه دابة ولا يكمن فيه وحش الا ويعالجه الموت الاحمر ولا يرى فيه الا الرمم البالية من عظام الحيوانات وهوالك الحشرات قال صاحب الرسالة الحميدية فمن جعل بعض وديان الارض دار النعيم وجعل بعضها دار الجحيم هل هو حركة اجزاء المادة أم المريد العليم *

وأما الاستدلال بالجبال فمن وجوه . الاول انها مخازن المياه التي تروي النبات والحيوان وانها مأوى الطيور والوحوش ومنبت الاشجار الصلبة الشامخة التي هي مادة الاخشاب والوقود وانها الحواجز للبقاع المسكونة تحفظها من الرياح الباردة والحارة ثم منها ذو المناظر البهجة والنباتات المزهرة ومنها الاجرد الوعر الذى سلبت الامطار أتربته وبقيت صخوره تشبه هيكل عظام جرد عنها اللحم فكانت تلك الصخور مادة العمران من الدور والحصون ومنها الجبل الناري الذي يقذف الحمم وينير الآفاق فى الظلم ومنها ومنها مما يقضي على الانسان بالعجب . الثاني ما فيها من الكهوف التي هي مأوى الحيوانات ومن غرائبها الكهوف التى تبرد في الصيف حتى تجمد المياه التي داخلها وتسخن في الشتاء فيأوى اليها كثير من الحيوانات التي لا تقوي على بردالشتاء فسبحان اللطيف الخبير ومن غرائبها كهوف الموت التى لا يدخلها حيوان الامات في الحال فمن الكهوف حصون ومنها منون فسبحان الفاعل المختار . الثالث ما فيها من الاحجار المختلفة فمن صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصا للخواتم

وفى كبارها ما يتخذ للابنية فانظر الى الحجر الذي تستخرج النار منه مع كثرته وانظر الى الياقوت الاحمر مع عزته ثم انظر الي كثرة النفع بذلك الحقير وقلة النفع بهذا الشريف . الرابع ما يحصل فيهامن معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت فكون الارض واحدة في الطبيعة وكون الجبل واحدا فى الطبع وكون تأثير الشمس واحدا فى الكل يدل دليلا ظاهراً على ان الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات . فانظر الي الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها من المعادن التي تولدت فى أحشائها مختلفة الخواص متباينة الانواع والاصناف صالحة مع اختلافها وتباينها لمنافع سكان الارض فمنها الجامد والسائل والصلب وغير الصلب وقابل الانطباع تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وغير قابل الانطباع كالفيروزج واللعل وقابل الذوبان وغير قابله والثقيل والخفيف والاصفر والابيض والاحمر والاسود وغير ذلك وكم فيها من مصالح للبشر باتخاذها آلات لطعامهم وشرابهم وأسلحتهم وبيوتهم وفلاحتهم وزراعتهم وأدويتهم فانظر كيف هدى الله الناس الي استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاواني والآلات والنقود والحلى منها ثم تأمل فان البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة واستخرجوا السمكة من قعر البحر واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن ايجاد الذهب والفضة والسبب فيه انه لا فائدة في وجودهما الا الثمنية وهذه الفائدة لا تحصل الا عند العزة فالقادر على ايجادهما يبطل هذه الحكمة فلذلك ضرب الله دونها بابا مسدودا اظهاراً لهذه الحكمة وابقاء لهذه النعمة ولذلك فان مالا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبة من النحاس

والزجاج

والزجاج من الرمل ونحو ذلك ثم انظر الي معادن الارض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر الي رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا ما لحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييبا لطعامك اذا اكلته فيهنأ عيشك واذا تأمل العاقل فى هذه اللطائف والعجائب اضطر في افتقار هذه التدابير الي صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا ثم انا نرى من خواص المعادن غرائب تعجز عقولنا عن تعليلها تعليلا يقتنع به العقل واذا بحث فيها العاقل اضطر الي الاعتراف بان لها مخصصا قادرا مختارا حكيما وذلك كالمغناطيس المعدن الغريب صاحب خاصية الجذب لمثله وللحديد والفولاذ وقد ظهر أن تلك الخاصية تحصل للحديد عند توفر شروط عادية وبسبب ذلك حصل الانتفاع فى مصالح عديدة وقد عللوا تلك الخاصية بان قالوا ان سبب جذب المغناطيس لما ذكر هو من حركة أجزائه الفردة وترتيب أوضاعها وهذا علة وهمية فان حركة اجزائه الفردة غير محسوسة ولكن مع تسليم هذه العلة فهل هى علة عقلية يقتنع العقل بها فى حدوث الجذب المذكور عنها فان قالوا نعم قلنا لهم لم نتج عن تلك الحركة والوضع جذب ما ذكر ولم ينتج عن ذلك جذب بقية المعادن من نحو الذهب والنحاس وأيضا كيف أن المغناطيس اذا التصق بقضيب من حديد وجذبه اكسبه خاصية ذلك الجذب من دون أن يخسر من قوته شيأ فيصير ذلك القضيب يجذب كجذب المغناطيس مادام ملتصقا به واذا انفصل عنه بطلت منه تلك الخاصية وتقولون لتلك الحالة التى طرأت على الحديد تمغنط مؤقت وأما اذا التصق المغناطيس بقضيب من الفولاذ اكتسب ذلك القضيب خاصية ذلك الجذب ودامت فيه ولو انفصل عن المغناطيس وكذلك اذا دلك

قضيب الفولاذ بالمغناطيس اكتسب تلك الخاصية دائمة ويقال لذلك تمغنط صناعي فكيف حصل ذلك الاكتساب بمجرد ملامسة المغناطيس لقضيب الحديد والفولاذ أتغيرت أوضاع أجزائهما ولوكانا بطول ممتد واذا كان الامر كذلك فهل رجع الوضع لاصله في قضيب الحديد ولو في لحظة من الزمان وبقى فى قضيب الفولاذ أم الحال غير ذلك واوضحوا لنا هذا الفرق بين الحديد والفولاذ بل والحديد الصلب فانه بحكم الفولاذ يكتسب خاصية الجذب وتدوم معه بعد الانفصال وأيضا انكم تقولون ان قوة الجذب في المغناطيس فى طرفى القطعة منه وكلما اقتربنا لوسطها نجد أن القوة قد ضعفت حتى تكاد تغيب عند الوسط تماما واذا قسمت تلك القطعة من عند وسطها رجع الطرف الذي عند القطع ذا قوة قوية كما فى الطرف الاصلى فكيف ضعفت القوة عند الوسط وقويت فى الطرفين وكيف قويت فى الطرف المفصول بعد القطع أبالقطع تغير وضع الاجزاء مع ان وضعها لا يتغير بأقوى العوامل الخارجية أم الامر كان لغير ذلك وايضا اذا لمس المغناطيس قضيب الحديد أو الفولاذ من طرفه وتمغنط القضيب فلا بد أن تكون القوة فى الطرف الآخر من ذلك القضيب تامة وأما القوة فى وسطه فهي قريبة التلاشي فماذا تقولون هل الحركة وتغير وضع الاجزاء قد وصلا الي ذلك الطرف عن طريق غير الوسط أم مرا على الوسط فضعفا عنده ثم قويا بعد مجاوزته وما الذى أعادلهما تلك القوة بعد الضعف وايضا تقولون ان المغناطيس يفقد قوة الجذب عند حصول الزلزلة ثم تعود اليه بعد مضيها وعلى ذلك عملت الآلة التى تنبه على قرب حصول الزلزلة فيحترس منها فما السبب أتغير وضع الاجزاء وتبدل الحركة عند الزلزلة وكيف كان ذلك ولم كان ذلك فهذه أسئلة لا تقدرون على أجوبة شافية عنها بل غاية ما تنتهون اليه ان تقولوا هكذا خاصة المغناطيس لهاتيك الاعمال ونحن نقول أيضاً كذلك

ولكن

ولكن نسألكم من الذى خصها بذلك أحركة الاجزاء بما ينشأ عنها من ترتيب وضعها تعمل تلك الاعمال الباهرة التي عجزت عقولكم عن تعليلها بما يقنع العقل أم الذى خصص ذلك التخصيص واتقن تلك الاعمال هو القادر المريد العليم وبالحق ان المغناطيس من أعجب الاشياء وفوائده من أحسن الفوائد اذ بالابرة المغنيطيسية سلكت البحار والقفار وأمن السفار من الاخطار اذ هى المرشد الامين والهادى المبين فسبحان من هدي الانسان سبيل الرشاد بقطعة معدن من دوانى الجماد . والوجه الخامس من الاستدلال باحوال الجبال ان منها تتفجر العيون والانهار كما قال تعالى وانّ من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وفي ذلك آية عظيمة فان الثلج يقع اكثره على الجبال ليقيم مدة يتحلب ماؤه الي بواطنها ومخازنها التي فى جوفها فتخزنه لمنافع المخلوقات ولو كان لا ينزل على الارض الا المطر لانحدر بسرعة من رؤس الجبال ثم ان الارض اجزاؤها بحكم المادة لا تصعد ونحن نرى منابع الانهار والعيون في المواضع المرتفعة وهى الجبال وذلك دليل القدرة والاختيار وان الماء صعد من المواضع المتسفلة الي الاماكن المرتفعة بامر الله وجري فى الاودية الي البقاع التي انعم الله على أهلها فارتوي بمائها الارض والحيوان فى مدة الصيف ونشأ عنه الرياض والجنان قال صاحب الفلسفة الحقة من يتدبر فى كيفية التدبير الذي ينزل تبعا له الثلج وينحدر من قمة الجبل يأخذه العجب والاندهاش لانه لايخفي أن الثلج لو بقى فى قمة الجبل لما أمكن الشمس أن تذيب منه شيأ لشدة انخفاض الحرارة فى قمم الجبال الشامخة ولو نزل باكمله الي أسفل الجبل لذاب دفعة واحدة وأفاض الانهار وأغرق البلاد وانصب مرة واحدة فى البحار فتبقى الانهار طول سنتها تشتكي الجفاف ويهلك تبعا لذلك السواد الاعظم من الناس ولكن لايحصل ولن يحصل ان شاء الله ذلك لان الثلوج لاتنزل الا

شيأ فشيأ الي أسفل الجبال بهندسة بديعة جدا وقد حسب علماء الفلاسفة أن الثلوج لاتزيد سرعة انحدارها سنويا عن مائة متر حتى لاتذهب مياهها هباء منثورا ولو لا هذا الوضع البديع لذهبنا فريسة الظمأ والقيظ فالجبال اذن حكمتها لاتقدر فلولاها لما وجدت أنهار الدنيا العظيمة فهي كمخزن للمياه موضوعة على نسق يقصر العقل عن الاحاطة بسره اه وقال الامام حجة الاسلام ان الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لاترتفع اليها فانظر كيف خلق الله تعالي الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الي أقطار الارض وهى سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي وقال أيضا ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض التي هى قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتي ان جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالاضافة الي الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الارض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم ان الارض بالاضافة الى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الارض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الارض كما ان سعته اضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك ويعلم انها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو انسان الا وفي البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر

وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور وتحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الي عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل اثقالهم ثم ارسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية فطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كانه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا في اخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها والاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب أما ترانى وتري صورتى وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي أتظن انى كونت نفسي أو خلقنى أحد من جنسي اه كلام الامام حجة الاسلام ونذكر هنا شيأ مما أشار اليه من عجائب الانهار والبحيرات والبحار . أما الانهار فانه يوجد منها نهيرات وانهار كثيرة يحصل فى مصابها

فى بعض أزمنة من السنة حادث موجى أى صفيحة مائيـة يظهر كانهـا تأتى من سطح البحر وتصعد على التيار بسرعة غريبة فتجذب السفن العظيـمة معها احيانا أو تبتلعها في جوفها ثم تقذفها على الشاطىء وتهدم فى سيرها السريع الموانع الـتى تلاقيها بحيث لا تعوق سيرها بل تمر منهـا وحوافى النهر تتغير عن الحالة التى كانت عليها قبـل ظهور تلك الموجة وفي أفريقية والآسيا انهار يوجـد فى مياهها حادث غريب تحير فيه الراصدون واسـتغربوه فى جميع الازمنة السالفة وذلك ان تلك المياه تدخـل في باطن الارض من محل ثم تخرج منها بمقـدار وافر وفوة عظيمة من محل آخر بعيـد عن محلهـا الاول ويوجد نهيرات لا مصب لهـا فتفقد مياهها في الرمال وفى الاراضى الآجاميـة وفى بيلوبونيس من بلاد اليونان نهر يسمى القيـه يخرج من جبـل أرقاضـية ويدخـل فى سهول اليده ثم يمر على اولمبيا ويفقد ماؤه فى الارض قبل أن يصل الي البحر . واما البحيرات فمنها ما يرتفع فيها المياه حتي تساوى حافة حوضها بل ربما ملأت الحوض كله وجاوزته فائضة منه ومنها ما يفقد ماؤه فى تجاويف تحت الارض ثم بعد زمن ما يخرج منها بقوة مختلفة وهذا لعظم شأنه وخفاء أصله وجهل منشأه أدهش أفكار ذوي الالباب ولم يقفوا على معرفته وتوضيحه ومنها بحيرات لا تأتيها بحسب المشاهدة مياه جارية ومع ذلك تخرج منها مياه كثيرة وبحيرات تأتيها مياه ولا يشاهد فى الظاهر خروج شيء منها ومنها بحيرات تصب فيهـا جميع أنواع التيارات ومع ذلك لا يشاهد لها فوهة تسيل منها المياه وتوجد هذه البحيرات خصوصا فى داخل الافريقيه والآسيا وبحر الخزر هو أعظم بحيرات هذا النوع فدلت هذه الحوادث علي أن الارض مسخرة لامر الله تعالى فى تصريف تلك المياه كما يعلم ذلك من قوله تعالي في قصة طوفان نوح عليه السلام وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء

اقلعي

أقلعي وغيض الماء وقضى الامر وقد يشاهد في البحيرات حوادث مخصوصة تستغرب غاية الاستغراب من اشهرها جفاف بحيرة جينورة والانتظام الدوري فى بحيرة سركنيت فى البرية ودوي مستنقع بيجاني بلاد البرتغال ورياح بحيرة بولسلاوفى بهيمة المسماة أيضا ببلادجه واضطراب بحيرة لومون فى ابقوسيا ووتير في بلاد آسويج والعمق المزدوج القابل للتنقل فى كثير من تلك الاحواض . وأما البحار فمع ان طبعها السكون وعدم الجري يوجد فيها تيارات سرعتها تختلف كاختلاف سرعة تيارات المياه الارضية التى هى الانهار والنهيرات وغيرها فمنها تيار البحر المحيط المسمي أوقيانوس ويسمي هذا التيار التيار الكبير الاستوائي وسماه ملاحو الشمال غلفستريم يعنى جون الاضطراب ويمتد هذ التيار من عرض ست عشرة درجة الى ثلاثين من كل جانب من خط الاستواء ويبتديء الاستشمار بحركته من الجنوب الغربي لجزائر أسوره وتكون ضعيفة جدا من عرض خمس وعشرين درجة الي خمسة عشر وتكون قرب خط الاستواء أقل ثباتا في اتجاهها منها فى عرض عشر درج أو خمسة عشر والتيار الاستوائى فى البحر الاطلنتيقي يتجه نحو موردة هندوراس ثم ينقلب الي جون مكسيك وينقذف بقوة في خليج بهمة وذلك في ست وعشرين وسبع وعشرين درجة فى العرض الشمالى وهناك يكتسب سرعة تقرب من اجتياز ميترين فى الثانية وغلفستريم يسمي عند مخرج خليج بهمة تيار فلو ريده فيتجه للشمال الشرقي ويسير على هيئة سيل فيجتاز خمسة أميال فى الساعة ثم تتناقص سرعته ويزيد عرضه فيكون عرضه بين كبو بسكينو وكوم بهمة خمسة عشر فرسخا وفى عرض ثمان وعشرين درجة سبعة عشر فرسخا وفى موازاة شرلستون يكون من اربعين فرسخا الي خمسين وكلما تقدم جهة الشمال تناقصت سرعته حتى لا يكون الا ميلا فى الساعة وفى عرض احدى

وأربعين درجة مع سبع وستين درجة طولا يبلغ عرض التيار ثمانين فرسخا
بحرية ومن هناك يتجه الي المشرق وحافته الغربية بتقوسهاتهدم طرف الكوم
العظيم للارض الجديدة التي سماها بعضهم بحاجز مصب النهر البحري الكبير
ثم ان هذا التيار من طول اثنين وخمسين درجة الى جزائر أسوره لا يزال آخذا في
الاتجاه جهة المشرق وجهة شرق الجنوب الشرقى ثم من شرقي جزائر أسوره يتجه
جهة بغاز جبل الطار وجزائر الخالدات وبقرب هذا البغاز يتجه جهة الشرق
الحقيقي ثم ان هذا التيار الشرقى في محاذاة الرأس الابيض بعد أن يمتد على ساحل
الافريقيه يتقوس ويتجه أولا جهة الجنوب الغربى وينتهي بان تنضم مياهه بماء التيار
الاصلي أعنى غلفستريم ولا يشاهد فيما بين ثمان وعشرين الى خمس وثلاثين
درجة فى العرض الشمالي وست وأربعين الي ثمان وأربعين درجة فى الطول
حركة دائمة ولا منتظمة ويفصل بين التيار الاستوائى والتيار الذى يتجه نحو
المشرق منطقة عرضها مائة وأربعون فرسخا ويوجد لغلفستريم فى عرض خمس
وأربعين الى خمسين فرع ثان يتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى جهة
سواحل أوربا وقد بحث الطبيعيون على توضيح حادث التيار الاستوائى ولم يقدروا
على توضيح تلك المسألة المهة ولا على معرفة الاصل الصحيح لهذا الحادث المهم
نفعه في الاسفار البحرية ومن كان عاقلا علم أن حدوث تلك الحوادث انما هو
بقدرة الصانع المختار الحكيم كما قال تعالي الله الذى سخر لكم البحر لتجري الفلك
فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وهناك تيارات مخصوصة تتجه
من القطب الشمالى كالجنوبي نحو المناطق المعتدلة والاقطار الاستوائية وتكون
تلك التيارات القطبية قوية في بحر الشمال وعلى سواحل اغرونلندواسلنده
ولابونيا وبغاز بيرين ونحو ذلك غيران في هذا البغاز المذكور قد يشاهد في أزمنة
من السنة تيار قوي جدا يتجه من الجنوب الي الشمال عكس اتجاه التيار الذي يشاهد

فى العادة وتشاهد تلك التيارات أيضا في النصف الجنوبي في أرض الناروزلنده الجديدة وارض ونديمين ورأس بونسبرنس أعني حيث ينتهي كل من الافريقية والجزائر الاوقيا نوسية والاميرقية باطراف متجهة جهة القطب ويوجد فى جون غسقونيا تيار يتجه الي الشمال الشرقى ويوجد فى ساحل الافريقية الغربية بين التيار الاستوائى والساحل تيار جنوبى شرقى يذهب باستقامة فى جون غينا ويوجد في شاطىء دور تيار يتجه فى جميع الفصول من الشمال الي الجنوب ويتسلطن فى البحر المحيط الهندي تيار عظيم يتجه من المشرق الى المغرب وهو ذنب من غلفستريم الذي في المحيط المعتدل ولا يشاهد هذا التيار في شمال خط الاستواء الادوريا ومياه بحر الهند تتجه من شهر ايار لتشرين أول الي الخليج الفارسى المسمى بالبحر الاخضر وكانها تخرج منه فى مدة الاشهر الستة التالية وتيار السواحل يكاد أن يكون مخالفا لتيار الاباحة وتيار البحر الاحمر يتجه نحو الشمال من شهر تشرين الاول الى شهر ايار فهو يخالف تيار الخليج الفارسي فى ذلك الزمن نفسه أما فى الاشهر الستة التالية فتخرج التيارات من البحر الاحمر مع قوة عظيمة بحيث تمنع احيانا دخول السفن فى ذلك البحر وتيار البحر المتوسط الآتى له من المحيط الغربي يتبع الساحل الشمالي للافريقية ثم يصعد جهة الشمال على سواحل الشام وكانه يقف فى جزيرة كريت ثم يتجه جهة الجنوب ويسير على طول سواحل سيسيليا أي صقلية ثم يلطم السواحل الشرقية لجزيرة الاندلس وذكر بعضهم ان التيارات العميقة على سواحل جنويز امام رأس دلمة عقب الامطار الغزيرة تتجه الي المغرب مع سرعة عظيمة وتتجه عكس ذلك في الزمن الصحو فانظر أي نسبة بين هذه التيارات وحالة الجو والتيارات فى خليج القسطنطينية وبغاز اسلامبول وبحر جزائر الروم تتجه دائما جهة الحوض الكبير للبحر المتوسط وهناك محال

كثيرة شاهد فيها الملاحون والمسافرون تيارات مزدوجة أعنى تياراً سفليا وتيارا علويا يتجه كل منهما الي جهة مخالفة لاتجاه الآخر مثال ذلك بغاز جبل الطار وبهمة وغيرهما وهناك أيضا تيارات كثيرة تحرك وتثير سطح البحار ومن أعظمها دوامات الاندلسيين فانها قد تكون قوية جدا بحيث تبتلع السفن وشوهد ذلك أيضا فى جون غينا وفى بحر الصين واليابونيا وغيرهما ودوامة ملستريم التي هي مهواة شهيرة موضوعة على شاطىء نرويج فى عرض ثمان وستين درجة هى دائما مهواة مفزعة مهلكة وتقف فى كل خمس ساعات من خمس دقائق الى عشرين دقيقة وتلحق السفن فى الغالب من مسافة عشرة أميال انقليزية فتجذبها وتكسرها على الصخور ويحصل مثل ذلك أيضا للحيوانات الكبيرة البحرية مع ما لا يخفى من قوتها وسرعة حركاتها وتوجد أيضا تلك التيارات المختلفة السريعة في أوريب قرب جزيرة أوبى المسماة بالتركية أي اغريوز وقوة سرعة هذه الدوامة ومعرفتها الغير التامة كما كانتا في زمن أرسطاطاليس كما اعترف به مشاهير علماء المتأخرين من الفلاسفة

المطلب الثاني في كيفية التفكر في الارض وما فيها
من الجبال والبحار على مقتضى ما تدل عليه الآيات القرآنية

قال الله تعالي فى سورة البقرة (الذي جعل لكم الارض فراشا) أي جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فان كرية شكلها مع عظم جرمها مصححة لافتراشها قال الامام فخر الدين واعلم ان كون الارض فراشا مشروط بامور * الشرط الاول كونها ساكنة وذلك لانها لو كانت متحركة لكانت حركتها اما بالاستقامة

أو بالاستدارة فان كانت بالاستقامة لما كانت فراشا لنا على الاطلاق لان من طفر من موضع عال كان يجب ان لا يصل الي الارض لان الارض هاوية وذلك الانسان هاوي والارض أثقل من الانسان والثقيلان اذا نزلا كان أثقلهما اسرعهما والابطأ لا يلحق الاسرع فكان يجب ان لا يصل الانسان الى الارض فثبت انها لوكانت هاوية لما كانت فراشا اما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها لان حركة الارض مثلا اذا كانت الى المشرق والانسان يريد ان يتحرك الي جانب المغرب ولا شك ان حركة الارض أسرع فكان يجب ان يبقى الانسان على مكانه وانه لا يمكنه الوصول الي حيث يريد هذا كلام الامام فخر الدين وهو ظاهر فان حركة الارض اذا كانت مضادة لحركة الانسان وهي أقوى من حركته فانها تغلب على حركته فلا يمكنه ان يتحرك ولا ان يصل الي مقصوده قال فلما أمكنه ذلك علمنا ان الارض غير متحركة لا بالاستدارة ولا بالاستقامة فهى ساكنة ثم اختلفوا فى سبب ذلك السكون على وجوه . أحدها ان الارض لا نهاية لها من جانب السفل واذا كان كذلك لم يكن لها مهبط فلا تنزل وهذا فاسد لما ثبت بالدليل من تناهى الاجسام * وثانيها الذين سلموا تناهى الاجسام قالوا الارض ليست بكرة بل هى كنصف كرة وحدبتها فوق وسطحها أسفل وذلك السطح موضوع على الماء والهواء ومن شأن الثقيل اذا انبسط ان يندغم على الماء والهواء مثل الرصاصة فانها اذا انبسطت طفت على الماء وان جمعت رسبت وهذا باطل لوجهين . الاول ان البحث عن سبب وقوف الماء والهواء كالبحث عن سبب وقوف الارض . الثانى لم صار ذلك الجانب من الارض منبسطا حتى وقف على الماء وصار هذ الجانب متحدبا . وثالثها الذين قالوا سبب سكون الارض جذب الفلك لها من كل الجوانب فلم يكن انجذابها

الى بعض الجوانب أولى من بعض فبقيت فى الوسط وهذاباطل لوجهين. الاول ان الاصغر أسرع انجذابا من الاكبر فما بال الذرة لا تنجذب الي الفلك. الثانى الاقرب أولي بالانجذاب فالذرة المقـذوفة الي فوق أولي بالانجـذاب وكان يجب أن لا تعود . ورابعها قول من جعل سبب سكونها دفع الفلك لهـا من كل الجوانب كما اذا جعل شيء من التراب في قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها ادارة سريعة فانه يقف التراب فى وسط القنينة لتساوى الدفع من كل الجوانب وهذا أيضاً باطل من وجوه خمسة . الاول الدفع اذا بلغ فى القوة الى هذا الحد فلم لا يحس به الواحد منا. الثانى ما بال هذا الدفع لا يجعل حركة السحب والرياح الي جهة بعينها . الثـالث مابالة لم يجعل انتقالها الي المغرب أسهل من انتقالها الى المشرق . الرابع يجب أن يكون الثقيل كلما كان أعظم أن تـكون حركته أبطأ لان اندفاع الاعظم من الدافع القاسر أبطأ من اندفاع الاصغر . الخامس يجب أن تـكون حركة الثقيل النازل من الابتداء أسرع من حركته عنـد الانتهاء لانه عنـد الانتهاء أبعـد من الفلك . وخامسـها ان الارض بالطبع تطلب وسط الفلك وهو قول ارسطاطاليس وجمهور أتباعه ونقول ان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص البعض بالصفة التى لأجلها تطلب تلك الحالة لابد وأن يكون جائزاً فيفتقر فيـه الى الفاعل المختار . وسادسها ان النصف الاسـفل من الارض فيه اعتمادات صاعدة والنصـف الاعلى فيـه اعتمادات هابطة فتـدافع الاعتماد ان فـلزم الوقوف . والسؤال عليـه ان اختصاص كل واحـد من النصفـين بصـفة مخصوصـة لا يمكن الا بالفاعل المختار فثبت بمـا ذكرنا أن سكون الارض ليس الا من الله تعالي وعنـد هـذا نقول انظر الي الارض لتعرف انها مسـتقرة بلا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها اما انها لا علاقة فوقها فمشاهد على انها لوكانت معلقة بعلاقة

لاحتاجت

لا حتاجت العلاقة الى علاقة أخرى لا الي نهاية وبهذا الوجه ثبت أنه لا دعامة تحتها فعلمنا انه لا بد من ممسك يمسكها بقدرته واختياره ولهذا قال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده . الشرط الثاني فى كون الارض فراشا لنا أن لا تكون في غاية الصلابة كالحجر فان النوم والمشى عليه مما يؤلم البدن وأيضاً فلو كانت الارض من الذهب مثلا لتعذرت الزراعة عليها ولا يمكن اتخاذ الابنية منه لتعذر حفرها وتركيبها كما يراد وأن لا تكون فى غاية اللين كالماء الذى تغوص فيه الرجل . الشرط الثالث أن لا تكون في غاية اللطافة والشفافية فان الشفاف لا يستقر النور عليه وما كان كذلك فانه لا يتسخن من الكواكب والشمس فكان يبرد جدا فجعل الله كونه أغبر ليستقر النور عليه فيتسخن فيصلح أن يكون فراشا للحيوانات . الشرط الرابع أن تكون بارزة من الماء لان طبع الارض أن يكون غائصاً فى الماء فكان يجب أن تكون البحار محيطة بالارض ولو كانت كذلك لما كانت فراشاً لنا فقلب الله طبيعة الارض وأخرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتي صلحت لان تكون فراشاً لنا * وقال تعالى في سورة البقرة أيضاً (والفلك) عطف على ما فى الآية قبله والمعنى ان آيات لقوم يعقلون حاصلة فى السفن (التى تجرى فى البحر) على وجه الماء وهي موقرة بالاثقال والرجال فلا ترسب تحت الماء وتقبل وتدبر بريح واحدة (بما ينفع الناس) أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم قال الامام فخر الدين فى كيفية الاستدلال بجريان الفلك فى البحر على وجود الصانع تعالي وتقدس هي من وجوه . أحدها ان السفن وان كانت من تركيب الناس الا انه تعالي هو الذى خلق الآلات التى بها يمكن تركيب هذه السفن فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك . وثانيها لولا الرياح المعينة على تحريكها

لما تكامل النفع بها . وثالثها لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت ولما سلمت ورابعها لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فصيرها الله تعالي من هذه الوجوه مصلحة للعباد وطريقا لمنافعهم وتجاراتهم . وخامسها انه خص كل طرف من أطراف العالم بشيء معين وأحوج الكل الى الكل فصار ذلك داعيا يدعوهم الي اقتحام هذه الاخطار فى هذه الاسفار ولولا انه تعالي خص كل طرف بشي وأحوج الكل اليه لما ارتكبوا هذه السفن فالحامل ينتفع به لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه . وسادسها تسخير الله البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان البحر اذا هاج وعظم الهول فيه اذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه وتقلبت مياهه. وسابعها أن الاودية العظام مثل جيحون وسيحون تنصب أبدا الي بحيرة خوارزم على صغرها ثم ان بحيرة خوارزم لا تزداد البتة ولا تمتد فالحق سبحانه وتعالى هو العالم بكيفية حال هذه المياه العظيمة التي تنصب فيها .وثامنها مافى البحار من الحيوانات العظيمة ثم ان الله تعالي يخلص السفن عنها ويوصلها الي سواحل السلامة . وتاسعها مافي البحار من هذا الامر العجيب وهو قوله تعالي مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان وقال هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ثم انه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الاختلاط بالبعض وكل ذلك مما يرشد العقول والالباب الى افتقارها الي مدبر يدبرها ومقدر يحفظها * وقال تعالي فى سورة الانعام (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أي قل تقريرا لهم بانفراده تعالي بالالهية من ينجيكم من مخاوفهما وشدائدهما الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب وحقيقة الكلام فيه انه يشتد الامر عليه ويشتبه عليه كيفية الخروج ويظلم عليه طريق الخلاص ومنهم

من حمله على حقيقته فقال أما ظلمات البحر فهى ان تجتمع ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة السحاب ويضاف الرياح الصعبة والامواج الهائلة اليهافلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الاعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء الي طريق الصواب (تدعونه) أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أو من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم (تضرعا وخفية) أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أو تدعونه دعاء اعلان وإخفاء (لئن أنجيتنا) أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا (من هذه) الظلمات والشدائد وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) أي الراسخين في الشكر المداومين عليه لاجل هذه النعمة أو جميع النعماء التى من جملتها هذه والمقصود ان عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان الا الى الله تعالى وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا لان الانسان في هذه الحالة يعظم اخلاصه في حضرة الله تعالي وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى وهو المراد من قوله تضرعا وخفية فبين تعالى انه اذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الاصلية في هذه الحالة بانه لا ملجأ الا الي الله ولا تعويل الا على فضل الله وجب ان يبقى هذا الاخلاص عند كل الاحوال والاوقات لكنه ليس كذلك فان الانسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة الى الاسباب الجسمانية ويقدم على الشرك (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) أي الله تعالي وحده ينجيكم مما تدعونه الي كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب (ثم أنتم) بعد ما تشاهدون من هذه النعم الجليلة (تشركون) به ولا تشكرون * وقال تعالي في سورة يونس (هو) أي الله (الذي يسيركم) أي يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها (فى البر) مشاة وركبانا (والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك) أى السفن

وتقدير الكلام كانه قيل هو الذي يسيركم حتى اذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا قال العلامة أبو السعود وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبيء عنه ايثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث (وجرين) أى السفن (بهم) بالذين فيها والالتفات الى الغيبة للايذان بحالهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كانه يذكر لغيرهم مساوى أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعي منه الانكار والتقبيح (بريح طيبة) لينة الهبوب موافقة لمقصودهم (وفرحوا بها) بتلك الريح لطيبها وموافقتها (جاءتها) جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أي تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها (ريح عاصف) أي شديدة الهبوب فازعجت سفينتهم واساءتهم (وجاءهم الموج) فى الفلك (من كل مكان) يعتاد مجيء الموج منه أو من جميع الجوانب بحسب أسباب تتفق له (وظنوا انهم أحيط بهم) أي ان الهلاك قد أحاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط بهم العدو (دعوا الله) بدل من ظنوا بدل اشتمال لان دعاءهم ملابس لظنهم الهلاك ملابسة اللزوم أو استئناف مبني على سؤال ينساق اليه الاذهان كانه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله (مخلصين له الدين) من غير ان يشركوا به شيئاً (لئن انجيتنا) اللام موطئة للقسم على ارادة القول أي قائلين والله لئن أنجيتنا (من هذه) الاهوال والشدائد (لنكونن) ألبتة بعد ذلك أبدا (من الشاكرين) لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسؤلة (فلما أنجاهم) مما غشيهم من المكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة (اذاهم يبغون فى الارض) أى فاجئوا الفساد فيها وسارعوا الي ما كانوا عليه من التكذيب والشرك والجراءة على الله تعالي (بغير الحق) أي حال كونهم ملتبسين بغير الحق واعلم ان الانسان اذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة

للمقصود وحصل له الفرح التام والمسرة القوية ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة . فاولها ان تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة . وثانيها ان تأتيهم الامواج العظيمة من كل جانب . وثالثها أن يغلب على ظنونهم ان الهلاك واقع وان النجاة ليست متوقعة ولاشك ان الانتقال من تلك الاحوال الطيبة الموافقة الى هذه الاحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم والرعب الشديد وأيضاً مشاهدة هذه الاحوال والاهوال فى البحر مختصة بايجاب مزيد الرعب والخوف ثم ان الانسان فى هذه الحالة لا يطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا الي الله تعالى ثم اذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة ونقله من هذه المضرة القوية الى الخلاص والنجاة فى الحال ينسى تلك النعمة ويرجع الى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والاخلاق الذميمة * وقال تعالى فى سورة الرعد (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا قال الامام فخر الدين ان الشيء اذا تزايد حجمه ومقداره صار كان ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله وهو الذى مد الارض اشارة الي ان الله سبحانه هو الذي جعل الارض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص والدليل عليه ان كون الارض أزيد مقدارا مما هو الآن وانقص منه أمر جائز ممكن فى نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد وان يكون بتخصيص وتقدير مقدر وقال أبو بكر الاصم المدهو البسط الى ما لا يدرك منتهاه فقوله وهو الذى مد الارض يشعر بأنه تعالي جعل حجم الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه لان الارض لو كانت أصغر حجما مما هى الآن عليه لما كمل الانتفاع به (وجعل فيها رواسى) أى جبالا ثوابت فى احيازها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ماهي راسية فيه وهذا لا بد وان يكون بتخليق القادر

الحكيم (وانهارا) مجاري واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفي نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة الى ان الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة أخري للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهي تعيشه بالماء والكلاء * وقال تعالي في سورة الرعد أيضا (وفي الارض قطع متجاورات) أى بقاع مختلفة فى الاوصاف وهى مع ذلك متجاورة أي متقاربة ومتلاصقة فبعضها تكون طيبة تنبت وبعضها سبخة لا تنبت وبعضها صالحة للزرع لا للشجر وبعضها بالعكس وبعضها قليلة الريع وبعضها كثيرته وبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينا لزجا ولولا مخصص قادر موقع لافعاله على وجه دون وجه لم يكن كذلك لاشتراك تلك القطع وانتظامها فى جنس الارضية وتأثير الشمس وسائر الكواكب فى تلك القطع على السوية * وقال تعالي فى سورة ابراهيم (وسخر لكم الفلك) بان اقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك (لتجري في البحر) جريا تابعا لارادتكم (بامره) بمشيئته التى نيط بها كل شيء قال الامام فخر الدين الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز والمعنى انه لما كان يجرى على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كانه حيوان مسخر له واعلم انه وان كان تركيب السفن من أعمال العباد الا انه لما كان فعل العبد خلق الله تعالي كانت السفن مسخرة لله تعالى بهذا المعنى وأيضا لو لا انه تعالي خلق الاشجار الصلبة التي منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولو لا تعريفه العباد كيف يتخذونه ولولا انه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التى باعتبارها يصح جري السفينة ولو لا خلقه تعالي الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا انه وسع الانهار وجعل فيها من العمق ما يجوز

جري السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لاجل انه تعالي هو الخالق لهذه الاحوال وهو المدبر لهذه الامور والمسخر لها حسنت اضافة السفن اليه وأضاف ذلك التسخير الي أمره لان الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وانما يقال فيه انه أمر بكذا تعظيما لشأنه ومنهم من حمله على ظاهر قوله انما أمرنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون وتحقيق هذا الوجه راجع الى ماذكرناه (وسخر لكم الانهار) ان أريد بها المياه العظيمة الجارية في الانهار العظام كما يومىء اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به فى الزراعات لاجرم ذكر تعالي انعامه على الخلق بتفجير الانهار والعيون حتى ينبعث الماء منها الي مواضع الزرع والنبات وأيضا ماء البحر لا يصلح للشرب والصالح لهذا المهم هو مياه الانهار * وقال تعالي فى سورة الحجر (والارض مددناها) بسطناها ومهدناها للسكني (وألقينا فيها رواسى) أي جبالا ثوابت شبه الجبال الرواسي استحقارا لها واستقلالا بعددها وان كانت خلقا عظيما بحصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن وما هوا لا تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته وان كل فعل عظيم يتحير فيه الاذهان فهو هين عليه والمعني وجعلنا في الارض رواسى بقدرتنا الباهرة وحكمتنا البالغة (وانبتنا فيها) أي فى الارض (من كل شى موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وذلك أن هذا العالم عالم الاسباب والله تعالي انما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب عناصر هذا العالم فلابد وأن يحصل من الارض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ومن الحرارة والبرودة والرطوبة بسبب الشمس والكواكب مقدار مخصوص ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أوالنقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات

والحيوان فالله سبحانه وتعالي قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الانواع وقيل المراد أنه سبحانه وتعالي يعلم القدر الذي يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالي في الارض ذلك المقدار وقيل المراد مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شيء مستحسن مناسب أومايوزن ويقدر من أبواب النعمة * وقال تعالى فى سورة النحل (وما ذرأ لكم فى الارض) عطف على ماقبله في الآية أى وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات حال كونه (مختلفاً ألوانه) أى أصنافه فى الخلقة والهيئة والكيفية وفي تفسير العلامة أبي السعود مختلفاً ألوانه أي أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالي أولما خلق له من الخواص والاحوال والكيفيات أوجعل ذلك مختلف الالوان أى الاصناف لتتمتعوا من ذلك باى صنف شئتم وفي بحر العلوم مختلفا ألوانه هيآته من خضرة وبياض وحمرة وسواد وغير ذلك (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) فيرون أن اختلافها فى الطباع والاشكال والهيآت والمناظر مع اتحاد المواد ليس الا بصنع صانع حكيم عليم (وهو الذي سخر البحر) أى جعله بحيث يتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) لاتجد أنعم منه ولا ألين ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبيء عنه جعل البحر مبدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالي فانه لما أخرج من البحر الملح الزعاف اللحم الطري في غاية العذوبة علم انه انما حدث لابحسب الطبيعة بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه) مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (ولتبتغوا) عطف على

لتأكلوا وقوله وترى الفلك الخ اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء أوعطف على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا أومتعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا أى لتطلبوا (من فضله)أى من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون باداتها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر لانه أقوي فى باب الانعام من خيث انه جعل المهالك سببا للانتفاع وتحصيل المعاش (وألقى فى الارض رواسى أن تميدبكم) أى كراهة أن تميل وتحرك أولئلاّ تميد بكم قال الامام فخر الدين ان الارض كرة وهذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل علي وجه هذه الكرة فلو فرضنا ان هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الارض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بادني سبب أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الارض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة علي وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال انما يتوجه بثقله نحو مركز العالم وتوجه ذلك نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريا مجري الوتد الذى يمنع كرة الارض من الاستدراة فكان تخليق هذه الجبال علي وجه الارض كالاوتاد المغروزة فى الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة فكانت مانعة للارض من الميد والميل وقال ابن عباس رضي الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تنكفىء باهلها كما تنكفىء السفينة لانها بسطت على الماء فارساها الله تعالي بالجبال الثقال (وانهارا وسبلا) يعني وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها في اسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الي بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) ارادة ان تهتدوا بها الي مقاصدكم (وعلامات) اى وجعل فيها معالم بها يهتدى من جبل وسهل ومياه واشجار وريح قال

الامام فخر الدين ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطريق * وقال تعالي فى سورة الأسري (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال اي هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها بقدرته الكاملة ويسيرها على وجه البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذى هو فضل من قبله (انه كان بكم) ازلا وأبدا (رحيما) حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم مايسر من أسبابه (واذا مسكم الضر فى البحر) خوف الغرق (ضل من تدعون) اى ذهب عن خواطركم كل من تدعون فى حوادثكم وتستغيثون (الا اياه) تعالي فانكم تدعونه وحده لانكم فى شدة لا يكشفها الا هو أو ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله (فلما نجاكم من الغرق وأوصلكم (الى البر اعرضتم) عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة (وكان الانسان كفورا) لنعم الله بسبب ان عند الشدة يتمسك بفضله تعالى ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويركن الى غيره ويتمسك بالعلل والاسباب (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فامنتم (ان يخسف بكم جانب البر) الذى هو مأمنكم وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالي وقهره وسلطانه (أو يرسل عليكم) من فوقكم (حاصبا) ريحا ترمي بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لاراد لامره الغالب (أم أمنتم ان يعيدكم فيه) في البحر (تارة أخرى) بخلق دواعى تلجئكم الى ان ترجعوا فتركبوه (فيرسل عليكم) وأنتم فى البحر (قاصفا من الريح) وهي التى لا تمر بشيء الا كسرته أو التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كانها تتقصف أى تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبيء عنه

عنوان

عنوان القصف (بما كفرتم) بسبب اشراككم أوكفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها * وقال تعالى في سورة طه (الذي جعل لكم الارض مهدا) أى جعلها لكم كالمهد تمهدونها أو ذات مهد وهو المكان الممهد الموطأ أو المراد انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع (وسلك لكم فيها سبلا) أى أدخل وسهل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والاودية والبراري تسلكونها من قطر الي قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها * وقال تعالي في سورة الانبياء (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء أوكانما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالي خلق الانسان من عجل أوصيرنا كل شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك وقال بعضهم أي وأحيينا بالماء كل شيء من الحيوان وغيره وذلك لانه سبب لحياة كل شيء فيدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر (أفلا يؤمنون) انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها) أي فى الرواسى أو في الارض (فجاجا) أى مسالك واسعة (سبلا) بدل من فجاجا أي مذللة للسلوك ولولا ذلك لعسر أو لتعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) أى الي مصالحهم ومهماتهم * وقال تعالى في

سورة الحج (ألم تر ان الله سخر لكم مافى الارض) أي جعل ما فيها من الاشياء مذللة ممدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الاكل والركوب والحمل عليها فلولا ان سخر الله تعالي الابل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما انتفع بهما أحد (والفلك) أى وسخر لكم الفلك وافردها بالذكر وان اندرجت بطريق العموم تحت ما فى قوله ما في الارض لظهور الامتنان بها ولان تسخيرها أعجب من سائر المسخرات (تجري في البحر بأمره) حال من الفلك وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب فنبه تعالي على نعمه بذلك وبأن خلق ما تعمل منه السفن وبان بين كيف تعمل * وقال تعالى في سورة الفرقان (وهو الذي مرج البحرين) أي خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان (هذا عذاب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته والمقصود من الفرات البليغ فى العذوبة حتى يصير الى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب ولولا ملوحته لاجن وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام (وجعل بينهما برزخا) المقصود انه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وجعل من من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته (وحجرا محجورا) أسي تنافرا مفرطا كان كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة نهر بغداد تنصب الى بحر فارس وتدخل فيه وتشقه وتجري فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها كما ان الماء الذي يجري فى نهر طبرية نصفه بارد

ونصفه

ونصفه حار فلا يختلط أحدهما بالآخر ومثل النيل المبارك والبحر الاخضر وهو بحر فارس الذي هو شعبة من البحر الهندي الذي يتصل بالبحر المحيط وذلك ان بحر النيل يدخل في البحر الاخضر قبل ان يصل الى بحيرة الزنج ويختلط به ولولا اختلاطه بملوحته لما قدر أحد على شربه لشدة حلاوته كذا فى روح البيان قال ولا نهاية لقدرة الله فقد ذكروا ان بحيرة تنيس تصير عذبة ستة أشهر وتصير ملحا أجاجا ستة أشهر كذا دأبها أبدا ويحتمل كما ذكره الامام فخر الدين ان المراد من البحر العذب الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن الاجاج البحار الكبار قال وجعل بينهما برزخا أي حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة * وقال تعالى في سورة النمل (أمن جعل الارض قرارا) اضراب وانتقال من التبكيت بما قبله الى التبكيت بوجه آخر أدخل فى الالزام بجهة من الجهات أي جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم وذكر الامام فخر الدين فى كون الارض قرارا وجوها. الاول انه دحاها وسواها للاستقرار. الثانى انه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه. الثالث انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر النور عليها ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات. الرابع انه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع.

الخامس انه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الارض . السادس انه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وانه يُطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح (وجعل خلالها) أوساطها (أنهاراً) جارية ينتفعون بها وعبارة الخطيب أي جارية على حالة واحدة فلو اضطربت الارض أدنى اضطراب لتغيرت مجاري المياه (وجعل لها رواسي) أي جبالا أثبت بها الارض على ميزان دبره سبحانه وتعالي فى مواضع من أرجائها بحيث تمنعها ان تميد باهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى (وجعل بين البحرين) أي العذب والمالح أو خليجى فارس والروم (حاجزا) من قدرته أي برزخا معنويا مانعا أحدهما ان يختلط بالآخر (أإله مع الله) معين له على ابداع هذه البدائع (بل اكثرهم لا يعلمون) توحيد ربهم وقدرته وسلطانه بل هم كالبهائم لاعراضهم عن هذا الدليل الواضح * وقال تعالى فى سورة لقمان (وألقى في الارض رواسى أن تميد بكم) كما هو شأن ما على ظهر الماء وعبارة العلامة أبى السعود أن تميد بكم كراهة أن تميل بكم فان بساطة أجزائها تقتضي تبدل احيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص اه قال الامام فخر الدين واعلم ان الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما ترى الاراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الي موضع (وبث فيها من كل دابة) من كل نوع من أنواعها مع كثرتها واختلاف أجناسها وعبارة الامام فخر الدين وبث فيها من كل دابة أي سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الارض وحركنا الدواب

ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابةالتى لا تعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب أما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تحرك فى المواضع التي تناسبها وتعيش فيها (وأنزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم) كثير المنافع أو كريم بماله من البهجة والنضرة الجالبة للسرور قال الامام فخر الدين هذه نعمة أخري أنعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات والالتفات الي نون العظمة فى الفعلين فيه حكمة من وجهين . أحدهما ان خلق الارض ثقيلا والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها احتيارا فيقول الاول طبيعى والآخر اختياري للحيوان ولكن لايشك أحد فى أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالي فقال وانزلنا من السماء ماء. الثانى هو ان انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان متكثرة فى كل مكان فاسنده الي نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته * وقال تعالي في سورة لقمان أيضا (ألم تر أن الفلك) أي السفن كبارا وصغارا (تجري في البحر) أي على وجه الماء (بنعمت الله) باحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول انعامه (ليريكم من آياته) أي بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وعبارة الخطيب أى عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على انه الحق الذي أثبت بوجوب وجوده ما ترون من الاحمال الثقال على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فما دونها (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أى ان فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة

في عددها لكل من يبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكر فى الانفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكانه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) أي علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كلما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ما ينازع الفطرة من الهوي والتقليد بما دهاهم من الدواهي والشدائد (فلما نجاهم الي البر البر فمنهم مقتصد) أى مقيم على الطريق القصد السوى الذى هو التوحيد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطرى أو رفض لما كان في البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ في كفران نعم الله تعالي واعلم انه لما ذكر الله تعالي ان فى ذلك لآيات ذكر ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه أولا ومن فى بصيرته ضعف لا يدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع فى شدة اعترف بان الكل من الله ودعاه مخلصا اى يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الي الشرك وهو المراد بقوله وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور * وقال تعالي في سورة فاطر (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه) يسهل انحداره لما له من اللذة والملائمة للطبع (وهذا ملح أجاج ومن كل) أى من كل واحد من البحرين المختلفين طعما (تأكلون) أى من السمك المنوع الي أنواع تفوت الحصر (لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) قال الامام فخر الدين الاظهر ان المراد منه ذكر دليل على قدرة الله وذلك من حيث ان البحرين يستويان في الصورة ويختلفان فى الماء فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما ومن

يوجد في المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لايكون الاقادرا مختارا وقوله ومايستوى البحران اشارة الي ان عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته (وترى الفلك فيه) أسيـ فى كل منهما (مواخر) شواق للماء بجريها هـذه مقبلة وهذه مدبرة وجها الي ظاهر هذه بريح واحدة (لتبتغوا من فضـله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيهما واللام متعلقة بمواخر (ولعلكم تشكرون) الله على ذلك * وقال تعالي في سورة فاطر أيضا (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد) أي ذوجدد أى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وفى المفردات أى طرائق ظاهرة من قولهم طريق مجدود أي مسلوك مقطوع ومنـه جادة الطريق وفي الجلالين الطرائق تكون فى الجبال كالعروق (بيض وحمر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف (وغرابيب سود) عطف على بيض أو على جدد كانه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحـد غرابيب سود أي صخور شديدة السواد كان قائلا قال اختلاف الثمرات لاختـلاف البقاع الا تري ان بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران وغـيره فقال تعالي اختلاف البقاع ليس الا بارادة الله والا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض واعلم أن الله تعـالى لمـا ذكر فى الاول أخرجنا به ثمرات كان نفس اخراج الثمار دليـلا على القـدرة ثم زاد عليـه بيانا وقال مختلفا كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقـدرة والارادة لان كون الجبل في بعض نواحى الارض دون بعضها والاختـلاف الذي في هيئـة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضـها أرفع دليـل القـدرة والاختيار ثم زاده بيانا وقال جدد بيض أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها كما أن اخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل * وقال تعالى في سورة يس (وآية

لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم الى تجاراتهم او صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فان الذرية تطلق عليهن لا سيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم في السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (في الفلك المشحون) المملوء والفائدة فى تخصيص المشحون بالذكر ان الادمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك واقع بقدرته تعالي لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب فى الماء لان الخفيف يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون أثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله (وخلقنا لهم من مثله) مما يماثل الفلك (ما يركبون) من الابل فانها سفائن البر أوبما يماثل ذلك الفلك من السفن والمركبات البخارية فانه اذا كان بين الفلك والابل مناسبة حتى سموها سفائن البر فان المناسبة بين الفلك والمركبات البخارية أتم حيث ان الفلك تجرى بواسطة الرياح في البحار وهذه تجري فى البر بقوة البخار وأما كون السفن البخارية مرادة فى الآية فهو مما لا مراء فيه لتحقق المماثلة فيها وحينئذ فالاخبار بما ذكر مع أنه لم يكن عند العرب منه خبر ولا أثر فيه اثبات لنبوة ورسالة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم وجعل السفن مخلوقة لله تعالي مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم باقدار الله تعالي والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا (وان نشأ نغرقهم) أي مع ايجاد السفن وركوبهم لها اذ ركوبهم لا ينجى الا بفضل الله تعالي (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل وقوعه (ولاهم ينقذون) أى ينجون منه بعد وقوعه (الا رحمة منا ومتاعا) أى لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الاشياء الا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية الى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما (الي حين) أى الي زمان قدر فيه آجالهم

* وقال

* وقال تعالى في سورة حم السجدة (قل أئنكم لتكفرون) انكار وتشنيع لكفرهم وان واللام لتأكيد الانكار أو للاشعار بان كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد وانما علق كفرهم بالموصول حيث قال (بالذى خلق الارض) لتفخيم شأنه تعالي واستعظام كفرهم به أي بالعظيم الشأن الدي خلق الارض على سعتها وعظمها (في يومين) في مقدار يومين أو في نوبتين فان اليوم الحقيقي انما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وابداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له أندادا) عطف على تكفرون داخل في حكم الانكار والتوبيخ وجمع الانداد باعتبار ماهو الواقع لا بان مدارا الانكار هو التعدد أى وتجعلون له اندادا والحال انه لا يمكن ان يكون له ند واحد واعلم ان الاستدلال بكونه تعالى خالقا للارض في يومين وان كان لا يمكن تقريره الا بالسمع ووحي الانبياء والكفار كانوا منازعين في الوحى والنبوة الا ان أول التوراة لما كان مشتملا على هذا المعنى وكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب وكفار مكه كانوا يعتقدون في أهل الكتاب انهم اصحاب العلوم والحقائق والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقة فحينئذ يحسن ان يقال لهم ان الاله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الاشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الجماد شريكا له في الالهية فظهر بما قررناه ان هذا الاستدلال قوي حسن (ذلك) العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر من خلق الارض في يومين (رب العالمين) أى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الارض خاصة (وجعل فيها رواسي من فوقها) مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة وظاهرة للطلاب وليظهر للنظار ما فيها من وجوه الاستدلال ومراصد الاعتبار ومطارح الافكار ولو جعل فيها رواسى من تحتها الاوهم ذلك ان تلك الاساطين التحتانية

هي التى أمسكت هـذه الارض الثقيلةعن النزول ولـكنه تعالي قال خلقت
هـذه الجبال الثقال فوق الارض ليري الانسان بعينـه ان الارض والجبال
على اثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذاك الحافظ المدبر الا الله سبحانه
وتعالى (وبارك فيها) البركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الارض اكثر مما
يحيط به الشرح والبيان (وقدر فيها أقواتها) أي أقوات أهلها بان عين لكل
نوع ما يغنى به وحكم بالفعل بان يوجد فيها سيأتي لاهلها من الانواع المختلفة
أقواتها المناسبة لها على مقـدار معين تقتضيه الحكمة أو اقواتا تنشأ منها بان
خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها فاضاف القوت الى الارض لكونه
متولدا من تلك الارض حادثا فيها لانه يكفي في جنس الاضافة أدنى سبب
فالشيء يضاف الى فاعله تارة والى محله أخري أي قدر الاقوات التي يختص
حدوثها بها وذلك لانه تعالي جعل كل بلدة معدة لنوع من الاشياء المطلوبة
حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الي الاشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس
فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات واكتساب الاموال لتنتظم
عمارة الارض كلها باحتياج بعضهم الي بعض فكان جميع ما تقدم من ابداعها
وايداعها ما ذكر من متاعها على مقدار لا تتعداه ومنهاج بديع دبره في الازل
وارتضاه وقدره فامضاه لاينقص عن حاجة المحتاجين أصلا وانما ينقص توصلهم
او توصل بعضهم اليه فلا يجدله حينئذ ما يكفيه وفى الارض أضعاف أضعاف
كفايته (فى أربعة أيام) أى باليومين اللذين خلق فيهما الارض فهو على حذف
مضاف أي تمام أربعة ايام (سواء) أي استوت تلك الايام سواء أي استواء يعنى
فى أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان (للسائلين) متعلق بمحذوف
تقديره هذا الحصر فى الاربعة للسائلين عن مدة خلق الارض ومافيها أو بقدر أي
قدر فيها أقواتها لاجل السائلين أي الطالبين لها المحتاجين اليها من المقتاتين *

وقال

وقال تعالي فى سورة شوري (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر كالاعلام) أى كالجبال في العظم قال الامام فخر الدين اعلم أنه تعالى ذكر من آياته هذه السفن العظيمة التى تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح واعلم أن المقصود من ذكره أمران * أحدهما أن يستدل به على وجود القادر الحكيم * والثانى أن يعرف مافيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد * أما الوجه الاول فنقول فيه هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه وعند سكون هذه الرياح تقف وقد بينا بالدليل أن محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى اذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها وذلك يدل على وجود الاله القادر وأيضاً ان تلك السفينة تكون في غاية الثقل ثم انها مع ثقلها بقيت على وجه الماء وهو أيضاً دلالة أخري. وأما الوجه الثاني وهو معرفة مافيها من المنافع فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الارض بنوع آخر من الامتعة واذا نقل متاع هذا الجانب الى ذلك الجانب فى السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة في التجارة فلهذه الاسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة ثم قال تعالي (ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) فيبقين ثوابت على ظهر البحر أي غير جاريات لاغير متحركات أصلا (ان في ذلك) الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركدن أخرى على حسب مشيئته تعالى (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة في العدد دالة على ما ذكر من شؤنه تعالي (لكل صبار شكور) لكل من حبس نفسه عن التوجه الى مالا ينبغي ووكل همته بالنظر في آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل مؤمن كامل فان الايمان نصفه صبر ونصفه شكر (أو يوبقهن) عطف على يسكن والمعني ان يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيغرقن بعصفها (بما كسبوا) أي أهلهن من الذنوب وايقاع الايباق عليهن

مع أنه حال أهلها للمبالغة والتهويل (ويعف عن كثير) منها فلا يغرق أهله وادخال العفو فى حكم الايباق حيث جعل مجزوماً مثله لما أن المعني أو يرسلها فيوبق ناساً وينج آخرين بطريق العفو عنهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ (مالهم من محيص) أى مهرب من العذاب قال الامام فخر الدين معنى الآية وليعلم الذين يجادلون أي ينازعون على وجه التكذيب أن لا مخلص لهم اذا وقفت السفن واذا عصفت الرياح فيصير ذلك سبيا لاعترافهم بأن الاله النافع الضار ليس الا الله تعالي * وقال تعالى في سورة الزخرف (الذى جعل لكم الارض مهداً)أي فراشاً قارة ثابتة كالمهد للصبي ولو شاء لجعلها مزلة لا ينبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال فالانتفاع بها انما حصل لكونها واقفة ساكنة ولاجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها فى الزراعة والأبنية وستر عيوب الاحياء والاموات ولما كان المهد موضع راحة الصبي جعل الارض مهداً لكثرة ما فيها من الراحات (وجعل لكم فيها سبلا) أي طرقا تسلكونها فى أسفاركم وذلك أن انتفاع الناس انما يكمل اذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد الى بلد ومن اقليم الي اقليم فهيأ تعالي تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة ليحصل الانتفاع ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك فى مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك (لعلكم تهتدون)أي لكى تهتدوا بسلوكها الي مقاصدكم أو بالتفكر فيها الى التوحيد الذي هو المقصد الاصلى وقال تعالي فى سورة الزخرف أيضاً (وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون) أي ما تركبونه (لتستووا على ظهوره) أى لتستعلوا على ظهور ما تركبونه (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها وذلك الذكر هو أن يعرف ان الله تعالي خلق

وجه البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الانسان من تصريف هذه السفينة أي جانب شاء وأراد فاذا تذكروا أن خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الانسان ولتحريكاته ليس من ذلك الانسان وانما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة عظيمة من الله تعالي فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالي وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها (وتقولوا) بألسنتكم متعجبين من ذلك جمعا بين القلب واللسان (سبحان الذى سخر لنا هذا) أي الذى ركبناه سفينة كانت أو دابة (وما كنا له مقرنين) اى مطيقين ومعنى الآية ليس عندنا من القوة والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نطيقهما فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته (وانا الي ربنا لمنقلبون) أي راجعون قال الامام فخر الدين ووجه اتصال هذا الكلام بماقبله ان ركوب الفلك في خطر الهلاك فانه كثيرا ما تنكسر السفينة ويهلك الانسان وراكب الدابة أيضا كذلك لان الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب واذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وان يقطع انه هالك لا محالة وانه منقلب الى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره حتي لو اتفق له ذلك المحذور كان وطن نفسه على الموت * وقال تعالى في سورة الجاثية (الله الذي سخر لكم البحر) بان جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالاخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه (لتجري الفلك فيه بامره) وانتم راكبوها ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذي يغوص فيه أخف شيء منه كالابرة وما دونها ففى ذلك دلالة ظاهرة على وحدانيته تعالي وقول الطبيعيين ان كل جسم ثقيل يغوص فى الماء يخف ثقله بمقدار ما يعادله من الماء لا يمنع من الاستدلال بذلك علي قدرة

الله تعالى لان اتصاف الجسم الثقيل بالخفة ليس لذاته لما في ذلك من الجمع بين النقيضين وهو ان يكون ثقيلا وليس بثقيل وهذا محال فلا بد حينئذ أن يكون الجسم الثقيل خف على الماء وبقى طافيا على وجهه بقدرة الله تعالى (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص والصيد وغيرها (ولعلكم تشكرون) ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك قال الامام فخر الدين اعلم انه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل الا بسبب تسخير ثلاثة أشياء. أحدها الرياح التى تجري على وفق المراد. وثانيها خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك. وثالثها خلق الخشبة على وجه تبقي طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه وهذه الاحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى * وقال تعالى في سورة الذاريات (وفي الارض آيات للموقنين) أي دلائل واضحة على شؤنه تعالى على التفصيل من حيث انها مدحوة كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين في اقطارها والسالكين في منا كبها وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتنة وانها تلقح بالوان النبات وانواع الاشجار وأصناف الثمار المختلفة الالوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم * وقال تعالى في سورة الذاريات أيضا (والارض فرشناها) مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها (فنعم الماهدون) أي نحن (ومن كل شيء) أي من الاجناس (خلقنا زوجين) أي نوعين ذكرا وأنثى وقيل متقابلين السماء والارض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك قال المنطقيون المراد بالشيء الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادى والمجرد ومن المادي النامي والجامد ومن النامى المدرك

والنبات ومن المدرك الناطق والصامت (لعلكم تذكرون) أي فعلنا ذلك كله
كي تتذكروا فتعرفوا انه خالق الكل وانه فرد لا كثرة فيه * وقال تعالي في
سورة الرحمن (مرج البحرين) أي أرسلهما من مرجت الدابة اذا أرسلتها والمعني
أرسل البحر الملح والبحر العذب (يلتقيان) أي يتجاوران ويتماس سطوحهما لافصل
بينهما في مرأى العين وقيل أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان في المحيط لانهما
خليجان ينشعبان منه (بينهما برزخ) أي حاجز من قدرة الله عز وجل (لا يبغيان)
أي لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وابطال الخاصية وفي الخطيب أي
لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه لا في الظاهر ولا في الباطن فتى حفرت
على جنب الملح في بعض الاماكن وجدت الماء العذب وان قربت قال
البقاعي بل كلما قربت كان أحلي خلطهما سبحانه في رأى العين وحجز بينهما
في غيب القدرة اه قال الامام فخر الدين انه تعالى خلق في الارض بحاراً
تحيط بها الارض وببعض جزائرها يحيط الماء وخلق بحرا محيطاً بالارض
وعليه الارض وأحاط به الهواء كما قال به أصحاب علم الهيئة وورد به
أخبار مشهورة وهذه البحار التي في الارض لها اتصال بالبحر المحيط
ثم انهما لا يبغيان على الارض ولا يغطيانها بفضل الله تعالي لتكون
الارض بارزة يتخذها الانسان مكانا وعند النظر الي أمر الارض يحار
الطبيعي ويتلجلج في الكلام فان عندهم موضع الارض بطبعه أن يكون
في المركز ويكون الماء محيطاً بجميع جوانبه فاذا قيل لهم فكيف ظهرت الارض
من الماء ولم ترسب يقولون لانجذاب البحار الي بعض جوانبها * فان قيل
لماذا انجذب فالذي يكون عنده قليل من العقل يرجع الي الحق ويجعله بارادة
الله تعالي ومشيئته والذي يكون عديم العقل يجعل سببه من الكواكب وأوضاعها
واختلاف مقابلاتها وينقطع في كل مقام مرة بعد أخرى وفي آخر الامر اذا

قيل أوضاع الكواكب لم اختلفت على الوجه الذي أوجب البرد في بعض الارض دون بعض آخر صار كما قال تعالى فبهت الذى كفر ويرجع الي الحق ان هداه الله ثم قال قوله تعالي مرج البحرين أى أرسل بعضهما في بعض وهما عند الارسال بحيث يلتقيان أومن شانها الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين ويحتمل ان يقال من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان الى الآن ولا يمتزجان وعلى الاول فالفائدة فى قوله يلتقيان اظهار القدرة فى المنع فانه اذا أرسل الماءين بعضهما على بعض وفي طبعهما بخلق الله وعادته السيلان والالتقاء ويمنعهما البرزخ الذي هو قدرة الله أوبقدرة الله يكون أدل على القدرة مما اذالم يكونا على حال يلتقيان وفيه اشارة الى مسئلة حكمية وهي ان الحكماء اتفقوا على ان الماء له حيز واحد بعضه ينجذب الي بعض كأجزاء الزئبق غير ان عند الحكماء المحققين ذلك باجراء الله تعالي ذلك عليه وعند من يدعي الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول ذلك له بطبعه فقوله يلتقيان أي من شانهما ان يكون مكانهما واحدا ثم انهما بقيا فى مكانين متميزين فذلك برهان القدرة والاختيار . وعلى الوجه الثاني الفائدة فى قوله يلتقيان بيان القدرة أيضا على المنع من الاختلاط فان الماءين اذا تلاقيا لا يمتزجان فى الحال بل يبقيان زمانا يسيرا كالماء المسخن اذا غمس اناء مملوء منه في ماء بارد ان لم يمكث فيه زمانا لا يمتزج بالبارد لكن اذا دام مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى مرج البحرين خلاهما ذهابا الى ان يلتقيا ولا يمتزجا فذلك بقدرة الله تعالى ثم قال تعالي بينهما برزخ لا يبغيان اشارة الى ماذكرنا من منعه اياهما من الجريان على عادتهما والبرزخ الحاجز وهو قدرة الله تعالي في البعض وبقدرة الله في الباقى فان البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضي محسوس وقد لا يكون وقوله لا يبغيان فيه وجهان *

أحدهما من البغي أي لا يظلم أحدهما على الآخر بخلاف قول الطبيعي حيث يقول
الماآن كلاهما جزء واحد فقال هما لا يبغيان ذلك * وثانيهما ان يقال لا يبغيان
من البغي بمعنى الطلب أى لايطلبان شيأ وعلى هـذا فيه وجه آخر وهو ان
يقال ان يبغيان لامفعول له معين بل هو بيان انهما لايبغيان في ذاتهما ولا
يطلبان شيأ أصلا بخلاف مايقول الطبيعى انه يطلب الحركة والسكون في
موضع عن موضع اه واعلم ان المتأخرين من الطبيعيين يقولون ان ماء البحر
العذب أخف من ماء البحر الملح فلذلك يطفوا ماء البحر العـذب على وجه
البحر الملح ولا يختلط به فنقول لهم لو اتينا بقدحين مملوء أحدهما من الماء
العذب والآخر من الماء الملح وصببنا أحدهما فى الآخر هل يطفو العذب
على وجه الملح أو يختلطان لاشك أنهما يختلطان وحينئذ فما الذي يمنع البحر
الملح من الاختلاط بالبحر العذب اوتغلب أحدهما على الآخر حتي ينصب
فيه ويكون ماؤهما واحدا سوى قدرة الله تعالى (فباي آلاء) أي نعم (ربكما
تكذبان) وليس من البحرين شي يقبل التكذيب (يخرج منهما اللؤلو)الدر
(والمرجان) الخرز الاحمر المشهور (فباى آلاء ربكما تكذبان) أبكثرة النعم
من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها واخراج الحلى العجيبة أم بغيرها(وله
الجوار) أى السفن الجاريات (المنشآت) المرتفعة أوالمرفوعات الشرع
أوالمحدثات (فى البحر كالاعلام) أي التى رفعت في البحر كالاعلام أوالتي تجري
فى البحر كالاعلام أي كانها الجبال والمقصود بيان القدرة فان الجبال لاترتفع
على الماء ولا تجرى الا بقدرة الله تعالى (فباى آلاء ربكما تكذبان) من خلق
مواد السفن والارشاد الى اخذها وكيفية تركيبها واجرائها فى البحر باسباب
لايقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه * وقال تعالى في سورة الحديد
(وانزلنا الحديد) أي المعروف علي وجه من القوة والصلابة واللين قال الحسن

رحمه الله وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالي وانزل لكم من الانعام وذلك ان
أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء وقال بعضهم المعنى وأخرجنا
الحديد من المعادن لان العدل انما يكون بالسياسة والسياسة مفتقرة الى العدة
والعدة مفتقرة الى الحديد وأصل الحديدماء وهو منزل من السما وقال بعضهم
انزلنا هنا بمعنى انشانا وأحدثنا الحديد وذلك ان الله تعالى أخرج لهم الحديد
من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه والهامه وقال قطرب انزلنا أي هيئنا من النزل
يقال أنزل الامير على فلان نزلا حسنا (فيه باس شديد) وهو القتال به فمنه
جنة وهى آلة الدفع ومنه سلاح وهو آلة الضرب أوقوة شديدة
يعنى السلاح للحرب لان آلات الحرب انما تخذ منه (ومنافع للناس) أي ومنه
ماينتفعون به فى مصالحهم كالسكين والفأس والابرة ونحو ذلك ومامن صنعة
الا والحديد أوما يعمل بالحديد آلتها ثم ان مصالح العالم اما أصول واما فروع
أما الاصول فاربعة الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة وذلك لان الانسان
مضطر الي طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه والانسان مدنى بالطبع فلا
تتم مصلحته الا عند اجتماع جمع من ابناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص
فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل وذلك الانتظام لا بدوان يفضي الى المزاحمة
ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض وذلك هو السلطان فثبت انه
لا تنتظم مصلحة العالم الا بهذه الحرف الاربعة ومن المعلوم انها لا تتم ولا تكمل
الا بالحديد وعند هذا يظهر ان اكثر مصالح العالم لا تتم الا بالحديد ويظهر أيضا ان
الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب فى
الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح
الدنيا ثم ان الحديد لما كانت الحاجة اليه شديدة جعله سهل الوجدان كثير
الوجود والذهب لما قلت الحاجة اليه جعله عزيز الوجود وعند هذا يظهر أثر

جود الله تعالى ورحمته على عبيده فان كل ما كانت حاجتهم اليه اكثر جعل وجدانه أسهل وكلما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة اليه أقل * وقال تعالى فى سورة الملك (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا) أي سهلة يسهل عليكم السلوك فيها ولا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها لينة قابلة للانقياد لما تريدون منها من زرع الحبوب وغرس الاشجار وحفر الآبار وشق العيون والانهار وبناء الابنية وغير ذلك ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك ولو جعلها صخرية خشنة تعسر المشي عليها وأيضا لو كانت حجرية أو مثل الذهب أو الحديد لكانت تسخن جدا فى الصيف وكانت تبرد جدا في الشتاء فلا يستطاع المشى عليها أيضا ولكانت الزراعة فيها ممتنعة والغراسة فيها متعذرة ولما كانت كفاتا للاحياء والاموات وذكر الامام فخر الدين فى معنى جعلها ذلولا انه تعالى سخرها لنا بان أمسكها في جو الهواء قال ولو كانت متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا (فامشوا فى مناكبها) الفاء لترتيب الامر على الجعل المذكور أي فاسلكوا فى جوانبها أو جبالها وهو مثل لفرط التذليل فان منكب البعير أرق أعضائه وانباها عن ان يطأه الراكب بقدمه فاذا جعل الارض فى الذل بحيث يتأتي المشي في مناكبها لم يبق منها شيء لم يتذلل (وكلوا من رزقه) والتمسوا من نعم الله تعالي (واليه النشور) أى المرجع بعد البعث لا الي غيره فبالغوا فى شكر نعمه وآلائه * وقال تعالى فى سورة نوح (والله جعل لكم الارض بساطا) تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) أى طرقا واسعة لتتوصلوا الى البلاد الشاسعة برا وبحرا فيتم الانتفاع بجميع البقاع وقيل الفج هو المسلك بين الجبلين * وقال تعالي في سورة المرسلات (ألم نجعل الارض كفاتا) الكفات اسم ما يكفت أى يضم ويجمع من كفت الشيء اذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع

لما يضم ويجمع أي ألم نجعلها كفاتا تكفت (أحياء) كثيرة على ظهرها (وأمواتا) غير محصورة فى بطنها والمعني ان الاحياء يسكنون فى منازلهم والاموات يسكنون فى قبورهم ولهذا كانوا يسمون الارض أما لانها فى ضمها للناس كالام التي تضم ولدها وتكفله ولما كانوا يضمون اليها جعلت كانها تضمهم وقيل الكفات جمع كافت كصائم وصيام أو كفت وهو الوعاء أجرى على الارض باعتبار بقاعها وقوله احياء وامواتا راجع الي الارض أيضاً أى الارض منقسمة الي حي وهو الذي ينبت والى ميت وهو الذى لا ينبت (وجعلنا فيها رواسي شامخات) أى جبالا ثوابت طوالا شواهق (واسقيناكم ماء فراتا) بان خلقنا فيها انهارا وينابيع (ويل يومئذ) أي يوم القيامة (للمكذبين) بامثال هذه النعم العظيمة * وقال تعالى فى سورة النبأ (ألم نجعل الارض مهادا) المهاد البساط والفراش وهو مصدر والمراد منه هنا الممهود أو المبالغة كزيد جود أو بمعني ذات مهاد (والجبال أوتادا) أي تثبت بها الارض كما تثبت الخيام بالاوتاد حتي لا تميد باهلها فيكمل كون الارض مهادا بسبب ذلك * وقال تعالى فى سورة النازعات (والارض بعد ذلك) أى بعد ان بنى السماء (دحاها) أي بسطها بسطا مهيأ لنبات الاقوات ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها وانتصاب الارض بعضمر يفسره دحاها وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو (أخرج منها ماءها) بان فجر منها عيونا وأجرى انهارا (ومرعاها) أي رعيها بالكسر بمعني الكلأ والمراد هنا ما ترعاه النعم من الشجر والعشب وما يأكله الناس من الاقوات والثمار واطلاق المرعى على ما يأكله الناس استعارة (والجبال ارساها) أي اثبتها وأثبت بها الارض ان تميد باهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه علي ان الرسو المنسوب اليها فى مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بارسائه عز وجل

ولو

ولولاه لما ثبتت في أنفسها فضلا عن اثباتها للارض (متاعا) مفعول له لمقدر اى فعل ذلك تمتيعاً أو مصـدر لعامل مقدر أى متعكم بذلك متاعا (لـكم ولانعامكم) جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم * وقال تعالي في سورة الغاشية (أفلا ينظرون الي الأبل كيف خلقت والي السماء كيف رفعت والى الجبال) الشامخة التى ينزلون فى اقطارها وينتفعون بمياهها واشجارها (كيف نصبت) نصبا رصينا ثابتا فهي راسخة لا تميل ولا تميد ولا تزول (والى الارض) التى يضربون فيها ويتقلبون عليها (كيف سطحت) سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق * وقال تعالي فى سورة الشمس (والارض وما طحاها) اى ومن بسطها من كل جانب كى يعيش أهلها قال الليث الطحو كالدحو وهو البسط وإبدال الطاء من الدال جائز والمعنى وسعها نساله سبحانه وتعالي ان يوسع علينا نعمه وان يبسط علينا جوده وكرمه والحمد لله رب العالمين وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وجميع النبيين والمرسلين ومن اقتدى بهداهم من المؤمنين آمين

الى هنا انتهى الجزء الثاني من كتاب الدليل الصادق
علي وجود الخالق. وبطلان مذهب الفلاسـفة
ومنكرى الخوارق . ويليه الجزء الثالث
أوله المقصد الرابع فى ما وراء
الطبيعة

بيان الخطأ والصواب الواقع فى الجزء الثاني من كتاب الدليل الصادق

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	برد	يرد
٥	١٣	لحضة	المحضة
٦	٠٣	خرها	آخرها
١٢	١٤	الثباب	النبات
١٤	٠٧	أزاجا	أزواجا
١٥	٠١	آية	آياته
٢٥	٢٠	يتوفف	يتوقف
٣٠	١٦	وأفدرناه	وأقدرناه
٣١	٢١	خفيا	خفيفا
٣٢	٢٢	الخرواج	الخروج
٣٩	١٢	المرتفع	المرتفع
٤٥	١٤	لقيت	لما بقيت
٤٥	١٨	عريبة	غريبة
٤٦	١٠	امتدادة	امتداده
٤٧	٢١	مكونه	مكونة
٢٨	٢٢	بالون	باللون
٥١	٢١	يلقحنا	يلحقنا
٥٦	٢١	مسديرا	مستديرا
٥٨	١	بتوحيدة	بتوحيده
٥٩	١٢	بضروية	بضرورية
٦٥	١٤	بينهما	بينها
٦٩	٢٢	والله غيرهم جعل	والله جعل
٧٠	٠٧	ثابتة	نابتة
٨٩	٨	اعضان	اغصان
٩٤	٢٠	اخذرت	اخذت
١٠٢	٤	لاتها	لأنها
١١١	٦	وايدروجه	وايدروجين

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١١١	١	مختاقة	مختافة
١٣٤	٥	المقصوذ	المقصود
٠٠٠	١٢	وتمر	وتمر
١٦٦	٣	ينلذذ	يتلذذ
٠٠٠	١٤	نكدبان	تكذبان
١٤١	١٨	اذ	اذا
١٦٥	١	رعاية	رعاية الحكمة
١٦٨	٢	في	فى
١٧٠	١١	كلامه آخر	آخر كلامه
١٧٣	١٨	الملك	الفلاك
١٧٦	١٢	غيره	غير
١٨٣	١٩	غريبا	غريباً
١٩٣	١	ذات نور	ذانور
٢٠٢	٢١	فحاج	فجاج
٢٠٧	١٧	منهما	منها
٢١١	١٥	للجارة	للتجارة
٢١٣	١٤	يساوية	يساويه
٢١٤	٥	وازلة	وازالة
٢٢٣	١	المخاص	الملحص
٢٢٥	٩	القرنات	الفرانات
١٢٥	١٨	ثباتها	ثباتهما
٢٢٦	١١	انحطاطها	انحطاطها
٢٣٥	٥	أى بعد	أي رجعة بعد
٢٤٤	١١	عقيبة	عقيبه
٢٥٢	١٠	السمش	الشمس
٢٥٤	١٢	مثل الصنع	مثل هذا الصنع
٢٥٨	٨	الباس	لباس

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٦٠	١١	جزاء	الأجزاء
٢٦٠	٢١	بينهما	بينها
٢٦٥	١	وتنفرزا	وتنفرز
٢٦٦	٣	انبار	ارتباط
٢٦٩	١٩	ذورا	ذروا
٢٧١	٣	فيسطة	فيسطه
٢٧٩	٤	وكيف	وكيفا
٢٨١	١٢	وأيضاحينئذ	أيضاوحينئذ
٢٨٦	١١	يبثها	يبسها
٣٠٦	١٥	المهة	المهمة
٣٢٢	١٣	يمايزجان	يتمازجان
٣٢٩	١٤	أتم	أنهم
٣٣٠	٣	علىأثقال	أثقالعلىأثقال
٣٣٠	١٦	لاينقض	لاينقص
٣٣٥	١٨	بجمع	بجميع
٣٣٥	٤	شأنها	شأنهما



فهرست الجزء الثاني من كتاب الدليل الصادق على وجود الخالق

صحيفة

صحيفة

